تاريخ اليمن الفكري

في العصر العباسي

(٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ اليمن الفكري

في العصر العبّاسي

١٣٢ - ٦٥٦ هـ

٧٥٠ - ١٢٥٩ م

السِّفْر الرَّابع

تأليف

أحمد بن محمّد الشامي

منشورات العصر الحديث

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

طبع وتوزيع:

دار النفائس بيروت - ص.ب: ١٤/٥١٥٢ - هاتف: ٨١٠١٩٤ - برقيا: دانفايسكو

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كان المفروض ان يكون هذا السفر فصلاً من فصول السفر الثالث الذي عني بدراسة الأدب والثقافة ومعارف الفكر العربي والاسلامي في اليمن بعد الحملة الأيوبية وأثناء العهد الرسولي الأول ومن عاصرهم من أئمة اليمن وسلاطينها أي من عام ٥٦٩هـ إلى سنة ٧٠٠هـ .

ولكن شرح ما أوجزته في المقالة التي أوحت بفصول الكتاب تشعّب وطال ، وتكرّرت نفس المشكلة التي أجبرتني على أن أُفرد لشعراء الفترة الثالثة أو العهد الصليحي سفراً مستقلاً ، وانما هو في التقسيم فصل من فصولها ؛ وها أنا أفرد لشعراء الحقبة الأخيرة ولنفس السبب الذي هو وَفرة عدد الشعراء والنظَّامين من العلماء سفراً رابعاً وأخيراً .

ودواعي الـوقوف مع الأفذاذ من شعراء هذا العهد وقفات طويلة ؛ تُلزمني بهذا ـ لا سيما وهم يُقدمون إلى أدباء العربية لأول مرة في تاريخ الأدب العربي .

ولقـد قاسيت كثيرا من العناء في استخراج تواريخ وفيات الأعلام والأعيان الذين تحدثت عنهم ، وعانيت ما لا استطيع وصفه في سبيل ضبط النصوص ؛ اذ قد تنـوّع عبث أقـلام الكتّاب بها تحريفاً وتصحيفاً والمخطوطات التي اعتمدت عليها جلها بخطوط ضعيفة وعلى طريقة القدماء التي لا تبالي بنقط الحروف ، ولا تتقيد بقواعد الاملاء وكثيراً ما يجعلون الضاد ظاء والظاء ضادا ويقصرون الممدود ويمدون المقصور وينقطون العين والدال بدلاً عن الغين والذال إلى غير ذلك من الأخطاء الاملائية .

وقد حاولت الدقّة والاحاطة جهدي ؛ ولا شك ان ثمة معارف لا تزال مغمورة ومجهولة ، أو غفلت عنها ، أو لم يصل إليها علمي ، فالبحث كما سبق أن قلت بكر ، وقد يكون الأول من نوعه ! وهذا هو عذري لمن يجد خطاءً أو يلاحظ قصوراً أو تقصيراً .

وقد يلاحظ الناقد تنوع وتفاوت الأسلوب الكتابي ، وطريقة التعريف ببعض الاعلام قوةً وضعفاً ، في الأسفار الأربعة ، وربما ارتبك في تعليل ذلك ويظن ان الذي ألّف الكتاب بضعة أشخاص وليس شخصاً واحداً ؛ ولكن الارتباك سيزول حين اذكر اني قد اشتغلت بكتابة هذه الأبحاث والتراجم أكثر من خمسة عشر عاما ؛ وقد فرغت من كتابة تراجم أمثال الامام الهادي ، وابن القم ، وجيّاش ، وابن هتيمل ، قبل عام ١٣٩٠هـ / ١٩٧١ م ، ولم اكتب ما كتبته عن المطرفية ومشايخها ، ولا عن الهمداني والعَنَدي ، والامام عبد الله بن حمزة الا عامنا هذا ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م ولن أبالغ إذا قلت أن بعض ما ورد في الكتاب من ملاحظات وأفكار كنت سجّلتها وأنا في معتقل حجة عام ١٩٥١ م/ ١٣٧٠هـ وبعضها وليد عام ١٩٨٥ م/ ١٤٠٥هـ وبين التاريخين أربعة وثلاثون عاماً ؛ جدّ أثناءها ما جدّ على الكون والحياة . . . ! وفي مثل هذه المدة لا بدّ أن تتطور مفاهيم الباحث ، وتتوسع معارفه ، فيتأثر ويتطور أسلوبه الكتابي ، واسأل الله السداد والتوفيق وحسن الختام .

جمادى الأولى سنة ١٤٠٦هـ — أحمد بن محمد الشامي
يناير سنة ١٩٨٦ م

الشِّعْرُ والشُّعَراء

الشعر والشعراء

المرحلة الرابعة والأخيرة من فترات التاريخ الثقافي والفكري في اليمن خلال ما يسمونه « العصر العباسي » من أخصب الفترات علمياً وأدبياً ؛ ولا شك أن القارىء قد لمس ذلك وأدركه من وفرة عدد العلماء والفقهاء والمؤلفات في شتى الفنون ونحن نتحدث في الفصول السابقة عن اعلامها وملوكها وامرائها وليس ذلك بغريب ـ رغم الاضطرابات السياسية والفتن العشائرية والطائفية ـ لأن تلاميذ من سبق التعريف بهم والحديث عنهم من فطاحل العلماء والشعراء والأدباء في عهد الصليحيين والزريعيّين والنجاحيين ومن عاصرهم وقارعهم من الأئمة الزيديين ، قد استوعبوا ما تلقوه عن مشايخهم واساتذتهم وتبحروا في فهمه ، واجتهدوا فاستنبطوا ما أضافوه إليه ؛ وإذا كانت الصِلات ما بين مصر الفاطمية واليمن ـ قبل الحملة الأيوبية ـ لا تتعدى الهيمنة الروحية المذهبية ـ وزيارات يقوم بها العلماء والسّاسة من الجانبين ، فقد تجاوزت ذلك بعد الاجهاز على الفاطميين في مصر ، ونشأة الدولة الأيوبية ، إلى تدخّلٍ عسكريّ ، في حملات كلٍ من توران شاه ، وسيف الاسلام طغتكين ، والمسعود ، وكان ضمن تلك الحملات العلماء والشعراء والفنانون الذين يحملون معهم عادات وآراء ولهجات لا يعرفها أهل اليمن . وقد كان لكل ذلك ـ ولا شك ـ أثره الفعال في المجتمع اليمني ، فتطور العمران ، وتلقّحت العادات ، وتغيّرت ـ ولا سيما في المدن ـ أساليب الحياة ، والمناهج المعيشية ، وقد أشرنا إلى ذلك في ما سبق من الفصول .

وكان للشعر نصيبه من كل ذلك أو بعضه ، وطعّم الشعراء أساليبهم ، وأثروا ألسنتهم بأوزان والحانٍ وألفاظ جديدة ، وعرف الفرسان منهم أنواعاً لا عهد لهم بها من الأسلحة وأدوات القتال ، وأساليب جديدة لقيادة المعارك ، والكر والفر فيها ، وسجّلوا كل ذلك شعراً ونثراً وشكا من شكا

منهم طغيان العجمة والمسمّيات الكردية والتركية على الألفاظ والمسميات العربية ، وقد سمعنا الامام عبد الله بن حمزة حين دخل صنعاء يشكو انه لم يكد يسمع صوتاً عربياً !

والشعراء في هذه الحقبة من أواخر القرن السادس وحتى أواخر القرن السابع الهجري حين لفظ المظفر الرسولي أنفاسه الأخيرة كثيرون ، وقد أوردتُ جملة من أسمائهم ، ونبذاً من أشعارهم في كتابي « قصة الأدب في اليمن » ؛ وقد ذكرت فيما سبق من الفصول شعراء وأدباء الأئمة والسلاطين والأمراء والعلماء والفقهاء وكنت قد التزمت وأنا أتحدّث عنهم أن استشهد بأشعار من أجادوا نَظم القريظ سواءً كانوا مكثرين كالامام عبد الله بن حمزة وأولاده والملك جياش وأمراء آل حاتم أو مقلّين كالامام ابراهيم بن تاج الدين والملك عبد النبي بن مهدي ، والتزمت نفس الموقف مع من ترجمت لهم من اعلام المؤرخين والمفسرين والمحدثين والفقهاء إذا ما اشتهروا بقول الشعر . وقد كان ذلك لأن الكثير من أعلام اليمن قد تعدّدت مواهبهم ، وبرز منهم المؤرخ وهو شاعر ، والمفسّر وهو إمام ، والطبيب وهو أمير وشاعر .

وكما افردتُ لشعراء الفترة الصليحية فصلاً مستقلاً ، وكذلك للحقبة التي قبلها ، فعليّ أن أتحدث عن شعراء هذه المرحلة الأخيرة والرابعة ملتزماً نفس الطريقة ؛ أسهبُ حين أجد مجال القول ذا سعة ، وفيه إمتاع وفائدة ، وأوجزُ حين أرى ذلك أولى وأجدى وأنفع للقارىء .

ولن أعيد الحديث عن من سبق ذكرهم ، ولكني قد أعيد الكلام واتحدث من جديد عن فحول الشعراء الذين سبق أن استأنست بذكر بعض أشعارهم وأخبارهم ، وأنا أتحدث عن الأئمة والملوك الذين مدحوهم أو ساهموا في خوض الأحداث وصنعها معهم ، كإبن حِمْيَر ، وابن هُتَيمل .

ولعل من واجبي ـ أولاً ـ تسجيل أسماء من سبق أن ذكرتهم أو ترجمت لهم من شعراء هذه الفترة في غضون الفصول السابقة وهم :

١ ـ الامام ابراهيم بن تاج الدين .
٢ ـ السلطان اسماعيل بن طغتكين .
٣ ـ الامام أحمد بن الحسين .

٤ ـ أحمد بن سعد الزيدي .
٥ ـ الأمير أحمد بن عبد الله بن حمزة .
٦ ـ الشيخ أحمد بن علوان .
٧ ـ أحمد بن محمد الأموي .
٨ ـ الشيخ أحمد بن محمد الرصّاص .
٩ ـ أبو بكر العندي .
١٠ ـ الشاعر التكريتي .
١١ ـ الأمير جعفر العياني .
١٢ ـ الداعي حاتم الحامدي .
١٣ ـ الامام الحسن بن بدر الدين .
١٤ ـ الشيخ الحسين بن النسّاخ .
١٥ ـ الشاعر حنظلة بن علي .
١٦ ـ الأمير داوود بن عبد الله بن حمزة .
١٧ ـ أبو السعود بن محمد .
١٨ ـ الامام عبد الله بن حمزة .
١٩ ـ القاضي عبد الله بن زيد العنسي .
٢٠ ـ عثمان بن يحيى بن فضل .
٢١ ـ الأمير علوان بن بشر اليامي .
٢٢ ـ السلطان علوان الجحدري .
٢٣ ـ الفقيه علي بن سالم العبيدي .
٢٤ ـ علي بن محمد بن الوليد الاسماعيلي .
٢٥ ـ الأمير علي العنسي .
٢٦ ـ القاضي علي بن نشوان الحميري .
٢٧ ـ علي بن يحيى البحيري .
٢٨ ـ غازي المعمار .
٢٩ ـ فاضل دغثم .
٣٠ ـ قاسم الشاكري .
٣١ ـ أخو كندة .
٣٢ ـ المبارك بن منقذ .
٣٣ ـ الشيخ محمد بن أحمد الأَنْف .

٣٤ ـ الأمير محمد بن حمزة .
٣٥ ـ القاضي محمد بن نشوان .
٣٦ ـ الأمير مدرك بن بشر اليامي .
٣٧ ـ القاضي مسعود العنسي .
٣٨ ـ الامام يحيى السراجي .
٣٩ ـ يحيى بن العمك .
٤٠ ـ الامام يحيى بن المحسّن .

وثمة فقهاء وعلماء آخرون نسبت إليهم قصائد ومنظومات علمية وورد ذكر بعضهم في العقود اللؤلؤية ، والسمط الغالي الثمن ، وترجم لبعضهم السيد عبد الله بن محمد السّقاف في كتابه تاريخ الشعراء الحضرميين وتعرض لذكر الاسماعيليين منهم الدكتور الهمداني في كتابه « الصليحيون » ومنهم :

٤١ ـ الفقيه العالم الحنفي أبو بكر بن عيسى بن عثمان

المعروف بابن حنكاس كان من أكبر فقهاء زبيد وترجمه الخزرجي وقال انه توفى عام ٦٦٤هـ وانه كان خطيباً مصقعاً وشاعراً مفلقاً [العقود جـ ـ ١ ـ ص : ١٤١] وسبق ايراد أمثلة من شعره .

٤٢ ـ الفقيه العالم الحضرمي سالم بافضل

ترجمه السقاف وقال انه استشهد في عام ٥٨١هـ وأورد نماذج من نظمه [تاريخ الشعراء جـ ـ ١ ـ ص : ٥٣ ـ ٥٧ ـ] .

٤٣ ـ الشوكي الذماري

ذكره صاحب السمط في أحداث عام ٥٧٠هـ [سمط ص ١٨] .

٤٤ ـ الشيخ علي محمد الجحيشي

ترجمه السقاف وأورد نماذج من نظمه وقال : انه ولد في أجواء سنة ٦١٥هـ وتوفى بتريم عام ٦٧٥هـ [تاريخ الشعراء ص : ٦٣] .

٤٥ ـ الفقيه علي بن عقبة الخولاني

ترجمه السقاف وله شعر حسن ، واتصل بالملك المظفر وكانت ولادته سنة ٦٣٥هـ وتوفى عام ٦٩٥هـ بعدن منكوباً بائساً ومن شعره :

إذا لم يكن للمرء ذي الحلم جاهلٍ ... يدافع عن أعراضه ويناضل ،
خطت قدم الأعدا إليه تعمداً ... ونال سفيهٌ عرضه وهو غافل !

[تاريخ الشعراء ج ـ١ ـ ص : ٦٥ ـ ٦٩] .

٤٦ ـ الشيخ الفقيه العالم علي بن محمد بن حاتم

الذي راسله العلامة نشوان الحميري ومولده في مدينة تريم في أجواء عام ٥٤٠هـ وتوفى سنة ٦٠٠هـ ترجمه السقاف في كتابه تاريخ الشعراء الحضرميين ص ٥٨ ـ ٥٩ .

٤٧ ـ الداعي علي بن حنظلة بن أبي سالم الوادعي [٦١٢ ـ ٦٢٦]

ترجمه الدكتور حسين الهمداني في « الصليّحيون » فقال : قام بالدعوة بعد الداعي علي بن محمد بن الوليد ، وله في الدعوة الاجتهاد القويم ! وكان يقصده القصّاد طلباً للعلم ، ولا يختلف في تقدمه من همدان إثنان . وقد سبق ذكره بين علماء الكلام ، وأثبت مطلع أرجوزته ولعله من المفيد تسجيل قوله منها :

سألتَ وفّقْتَ إلى الرشاد ... عن أصل بدء الكون والايجادِ ؛
وكيف كان الأمر في البدايَهْ ... وما إليه ينتهي في الغايهْ ؟!
وما الذي أوجب للنفوس ... رباطها في العالم المعكوس ؟
حتى اغتَدتْ لابسةً بالجسم ... مبلوّة فيه بطول الهمّ !
وما الذي ينزع ما عراها ... من ظلمة الجهل الذي أنساها ؟
محلها بالعالم الروحاني ... فاستغرقت في العالم الظلماني
حتى تفى إلى جوار ربها ... راجعة تائبةً من ذنبها
راضية إذ ذاك مطمئنّة ... مسرورة فائزةً بالجنة .

إذ أنه بهذه الأرجوزة وهي تحتوي على ٦٦٣ بيتاً قد قدم في نظم سلسٍ

مستساغ خلاصة ما أورده المؤلفون الاسماعيليون في علم المبدأ والمعاد حسب عقائدهم . وتوفى كما سبق عام ٦٢٦هـ [الصليحيون ص : ٢٩١ - ٢٩٧] .

٤٨ - العماد الشيزري

ذكره مؤلف السمط في أحداث سنة ٦١١هـ [سمط ص : ١٦٦ - والعقود اللؤلؤية جـ - ١ - ص ٤٣ -] .

٤٩ - ابن أبي عمر الصنعاني
[حوالي ٦١٠هـ]

الفقيه الأديب الشاعر مؤلف كتاب « سقط الجواهر الأدبية في الغريب من الألفاظ العربية » ترجمه بايجاز صاحب « المستطاب » وقال نقلاً عن بعض بني الوزير انه كان معاصراً للامام أحمد بن سليمان ثم قال : « يمكن انه أدرك آخر مدته وعاش إلى أيام الامام عبد الله بن حمزة لان كتابه « السقط » منتزع من ضياء الحلوم لمحمد بن نشوان . ومن شعره :

إن صحبنا الملوك تاهوا علينا ... واستبدوا بالرأي دون الجليس ،
أو خدمناهم ببسط وقبض ... كان أدعى إلى دخول الحبوس
أو لزمنا السلاح نبغى به العز ... تعدى إلى اختزام النفوس
فلزمنا البيوت نتخذ الحبر ... ونحلي به وجوه الطروس
ونناجي العلوم في كل فن ... عوضاً عن منادمات الكئوس ،
وقنعنا بما به قسم الله ... ولم نكترث لهم وبوس
وغنينا بما عكفنا عليه ... من خضوع لكل نذل خسيس
عزة النفس والسلامة للدين ... اصطبار الفتى لدهر عبوس

ثم قال : « قلت ورأيت هذه الأبيات لغيره قبله فكأنه انما تمثّل بها » « المستطاب لوحة : ١٣٧ » .

ومن كتابه سقط الجواهر نسخة في مكتبة جامع صنعاء رقم ٢٦ لغة .

٥٠ ـ أحمد بن أسعد اليمني

العالم الشاعر الأديب ترجمه ابن أبي الرجال وقال : « كان ذكاؤه شعلة قبس وله مقامات » وقد سبق أن أثبتُ قصيدته التي عارض بها قصيدة « لعل الليالي الماضيات تعود » للأمير أحمد بن عبد الله بن حمزة وأنا أتحدث عنه في السفر الثالث ومطلع قصيدة أحمد بن أسعد

منازل فيها قائم وحصيد ... قفار بها عوذ الوحوش هجود

ولم يذكر سنة وفاته ولكنه من معاصري الامام أحمد بن الحسين والملك المظفر [مطلع ج ـ ١ ـ لوحة ١١٦] .

٥١ ـ أحمد بن سعد القدم

شاعر عالم كنيته أبو الحسن وهو من معاصري الامام عبد الله بن حمزة ومن شعره في مدح الامام قوله :

رِد من هواك لأسما حيثما وردا ... واسمح بدمع غريب طالما جمدا
لا تنه قلبك عن أمر تحاوله ... وأقصد به في رياض الحب ما قصدا
وقل لذي كبد بالشوق قطعها ... من أين تلقى إذا قطعتها كبدا ؟

ومن مديحها :

ولو رأيت أمير المؤمنين بجيش . . . الكرد والمورد الصعب الذي وردا
وانفس الخلق والأكباد قد زحفت ... والأرض ترقل من أقطارها زردا
أبصرت صورة إنسان على فرس ... قد ألبست تحت أثواب التقى أسدا

[مطلع ج ـ ١ ـ لوحة ١٥٥] .

٥٢ ـ الشريف أحمد بن سليمان العلوي

من وجوه العلماء والأدباء المعاصرين للامام أحمد بن الحسين وله فيه عدّة قصائد ومنها :

ألذّ الهوىٰ ما كان أعرى عن الهُجْرِ ... وأسلم من ليل التباريح والهَجْر ،
وما أخلصت فيه العذارىٰ ودادها ... ولم تطو أسرار القلوب على غَدرِ
طربت وقد ولّى الشباب وقلما ... أرى طرباً بعد الشباب لذي حِجر

وكائن زجرت النفس عن سرعة الهوى مراراً فلم تقصر فصمتُ عن الـزجرِ !

وهي طويلة [مطلع جـ ١ ـ لوحة ١٦٥ ـ ١٦٦] .

٥٣ ـ القاضـي أحمد بن سليمان العنسي

قال ابن أبي الرجال في ترجمته : « كان يجمع مع العلم التيقظ والنباهة ولذلك جعله الامام المهدي أحمد بن الحسين حاكماً بصنعاء عندما فتحها مع ما يترقب من الـدوائر » ومن شعره يهنىء الامام بفتح صنعاء وهرب أسد الدين التركماني عنها

أرأيـت كيف ترنّـحُ الأغـصـانُ تحت الشمـوس تقلّهـا الكثبـانُ ؟
أم هل رأيـت جاذراً الحـاظهـا من سحـرهـا روتٍ لها أجفـان

وهي طويلة [مطلع جـ ـ ١ ـ لوحة : ١٦٧] .

٥٤ ـ الشريف أحمد بن محمد بن حاتم العلوي

من ولـد الـعـبـاس بن علي بن أبي طالـب رضـي الله عنـه ترجمـه ابن أبي الـرجـال وقال : كان عالماً فاضلاً كامل الصفات بليغاً مفوهاً وله المشاهد الهائلة مع الامام أحمد بن الحسين ثم أورد له قصيدة ميمية قالها في وقعة « حضور » سنة ٦٤٦هـ ومنها :

خليـليّ امـا تسـألاني فانـني خبـير بأن الـعـز تحت الـلهـاذمِ
ألم تريـا جنـد الامـام وقـد أتت إليهم جيـوش من جنـود الأعـاجم
فلم يك إلا لحظة الـعـين بيـنـنـا وهبّت ريـاح النصر عنـد التصـادم
فولىّ جنـود الـظلم والله ناصرٌ ونـحن عليهم كالليـوث الضراغم

[مطلع جـ ـ ١ ـ لوحة ٢٧١] .

٥٥ ـ اسماعيل بن أبي النجم

ترجمه ابن أبي الرجال فقال : « اسماعيل بن عبد الله بن أبي النجم من البيت الذي باح سرّ مجده ، وفاح نشر نده ، وناهيك بقول الامام ابراهيم بن تاج الدين فيهم :

لآل أبي النجم الكرام مكارم تحل محل النيرات الثواقب
لهم عادة بذل النوال إذا سطت يد الدهر وانسدت وجوه المطالب

ثم قال : « وكان هذا القاضي علامة صدرا مقدماً في وقته ذا مكانة في الفضائل على أنواعها وأجناسها وله شعر كثير ومن ذلك ما كتبه إلى الأمير محمد بن أحمد بن عبد الله بن حمزة وهي قصيدة طويلة فيها عتب ومنها :

ما إن كفرت صنيعكم ووادكم فاسأل به أهل البسيطة تخبرِ
تزهو المنابر من ثنائي فيكم بفرائد فاقت فريد الجوهرِ
فعلام يهضمني «زُنَيمٌ» رتبتي أو أن يؤخر في المقام تصدري
أو ان أضام وأنت ذخري والذي ألقى به ريب الزمان المعتري

ثم أورد له أبياتاً قال انه بعث بها إلى الأمير نجم الدين محمد بن سعيد صاحب الحرم الشريف وذلك انه قبض على القاضي جعفر بن عبد الله صنو القاضي اسماعيل منها :

ما بال عينك منها النوم ممنوع وحبل ودّك بعد الودّ مقطوع ؟
وأنت تشكو أناساً كنت تمنحهم خلاصة الود فيما عنك مسموع ؟
فقال: إن زمان السوء روّعني بحادث لم يحدثني به رُوعُ
سطت علينا أناس نحن شيعتهم قد طال منّالهم في الدين تشييع
وضيعوا حقنا في عقر دارهم وحرمة البيت؛ هل في البيت تضييعُ؟

إلى آخرها ؛ ثم ذكر انه ممن عضد الامام إبراهيم بن تاج واستشهد في معركة « أفق » في سنة ٦٧٤هـ وقد رثاه الامام بقصيدة طويلة مطلعها :

خطبٌ ألَمّ فأنساني الخطوب معا وصيّر القلب في أشغافه قطعا

[مطلع جـ ـ ١ ـ لوحة : ٣٥٣ ـ ٣٥٩] .

٥٦ ـ جابر بن مقبل

الشيخ الرئيس العالم أحد اعلام دولة الامام عبد الله بن حمزة وكبار قواد معاركه مع الغزّ والأيوبيين ، وقد أجازه الامام في عدة علوم ، وكان ممدحاً بالشعر كريماً ، ويلى من عظائم الأمور ما لا يليه إلا الصناديد ؛ ومن شعره

ما وجهه بعد وقعة دارت بينه وبين الغز إلى صديق له كان غائباً :

عمران لو عاينت أقدامنا ... على خميس مرجحنٍّ طحونْ
وقد تدانت وانبرت بيننا ... بوارق تغشى ضياء العيونْ
« كباشة » الروم أسود الوغى ... والترك بالخوذات ذات القرون
وصاح راعي الجيش في قومه ... بلفظة العجم الا تعطفون ؟
فلم يجيبوه وقد برقعت ... بمرهفات اخلصتها القيون
فراح من ساعته قارعاً ... للسنّ منكوباً خليعاً حزين .

ولعل وفاته في مطلع القرن السابع [مطلع البدور جـ ـ ١ ـ لوحة : ٣٧٤ ـ ٣٧٥] .

٥٧ ـ جعفر بن أحمد العياني

السيد الأمير جعفر بن أحمد بن جعفر بن الحسين بن القاسم العياني كان أديباً مفوّها ومن أعوان الامام أحمد بن الحسين ؛ ولما نجا من محاولة اغتياله قال يهنيه :

هنيئاً كلما مرّ الجديد ... بما أولاك ذو العرش المجيدُ
ولا زالت تصاحب كل يوم ... معاليك السعادة والسعود
أمير المؤمنين فداك قوم ... رضّي فِعالِهِمْ غدرٌ عتيد
أراد الناكثون لك انتقاصاً ... ويأبى الله إلا ما يريد

وهي طويلة ؛ ولعله عاش بعد استشهاد الامام أحمد بن الحسين عام ٦٥٦هـ [مطلع جـ ـ ١ ـ لوحة ٣٨٣] .

٥٨ ـ الحسن بن البقا التهامي

ترجمه ابن أبي الرجال فقال « هو الشيخ العلامة المفسر المحدث المصنف في شتى العلوم حجة الاسلام الحسن بن البقا بن صالح بن يزيد التهامي كان آية من آيات الله البينات محققاً في جميع العلوم له التفسير والكامل في الفقه لم ينسج على منواله في عدة مجلدات يستدل فيه بالأحاديث الشريفة وله في الفرائض كتاب الوافي وتولى القضا للامام أحمد بن الحسين وله أشعار كثيرة » وقد أورد له قصيدة مطلعها

إن الحمائم يوم بطنِ « سويقةٍ » أورثن سامع سجعهن سقاما

ثم قال انه توفى عام ٦٧٠هـ [مطلع جـ ـ ٢ ـ لوحة : ٢٢ ـ ٢٣] .

٥٩ ـ الحسن بن جعفر القاسمي

من عيون الرؤساء والعلماء كان من معاصري الأمير محمد بن عبد الله بن حمزة وقال يخاطبه بعد وقعة « عصر » المشهورة بين الاشراف والأيوبيين سنة ٦٢٣هـ

عاداتك النصر والخطيّ مشتجر يا خير من قلدته أمرها مضرُ
لولا عزائمك اللاتي عرفت بها ما كان للدين عن أعدائه وزرُ
لكن حميت ببيض الهند حوزته والشاهدان بذاك السمع والبصر

إلى أن قال يسلّيه اثر الهزيمة :

عليك للمجد أن تبنى قواعده وما عليك إذا لم يسعد القدر
إن النبوّة أعلى كل منزلةٍ قد شاب رونقها التنغيص والكدرُ
هل كان مثل رسول الله من أَحَدٍ ؟ أو كان يبلغه في وصفه بشر ؟
فكان يوم حنين ما علمت به من الهزيمة لولا معشرٌ صُبرُ
هوّن عليك وان نابتك نائبةٌ فالجرح مندمل والكسر منجبر
والدهر يومان ؛ يوم مشرب أسنٌ من المذاق ويوم مشرب حَصِرُ

وهي طويلة ولم يذكر مؤلف المطلع سنة وفاته [لوحة : ٢٥ ـ ٢٦ ـ جـ ـ ٢ ـ] .

والعجب لابن أبي الرجال ! فقد ترجم لشريف قاسمي آخر سمّاه الحسن بن نزار وقال انه حضر وقعة « عصر » ونسب إليه القصيدة وجلّ من لا يسهو انظر لوحة ١١٨ ـ ١٢٢ جـ ٢ .

٦٠ ـ الحسن العصيفري

ترجمه ابن أبي الرجال فقال : « كان عالماً فاضلاً من بيت علمٍ معمور بالخير ، حميريّ النسب شيعي الحسب ، ومسكن أهل هذا البيت « بَميْتَك » ناحية عفّار وأكثر شعره في نصرة الاسلام ، وتهييج أهل الحق ، وشعره

واضح المعاني ، فصيح المباني ، ومنه يوم فتح الامام المنصور بالله صنعاء [سنة ٦١١هـ] .

ظهرت حجة العلي الكبير بالامام المؤيد المنصورِ
بسليل النبي من طاهر العتَرة ، من فرع شبرَّ وشبيرَ
ألبس الناس من محياه نوراً قد بدا والانام في ديجورَ
وعليه من الجلالة بردٌ ليس من سندس ولا من حرير

وهي طويلة » . وله من أخرى في المنصور عبد الله بن حمزة أيضا :

أقمت من دين أحمدٍ أودَه وأنجز الله منكَ ما وعدَه
يا رافع الظلم عند شدّته ، وماهد العدلِ خير من مهدَه
وأنت أنت الذي لهيبته فرائص الظالمين مرتعدَه
ويلٌ لمن خانه وعاندهُ ، ويلٌ لأعداء دينه المردَه
ويلٌ لمن لم يدِنْ بطاعتِهِ ، وأنكر الفضل فيه أو جحَدَه
كيف يحب النبي ويبغضه وقد رأى حب والدٍ ولَدَه
طوبى لمن سار تحت رايته ومن حذا حذوه ومعتقده
طوبى لأرض مشت بها قدمٌ له ، وطوبى لمنبرٍ صعدَه
لا يعقد الدهر ما يحلّ ولا يحلّ كفُّ الزمان ما عقدَه

ولم يذكر سنة وفاته ولكنه من معاصري الامام عبد الله بن حمزة المتوفى عام ٦١٤هـ [مطلع جـ ـ ٢ ـ لوحة : ٤٥ ـ ٤٦] .

٦١ ـ الحسن بن علي الحمزي

من أشراف الحمزات في عهد الامام أحمد بن الحسين ويقول ابن ابي الرجال إن له أشعار كثيرة فائقة ومن ذلك ما قاله لما فتح الامام صنعاء :

لقد آن ياصنعاء ان تتبدّلي بسيدِ الفلا ليث العرين الغضنفرا
وأن ترفضي لبس السواد وتتركي مدى الدهر في الأيام ما كان منكرا
وأن تسبقي بغداد بالفتح انني أرى حظ أهل السبق أعلى وأوفرا
وحسبك بالمهديّ في كل حالةٍ إماماً إذا ما أورد الأمر اصدرا

وقد أعربت بغداد ان سوى الذي ... بها من بني العباس قد صار أجدرا
ونادت إلى المهدي أهلاً ومرحبا ... وأعطته عن طوع سريراً ومنبرا

إلى آخرها ولم يذكر سنة وفاته ولعله عاش إلى ما بعد ٦٥٦هـ [مطلع ج ٢ لوحة : ٥٧] .

٦٢ ـ الحسن الأشل

السيد البليغ الحسن بن يحيى الأشل الهدوي ، قال في « المطلع » كان عالماً كبيراً فاضلاً كامل النعوت مجيداً في النظم ، ومن شعره جواب إلى الامام إبراهيم بن تاج الدين لما رثى القاضي اسماعيل بن أبي النجم فقال السيد الحسن في جوابه :

نظم ألمّ فهاج الوجد والجزعا ... وجرّع النفس من ماء الأسى جرعا
جاءت به نحونا الركبان قاصدة ... بمثله ما رأى راءٍ ولا سمعا !
إهدى إليّ فطارت مهجتي فرحاً ... شوقاً إلى صاحب الملقى ومن سجعا
فقلت أهلاً وسهلاً بالنظام ومن ... اهدى النظام ومن أنشاه وابتدعا

ولم يذكر شيئاً من أخباره ولا متى كانت وفاته لكنا نعلم ان القاضي اسماعيل بن أبي النجم قد استشهد في معركة « أفْق » التي نشبت بين الامام ابراهيم بن تاج والملك المظفر سنة ٦٧٤هـ ولعله عاش إلى أواخر القرن السابع . [مطلع ج ـ ٢ ـ لوحة : ١٢٥] .

٦٣ ـ الحسن بن يحيى القاسمي

من معاصري الامام عبد الله بن حمزة وكان هماماً سرياً وقال في وقعة كانت للامام بجهة مسور :

أتراه ان يغضى على جمر الغضا ... رجل بيمناه الحسام المنتضى ؟
وحسامه ماض وعزمة بأسه ... أبداً تزيد على مهنّده مضا
وفعاله لله ليس بخائف ... من غيره غضباً ولا راج رضا
وَالَىٰ ونَادَى في المهيمن معلنا ، ... وأحب فيه من أحب وأبغضا ،
فحباه بالنصر العزيز وحاطه ... وأختاره للدين عزّاً وارتضى

وهي طويلة ولم يذكر ابن أبي الرجال كعادته سنة وفاته [مطلع جـ ـ ٢ ـ لوحة : ١٢٧] .

٦٤ ـ القاضي راشد الصنعاني

القاضي العالم الأديب راشد بن الحسن بن أبي يحيى الصنعاني ولاه الامام عبد الله بن حمزة القضا وله شعر جيد ومنه :

كيف اصطبار محب ما له جلدُ ... ولا له بدنو الضاعنين يدُ ؟
بان الاحبة عنه فهو بعدهم ... صبٌّ بهم مستهام مغرم كمِدُ ،
يا أيها البرق سائل بالحمى طللاً ... أقوى وأقفر حتى ما به أحدُ !

ومنها :

وهل أقاموا على العهد القديم لنا ... منهم فإنّا على العهد الذي عهدوا ؟
ان يقربوا فمراد القلب قربهم ... أو يبعدوا فهو منهم حيثما بعدوا .

ويأليت المؤرخ ابن أبي الرجال سجل القصيدة كاملة فانها صافية الديباجة ، صادقة اللوعة ، فيها الحس الصنعاني الحي ، ولكنه كثيراً ما يستكثر من النظم الذي ليس إلا تقاطيعاً وأوزاناً ؛ ولا ندري هل عاش هذا القاضي بعد وفاة عبد الله بن حمزة ٦١٤هـ أم مات قبل ذلك ؟ [مطلع ج ٢ لوحة : ٢٢٤] .

٦٥ ـ الشيخ راشد الريمي

وسرعان ما انتقل ابن أبي الرجال إلى التحدث عن راشد آخر عاصر الامام أحمد بن الحسين فقال : الشيخ العلامة راشد بن علي بن الحسين بن عبد الرحمن صاحب ريمة الأشاطب . من أهل الرصانة والدين ، والثبات واليقين ، شديد العناية بتشييد أركان الاسلام ، وهدم قواعد ما خالفه ، ومن حماة المذهب الشريف وأهل الأنفة ، وكان عظيم الشأن رئيساً كبيراً وله أشعار كثيرة منها

سرى طيف أسما وهو طيفٌ مسلّمُ ... وزار سُحيراً ؛ والحواسدُ نوّم ،
ألمّ بنا ؛ والحيّ منهم مهوّمٌ ... بنجد ، ومنهم راحلٌ ومخيّم ،
أحن اشتياقاً ؛ والركائب في الفلا ... تحن من الجهد الضليع وترزم ،

وتخلّص فيها إلى مدح الامام أحمد بن الحسين وأورد له أخرى لامية مطلعها :

أسبقت طيفاً طائفا وخيالا ... وطللت دمعك بالحمى إطلالا ؟
ووقفت تسأل عن قديم قطينها ... عجباً فما ردّت عليك سؤالا
ولقد عُذلت على الصبابة والهوى ... فعصيت في فرط الهوى العذالا

وقد تخلّص فيها إلى مدح الامام واستنهاضه لغزو تهامة فقال :

أمّت أمير المؤمنين وأمّلَتْ ... من أحمد ان يدرك الآمالا .
فمتى أرى الجرد الجياد كأنها ... حور النعام تراسلت أرسالا
تطأ الربا من ريمةٍ وتهامةٍ ... وتعيد هام المعتدين نعالا

ولم يذكر له تاريخ ولادة ولا وفاة ، ولكنه من معاصري الامام أحمد بن الحسين الشهيد عام ٦٥٦هـ وشعره ـ أو ما نقل منه ابن ابي الرجال ـ لا يسامق روعة ورقةَ شعر راشد الصنعاني وشعر « الراشديّن » بين ما ضاع أو لا يزال موؤداً من الشعر اليمني .

[مطلع جـ ـ ٢ ـ لوحة : ٢٢٤ ـ ٢٢٥] .

٦٦ ـ زيد بن جعفر الباقري

الباقري ثم الصعدي يقول مؤلف مطلع البدور انه من علماء أوائل المائة السابعة وانه لقي الامام أحمد بن الحسين وقد أورد له قصيدة تائية نعرف منها انه كان فصيحاً ضليعاً ولغوياً مبيناً ، أو أنه كان يتكلف استعمال غريب اللغة ، ولغرابة الألفاظ التي ضمنها في تائيّته هذه فقد عبث النساخ في رسمها ولم يتقنوا ضبطها وتعبتُ في استخراجها ومطلعها :

«أهاب بمسلوب الحشاشة مسبوتِ»، ... والمسبوت المغشىٰ عليه والعليل

واستعمل في العجز لفظة « المرّوت » وهو يعني الوادي الجديب ،

ثم قال

فلبّيتها مستمطياً ظهر لوعةٍ ... من الشوق لا مستمطيا ظهر مخروتِ

والمخروت المخطوم في أنفه من النوق

فحينا تجوب البيد ليس يهولني ... نتائف يعمى عندها كل خرّيت
دليلاي طيفٌ لا يزال مسسايري ... وريّا رباها حين يأتي بتفتيتِ
أرى ان المامي بها أعظم المنى ... ولو جبت سيروتاً إلى كل سيروتِ

ومنها :

وتـفـعـل أعـيـان لِعـيـن محلّهـا بألبـاب من يجتـاز ما فعـل هاروت
فحـبـل سلوّي دونها قد بتـتُّـهُ وحبـلُ اشتيـاقي نحوها غير مبتوت
أمـامـي وخـلفي حاديـان تخالفـا فلست بمصـغ لا إلى غيرهـا لِيتي

والّلِيت صفحة العنق ، وفي الحديث : يُنفخ في الصور فلا يسمعه أحدٌ إلا أصغى لِيتَـه أي أمـال صفحة عنقه ؛ ثم تخلص إلى مدح الامام ابن الحسين فقال

سوى العـرصات الزاكيات التي سمت بأفضـل منـظورٍ وأكـرم مسمـوتِ
وأعـلى الـورى كعبـا وأفضلهم أبـاً وأرفعهم في العـالمـين مدى صيت

[مطلع جـ ـ ٢ ـ لوحة : ٢٣٤] .

٦٧ ـ سبأ بن المفرّح
[ت حوالي ٦٢٠هـ]

الشاعر الشيخ سبأ بن مفرّح بن منصور من شعراء عهد الامام عبد الله بن حمزة [ت ٦١٤هـ] ذكره ابن أبي الرجال عرضاً وهو يتحدث عن السلطان بشر بن حاتـم اليامي قال : « وكـان السلطان بشر عظيم الشـأن رفيع المكـان ، بيده جنود وحصون وللامام المنصور بالله عبد الله بن حمزة إليه قصـائـد فيها ثناء عظيم ، وله انتساب إلى مذهب العترة ، والظاهر عند الناس انه غير زيدي ، وفي معاملات الامام التصريح بزيديته ، وكان جليلاً ملكاً سامياً ، واتفق بينه وبين السلطان اسماعيل الغزي [الأيوبي] حروب وهو فيها منتسبٌ إلى الامام المنصور بالله فلما مات رثاه سبأ المذكور بقصيدة يذكر فيها جفنة السلطان بشر المعروفة بمُعِيشة ومنها :

هذي قواعـد مجد يعـرب ثلّتِ وذراه من فوق الكـواكـب خرْتِ

ومنها :

مَن موسـع الأضيـاف ترحيباً وتـأهيـلاً امـام قدومـه « بمـعـيـشـة » ؟
دهمـاء من ودكِ السـدائف طالمـا نهلتْ به مرّ الـزمـان وعـلّتِ
مازال يملـؤهـا الـثـريـد مكـلّلاً أشـلاء كل كَهـاةِ بَرْكٍ أنـقـتِ
وتـرى القيـوز تصبّ في أرجائها الأنحاء لو سقـت الحـضـيض لأروتِ

فتخالها من وردها وصدورها كسجال دولاب الطويّ أمرّتِ
هذي تصبّ وتلك نازلةٌ وتا ، طلعت ، وذي أفلت ، وتلك تولّت
فكأنّها في القدِّ وهي تمجه حبشية كسيت حُلىً من فضّةِ

إلى آخرها . [مطلع جـ ٢ ص : ٢٨٥] ولم يذكر له تاريخ وفاة ولعلها في حدود سنة ٦٢٠هـ .

٦٨ ـ القاضي عبد الله بن أبي النجم
[ت ٦٤٧هـ]

من شعراء الفقهاء الاعلام قاضي القضاة العلامة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن حمزة بن أبي النجم ترجمه ابن أبي الرجال فقال : « كان عالماً فاضلاً مرجوعاً إليه مقدماً في كل شيء له أخلاق العبّاد والعلماء ، في مظهر الملوك وإفاداتهم ، ولي القضاء بعد أبيه بصعدة وكتب له الامام المنصور عبد الله بن حمزة عهداً بليغاً ثم استمر على ذلك إلى زمان الامام المهدي أحمد بن الحسين وكتب له عهداً أبلغ من العهد المنصوري ، وكان موئلاً للبلاد والعباد وتوفى في نصف شهر رجب سنة ٦٤٧هـ وولي بعده القضاء ولده ركن الدين محمد وفيه وفي ولده وحفيده مراثي علماء زمانهما ومن ذلك مرثيه الشريف الأمير بدر الدين محمد بن علي بن أمير المؤمنين التي مطلعها :

هو الدهر لا يرثى لحال سليمُهُ فيبرى ، ولا تُوسى بطب كلومُه
ولم أرَ كالانسان يجزع للقضا ويبغى انتصافاً والزمان غريمُه

[مطلع جـ ـ ٤ ـ لوحة : ٦٧ ـ ٦٨] .

وكان القاضي ابن أبي الرجال قد ذكر في ترجمته لحفيد القاضي ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي النجم فقال ورثاه الامام المعتضد الداعي يحيى بن المحسن فقال :

أرى الموت كلّ به مرتهنْ فصبراً على حادثات الزمنْ
أوائلنا رحلوا قبلنا ونحن بآثار من قد ظعنْ

وهي طويلة فأجاب القاضي عبد الله بقوله :

كتابك يا ذا الوفا والمنن يفرّق جمع جيوش المحنْ
ويأسو القلوب ويشفي الكروب ويقطع سبل دواعي الاحن

وذكر له قصيدة أخرى يرثي حفيده بها وشعره من نظم الفقهاء .
[مطلع جـ - ١ - لوحة ٤١ - ٤٢ -] .

٦٩ - علي بن أحمد الشاوري

من العلماء وأهل الرياسة في عهد الامام عبد الله بن حمزة ومن شعره قوله

خليليّ هل في الدار عُتْبى لعاتب ... وهل تنجح الآمال مطلب طالب ؟
وهل عائد عصر الشباب الذي مضى ... وهيهات بل هيهات عودة ذاهب !؟
فيا صاحبي من آل فهر بن عامرٍ ... أعنى بفيض الدمع ان كنت صاحبي
وقف نسأل الأطلال أين تحّملتْ ... بأحبابنا الغادين خوص الركائب ؟
سرت عيسهم تحت الدجى بأهلةٍ ... غوارب في أكبادها والغوارب
تبدّلت من تلك الديار وأهلها ... حنيناً وتهياماً إلى كل غائبِ !

وقد خلص إلى مدح الامام عبد الله فقال :

وليل كليل العاشقين قصرته ... ببيض المهارى واعتساف السباسب
أصوغ القوافي في الامام واجتلي ... مناقبه ؛ لازال جم المناقب
أشم طويل الساعدين إذا احتبى ... رأيت علياً في لؤي بن غالب

وهي طويلة [مطلع جـ - ٣ - لوحة : ٩٩] .

٧٠ - علي بن أحمد بن دريب

ترجمه ابن أبي الرجال ترجمة قصيرة وقال عالم كبير فصيح بليغ كان من أصحاب المنصور بالله عبد الله بن حمزة ولم يحضرني الآن شيء من شعره ولا أخباره [مطلع جـ ٣ - لوحة ١٠٥] .

٧١ - القاضي علي الوادعي

عالم كبير وشاعر بليغ ترجمه القاضي أحمد بن أبي الرجال فقال : « لسان زمانه وإنسان أوانه ، علي بن أحمد بن جابر الوادعي ، أحد العلماء ، وأحد البلغاء ، وله قصائد غر ، وفرائد در ، من ذلك قصيدته التي أنشأها بعد معركة « المولدة » من أطراف بلاد حاشد وكانت بين « الغز » والأمير محمد بن الامام عبد الله بن حمزة يقول فيها :

«حشاشة نفس ودّعت يوم ودعوا» أهابت بقلبٍ في الهوى متقلب
فللّه ما يخفي فؤادي من الجوى وقد ركبوا يوم النوى كل مركب ؛
ألا قف برسم الدار مستخبراً لها وروّق بها جفنيك طوراً وصوّب
وأهرق بها ماء الجفون فأنها ستكشف عن مكنون سرٍ محجّب
أقم ياغراب البين ما شئت وارتحل إذا شئت واهتف ما بدا لك واتعب
فقد كنت أخشى البين حتى وجدتها مفاجئة لادرّ درك فاذهب !
وان غراباً صاح للبين مرةً وسانح يمنٍ مرّ ليس بأعضب
أفاد نوى ميمونة قذفت بها إلى مسغب يفضي إلى غير مسغب
إلى سوح عز الدين خير بني الورى حليف المعالي الاريحيّ المهذّب

ومنها في وصف الوقعة :

ويوم تلاقت بين ركني «شوابة» و «ذيبين» من محضٍ ومن متأشّب
كتائب زفّتها إلينا وأجلبت بنو يافث أطراف أبناء يعرب
على كل جرداء الاهاب طمرة ومنجردٍ عبل الذراعين سلهب
وجاشت أسود الغاب من كل جانب بجرْدٍ تسامى في الأعنة شزّب
ألم يخش درع الهاشمي وسرجه بذي لبد من أسد خفّان أغلب
إذا الخيل كرّت كرةً فلّ حدها بنابٍ ضروب للرجال ومخلب
فما ابن طفيل عامر وابن حارث عتيبة في جون من النقع أشهب
وما كان بسطام بن قيس بن جالدٍ إذا ما انتمت فرسان بكر وتغلب
ولا عنتر والخيل تغزو عوابسا عليها من الفتيان كل مجرب
بأطعن منه والقنا متشاجر وأضرب للمستلئم المتلبب

[مطلع جـ ٣ ـ لوحة ١١٠] .

٧٢ ـ علي الأسلمي

الشاعر المجيد علي بن سليمان الأسلمي داراً ، الزيدي مذهباً ؛ ليس له أي ترجمة فيما بين يدي من المصادر ، وكنت قد تعرضت لذكره في حديثي عن « الدوامغ » استناداً إلى مخطوطة وقفت عليها في دار الكتب المصرية بالقاهرة تضم عدداً من « الدوامغ » الشعرية التي تلاحابها ناظموها من القحطانيين والعدنانيين بعد القرن السادس الهجري .

وقلت في كتابي « دامغة الدوامغ » ان مسلّم بن العليف لما أنشأ قصيدته

ما عبتُ مذ كنت للأحباب مظنونا ولا بثثت من الأسرار مكنونا

وسماها « الدامغة » دفعها إلى عبدٍ له وقال له : ان أتيت بما يناقضها فأنت حر ، فذهب العبد يبحث حتى نزل على « علي بن سليمان الأسلمي » وعرض عليه القصيدة وكان رغم قحطانيته ـ زيدي المذهب والهوى ، فناقضها بقصيدة طويلة مطلعها :

فخارنا بسيوف الهند يكفينا عن فخركم آل « عدنان » ويغنينا

وسماها « دامغة الدامغة » وهي في نحو مائة بيت وخمسة وعشرين بيتاً ، ولغتها انصع من لغة « ابن العُليف » ومنها :

وكيف نصمت والأقوال تطرقنا من قائليكم أفانيناً ؛ أفانينا !
وَوَالمهيمن لولا أصل نسبتنا ، لعُدَّ قائلكم في الأعجميّينا
فلا ملامةَ إن قلنا لقائلكم رضَّ المهيمن فاه حين يهجونا ،
ليس النبيين منكم ؛ إنكم بشرٌ حاربتم الله حقاً والنبيينا
لم تعرفوا الدين إلا بعد ما فتكت بكم صوارم قحطان اليامينا
فعند ذلك أسلمتم على وضرٍ خوفَ المنيّة ؛ لمّا تسلموا دينا!
وحين مات رسول الله سيدنا أظهرتم كلّ ما قد كان تخفونا
و«بالبتول» و «سبطيه» و«والدهم» مكرتم وبكل « الفاطميّينا »
منعتموهم ورود الماء ، ولو وردوا ما ضر ذلك «سيحوناً» و «جيحونا»!
صلبتموهم وأحرقتم جسومهم وصرتموا لهم طراً معاديناً

إلى أن يقول بعد أن عدد مساوي زياد ويزيد وغيرهما :

وكان أصل افتراق الناس كلهم في الدين من أجلكم لو كان تدرونا !
أتى «ابن فعلان» أحداثاً جلبْن له حتفاً ؛ فأصبح تحت الترب مدفونا
وكان ذلك فيما بينكم ، ولكم ، ونحن من ذلك المعنى بريئونا !
لما اختلفتم تركنا الأمر عندكم تقوى ، وصرنا من الآثام ناجينا
لولا العفاف وتقوى الله نهنهنا عنكم فعلنا بكم في الأمر ماشينا

وبعد أن عرّج على ذكر « الجمل » و « صفّين » وذكر « طلحة » و « الزبير » رضي الله عنهما ، ومناصرة همدان للامام علي عليه السلام قال مفاخراً :

أنا ابن «قحطان» من كنتم له خدما ... ولـلخـراج له حقـاً مؤدّيـنـا
كنـا ملوكـاً وكـنتم يابني « مضرٍ » ... للشـاء والمعـز في الآفـاق راعينا

واستأنف يخاطب « ابن العُليف » :

أطنبتَ في شعـرك النـوني مفتخـراً ... كأننـا في القـوافي لم نقـل « نونـا »
عرضت أبكـار شعـر للفحول فقد ... ردّوا بكـور قوافي شعـركم عِينـا !
نصبت شعـرك تبغي أن تصيـد به ... فلم تصـد سمكا منا ولا « نونا » !
لقـد ظفـرت بصـلٍ ما للسعتـه ... راقٍ يزيـدك بعـد الـوهن تهوينـا
ذكـرت في الشعر من جهل « معاويةً » ... وأيّ فخـر له بالله نبـوّنـا ؟

وتحمس فذكر « عمار بن ياسر » رضي الله عنه و « أميّة » وعدد شهداء آل الرسول بالكناسة و « الجوزجان » و « باخمرا » معلنا ولاءه المحض لهم بقوله :

أمـا بنـو « هاشم » طراً فنحن لهم ... ذاك الـعـبيـد وهم حقـاً موالينـا

وهو ما أزعج المؤرخ العلامة محمد بن علي الأكوع فتحامل على الشاعر في مقدمة كتاب شرح الدامغة ؛ وانظر التفاصيل في كتابنا « جناية الأكوع على ذخائر الهمداني » .

٧٣ ـ ابن الحيدرة

العالم اللغوي النحوي المحقق علي بن سليمان بن الحيدرة ذكره مؤلف مطلع البدور فقال : امام النحو ، فريد زمانه ، من علماء الزيدية وفضلائهم وفصحـائهم ، وهو احدى مفاخر اليمن ، ترجم له المؤرخون كالخزرجي والجلال السيوطي في كتاب بغية الوعاة ، والشيخ صاحب الجوهرة المعروف بالحفيد أحمد بن محمد بن الحسن الرصاص وقد اثنى عليه بعبارات تزين بها الدفاتر قال : وكنت ظننته من المطرفية حتى تيقنته من الزيدية المخترعة ، وطوّل وأحسن في عباراته وحكى براعته وما اتفق على البديهة من فن البديع المعروف عندهم بالعكس وذلك انه أوى إليه بعض أدباء وقته من الزيدية فضيّفه ، وكانا يتعاوران كؤوس الأدب فقرع الباب طالب فقال ابن سليمان للرجل الضيف : اعطه من هذا الخبز ليكون لنا ثوابه ولك ثواب المناولة فقال الرجل : « لا عهد لي بثواب مذ أتيتُكُمُ » !

فقال ابن الحيدرة : ولا له بك عهدٌ قبل تأتينا .

قال الحفيد وهو الذي أنشأ الرجز الذي رجز به الفضلاء في كوكبان عند عمارة الامام المنصور عبد الله بن حمزة للحصن ، لما أقبل بحفل من الفضلاء يحملون حجارة وقد أبطأ عنهم الغدا وهو يقول ويقولون :

يا إمام الهدى هُديتَ إلى كلّ أوسع
قل « لدحْروج » مثلما قال موسى ليوشَعِ !

فقال الامام للأمير دحروج بن مقبل « آتناء غداءنا » . ولابن حيدرة منظومات واسعة سيما في العربية ، وله ضبط الممدود والمقصور ، وهي مشهورة أولها

وفي المقصور والممدود علمٌ سأجمعه بمختصر قصير

وهو مُصَنِّف « كشف المشكل » العجيب الفائق إحدى محاسن الدنيا حلاً وجمعاً ، وله شعر حسن جيّد من ذلك قصيدته في الامام المنصور عبد الله بن حمزة بعد فتح ذمار وأخذها من أيدي الغزّ :

هنيت فتح ذمار إذ أحاط بها جيش له صخب في الجو صَهْصَلَقُ
كما أحاط بياض العين مشتملاً على السواد وقد كضّ العدا الفرق
والخيل مثل السعالى فوق أظهرها أسود معركة قمصانها الحلق
مستلأمين فلا يبدو لناظرهم . . إلا بنان أكف القوم والحدق
والرِّجل ينثال من كل الجهات كأرداف السحائب حتى أظلم الأفق
والنقع يسطع ، و «الكوشات» تقرع ، والاسياف تلمع ، والرايات تختفقُ
والرعبُ أشيع ، والهامات تصدع ، والاعناق تقطع ، والفرسان تعتنقُ
والبيض والسمر هذا حدّه غصص لحما ، ولهذم هذا من دم شرق
والضد مستأسر ضاقت بحيلته جوانح مبلسات ملؤها حرق
يرجون صفحاً ويخشون الصفاح فما يجدى عليهم رجاء دونه شفق
ورايد العفو ، والقتل المبيح ، وسوء الأسر في السعي نحو القوم تستبق
فأدركتهم من السلطان رحمته ومن إمام له حسن اللقا خلق
فسلماهم ولولا الله ما سلموا واعتقاهم ولولا الله ما عتقوا

والمراد بالسلطان الأمير « حَكْو الكردي » كان من قادة الأيوبيين ثم انضم إلى الامام ومعركة ذمار هذه كانت سنة ٥٩٥هـ ، ولعل ابن الحيدرة لم يعش بعدها طويلاً وكتابه « كشف المشكل » في النحو الذي اثنى عليه ابن ابي الرجال متداول مشهور ومنه عدة نسخ في مكتبة الجامع الكبير ، ودار الكتب المصرية ، وكذلك منظومة المقصور والممدود ، وله شرح جيد على « ملحة الاعراب » للحريري .

[مطلع جـ ـ ٣ ـ لوحة ١٣٢ ـ ١٣٣ الحبشي ص ٣٧٠] .

ومن شعره ما ذكره ابن أبي الرجال أيضاً وهو يتحدث عن علي بن نشوان الحميري

دنت رحلةٌ والبين مركبه وعرُ ... فبين ضلوعي من فرافكم جمر
ولو كنت ممن تألف الدمع عينه ... بكيت دماً اذعيل صبري فلا صبر
ووالله ما فارقتكم عن ملالةٍ ... وكيف به والحول لي عندكم شهر
ولكن هذا الدهر يقضي لنفسه ... فينزلنا قسراً على حكمه الدهرُ

وهي قصيدة طويلة .

٧٤ ـ علي بن نشوان الحميري
[ت ٦١٤هـ]

القاضي العالم الأديب الشاعر ابن العالم الأديب الشاعر وأخو الأديب العالم الشاعر علي بن نشوان بن سعيد الحميري كان من أعوان الامام عبد الله بن حمزة وجمع سيرته وله كما يقول ابن أبي الرجال شعر كثير في عدّة أجزاء وكل المشاهد والحروب للامام عبد الله ابن حمزة له في وصفها الشعر البليغ ومن ذلك ما قاله بالجوف يحضّ قبائل همدان على الجهاد مع الامام ضد الغُز :

أرقتُ ، وما طربت إلى الغواني ... فأبكي في الربوع أو المغاني
ولا غدت المدامة لي ببالٍ ... فأسأل عن معتقه الدنان
ولا طربت إلى الأوتار نفسي ، ... ولا سمع المجون أو الأغاني
ولكني طربت لصوت داعٍ ... من آل محمد شهم الجنان
امام عادل برّ زكيٌّ ... أمين لا يقول بقول ماني

له علم ومعرفة ودين يفوه بذكره أهل الزمان

إلى آخره .

ومن شعره ما قاله على لسان الامام ليقوّي خاطره على النهوض .

يا موقد النار البعيدة أجّج واشهر بمضرمها شعار المخرج
أشعل وشيكاً جذوة ببراقش لتضيء ما بين العراق ومنبج ،
ان الاقامة قد نقضت شروعها ، ونسخت أوقات الضلال السَّجسج
بشرائع التهجير والتغليس والإسآد حين أقول أدلج أدلج
والكر بين الفيلقين وصولة تحت العجاج وطعن كل مدجج
ولقد سئمت من المقام وظله وتتوقت نفسي لظهر الأعوج
ولموقف حصني به سمر القنا وشبا الظُّبي وقرى الحصان المسرج
قامت شواتي حين أنشد منشدٌ « ألجم جيادي يا غلام وأسرج »
وأرقت من طرب إلى غزو العدى بالجرد لاوصل الغزال العوهج

وهي طويلة . . ولم يذكر ابن ابي الرجال سنة وفاته ولعله لم يعش طويلاً بعد وفاة الامام عام ٦١٤هـ .

٧٥ ـ علي النويري

الشيخ علي بن يحيى بن الحسين النويري من علماء الزيدية وأعيانهم في عهد الامام عبد الله بن حمزة ؛ ولما أنشدت قصيدة الامام التي مطلعها : « مغار بعيدٌ والمرام بعيدُ » انشأ الشيخ علي مرتجلاً :

مقال أنت قائله فريد وعصرٌ أنت أوحده حميد
فلا وأبيك لو يدري لبيدٌ بهذا الشعر لم يشعر لبيد

ومن شعره :

ليس الحسام بقاض للعلا أربا إلا إذا كان مسلولاً ومختضباً
هو النذير بأيدي الضاربين به يتلو على الهام في يوم الوغى الخطبا
والحزم والعزم مقرونان في قرنٍ هذا لهذا أخ في الناس إن نسبا
ولن ينال المعالي المرء مقتعداً عجزاً ، ومتئداً في الحرب ان حربا
ولا تقضّى له في بلدةٍ أربٌ ، إلّا وجدّد في أخرى له أربا .

[مطلع جـ ـ ٣ ـ لوحة : ١٨٤] .

٧٦ ـ عمرو بن منصور العنسي

العالم الأديب الشاعر عمرو بن منصور بن جبر العنسي كان من زملاء الامام أحمد بن الحسين ورفقائه في طلب العلم ، وقد ذكره السيد أحمد الوزير وهو يتحدث عن هجرتي وقش وشطب فقال « وكان الهجرتان في ذلك الزمان مشحونتين بالعلماء والأفاضل كعمرو بن منصور بن جبر العنسي العباصري وكان أحد العلماء المشهورين واتفق له مع الامام المهدي أحمد بن الحسين في أيام التدريس أن قال له : يامولانا أظن انك إذا وليت الأمر ستبعد عنا فقال الامام لا أظن ذلك على طريق المزح ؛ فقضى الله له بتولّي الأمر فوقع لعمرو ما كان ظنه في الامام ، واستأذن عليه فبعد عنه بعض البعد ؛ ثم لما أذن له ودخل عليه عاتبه في ذلك فاعتذر الامام بعدم المعرفة في ذلك الوقت ! فقال عمرو :

جهلت اسمي وأنت به الخبيرُ ... وهل يخفى لمكيٍّ ثبيرُ
أنا عمرو بن منصور بن جبرٍ ... قليل في الرجال لي النظير

ومما يحكى عن عمرو انه حجّ فلما قدم حاجّ مصر خرج لينظر إليه فلما رآه سأل عن قاضي القضاة فأشاروا له إلى محفةٍ عظيمة ، وحولها غلمان وخدام ، فلما دنا من المحفة سلم وقال مسألةٌ ؛ فنهروه ؛ فأعاد ذلك حتى سمعه القاضي وهو يُنْهرَ ويُزْجَر ، فلما سمع قال له : ألق ؛ فألقى مسألة فأجابها فعل ذلك مرّات ففتح القاضي باب المحفّة وقَال : أنت عمرو بن منصور ؛ فقال : أنا عمرو بن منصور ؛ قال القاضي : أجل ما يقدر على ذلك غيره » ! ولم يذكر تاريخ وفاته ولكنا نعرف ان الامام أحمد بن الحسين استشهد عام ٦٥٦هـ [تاريخ بني الوزير لوحة ١٨٢] . وقد نقل كلام ابن الوزير المؤرخ بن أبي الرجال وزاد عليها ما يفيد انه عاش بعد الامام أكثر من ثلاثين عاماً قال راوياً عن السيد عبد الله جحاف : « ورأيت نسخة المثل السائر لابن الاثير بخطه ، والمنتخب في أشعار العرب بخطه أيضا وهو خط حسن وله عناية تامة بضبط اللفظ اعجاماً وحركة وسكونا فلا يكاد يُغفِل حركة اعرابية ولا بنائية بل ولا ما هو من أبنية الكلمة ، والعجب من صبره على المحافظة على تلك الطريقة إلى نهاية الكتاب وذكر انه فرغ من رقم ذلك بصنعاء في سنة ٦٨٥هـ [مطلع ج ٣ ـ لوحة : ١٩٧] ٨ ـ .

٧٧ ـ القاضي عمرو بن علي العنسي

العالم الشاعر ، ووالد العلماء النجباء الشعراء الاماثل ، كان قاضي قضاة الامام عبد الله بن حمزة وقد ترجمه ابن أبي الرجال فقال : « صدر العلماء والحكام بهجة المحافل ، زينة الاماثل ، عمرو بن علي العنسي القاضي المحقق ناظر العلم المنظر المدقق صدر المجالس ، وبهاء المدارس ، قاضي الحضرة المنصورية ، وصدر صدورها ، وكان مرجوعاً إليه في الاحكام والآراء ، وهو أول من اشتهر من أهل بيته بالعلم ، وكان الغالب عليهم التصدر لغيره ، وتسمى منهم من تسمى بالامارة فاستقر فخرهم بهذا القاضي ؛ وهو منجبٌ له أولاد نجباء نذكر من عرفناه في بابه ولما نقل إلى جوار الله ولى الامام القضا ولده مسعود » .

ثم قال : وله شعر جيد من ذلك قوله :

سلب الحبيب حبيبه طيف الكرى ... وسرى السلوّ ، خياله لما سرى
أخيال جُمْلٍ زدتني شغفاً بها ، ... وأطلت همّاً متعبا ما أقصرا
رعياً لأيام الشباب وحسنها ... أيام أهصر غصن لهوى مثمرا
ما العيش إلا بالشبيبة حسنه ... فاذا مضى زمن الشبيبة أدبرا

ومنه في مدح الامام :

قُضِيَتْ بصادق عزمك الأوطارُ ... وثنت إليك وجوهها الأقطارُ
وجلى ظلام الظلم صبح جبينك الميمون وانجابت بك الآصار
حسن الزمان ، وأشرقت أوقاته ... وجرت بما تختاره الأقدار
لك يا ابن حمزة دان كل ممنّع ... وسمت بمجدك يعرب ونزارُ
قد كنت عن نظم القصائد صائماً ... فالآن جاز وحلّ لي الافطارُ
ووجدت نظم الشعر فيك مساعداً ... لما توافق معصمٌ وسوار

ثم قال : « وكان بمكان من الحلم وهو ممن كثّر على الامام في اكرام الأمير الكبير يحيى ابن الامام أحمد بن سليمان وسعى سعياً حسناً وقال في ذلك شعراً » ونحن نعلم ان مصير الأمير المذكور كان القتل غيلة ، وهو في سجن الامام ، ولا شك ان ذلك قد احزن قاضي القضاة إذا كان لا يزال على قيد الحياة .

وقال : « إنه لما أمر الامام بضرب الدرهم والدينار لم يتسارع الناس إلى المعاملة بهما فأمضاهما بالعزم عليهم والشدة ، فقال القاضي عمرو شعراً طويلاً في هذا المعنى من جملته :

حفظت المكارم من كل شَيْنْ ومازلتَ بالمال سمح اليدين
ففاضت أياديك في العالمين ، وأقررت كل جنان وعين

إلى أن قال :

تطول المنابر إمّا ذكرت وتملي مفاخرك الخطبتين
وتمت أمرك يا ابن النبي بأمرك للناس بالدرهمين
بإسم النبي وآل النبي صارا بهيّين كالنيّرين
أمرت بضربهما المخلصين فجاءا كمثلهما خالصين
ولاح اسمك المرتضى فيهما فعزّا وطالا على الفرقدين

ولم يحدد سنة وفاته ولكنا نعلم ان الامام عبد الله بن حمزة أمر بضرب الدراهم والسكة المنصورية سنة ٦٠١هـ وكان الناس يتعاملون بالضريبة العباسية وقد امتنعوا بادىء ذي بدء عن التعامل بالعملة الجديدة فأدبهم على ذلك ، كما نعلم انه توفى قبل الامام سنة ٦١٤هـ وان ابنه مسعود قد خلفه في القضاء فلعله مات في حدود ٦٠٦هـ وقد رثاه ولده مسعود بقصيدة طويلة منها :

يا عمرو ماذقت الحمام فانّنا سَفرٌ وراءك مزمعون رحيلا
يا عمرو لو عاينت كم من زفرةٍ ملأت جوانحنا وصبراً عِيلا

إلى أن قال :

فمضيت محمود الأمانة مدركا في الصالحات رجاءك المأمولا
مستبشراً للقاء ربك لابساً حلل الوفود مبجّلاً تبجيلا
فلئن مضيت فان خلفك عصبةٌ شادوا المكارم فتيةً وكهولا
حمّال ألوية ، جبالُ عظيمةٍ وعن الفواحش يهجرون القيلا
أبناء أبي عمرو الذين بنوا لهم فوق المجرّة منزلاً محلولا
قل للاكارم حاتمٍ ومحمدٍ وعلي صبراً للزمان جميلا

إلى آخرها [مطلع ج ـ ٣ ـ لوحة ١٩٦ ـ ١٩٧] .

٧٨ ـ الأمير عيسى بن محمد القاسمي

من شعراء القرنين السادس والسابع للهجرة الأمير الكبير عيسى بن محمد بن جعفر القاسمي ومن جيّد شعره قصيدة أولها :

كتمت هواه والدموع تذيعُهُ ... وما سرّ من نمتْ عليه دموعُه ؟
إذا عنّ ذكرى من يحبّ تبادرت ... شؤن دموع ردّها لا يطيعُه
فشى الدمع ما أخفاه من كل كاشحٍ ، ... وأعلن ما ضمت عليه ضلوعُهُ
فكن عاذراً يا عاذلاً لمتيم ... يحبّ غزير الدمع وهو صريعُهُ
فلو شهدت عيناك ركب رحيلهم ... لأشجاك امّا سربه أو قطيعُه
سويعة ما رصّوا القلاص بجؤذرٍ ... سواء علينا قربه أو شسوعُه
منيع ببيض المشرفية والقنا ... منوعٍ فما غير العفاف ضجيعُه
شجا الهائم المشغوف فرط جماله ... فلما نأ عنه شجته ربوعُه
لفرقتها أياه مثل فراقه ... وكلّهما لم يدر أنّى رجوعُه ؟
يحب الكرى كيما يراه وبعده ... أزال الكرى حتى تنأى هجوعه

وهو ممن وفد على الامام عبد الله بن حمزة وله فيه أشعار [مطلع ج : ٣ ـ لوحة ٢٠٨] .

٧٩ ـ أبو فراس بن دغثم

العالم المؤرخ فاضل بن عباس بن علي بن أبي عمرو ، ترجمه ابن ابي الرجال وقال : « كان حاذقاً ماهراً شاعراً فصيحاً عالماً كاتباً من كتاب الانشاء المجيدين مع الامام المنصور عبد الله بن حمزة وهو من خلصانه وكان سيفاً مسلولاً على المطرفية ، وآل أبي عمرو بيت كبير بصنعاء يشهرون بالكتابة والمعرفة ومن شعره ما أنشده الامام بصعدة سنة ٥٩٩هـ قصيدة منها :

جياد تبارى في النسيم بفرسان ... تخال إذا جالت كواسر عقبانِ
سوامي الهوادي مقربات كأنها ... هضاب ثبير أو شوامخ ثهلانِ
وكل رحيب السَّحْر عَبْلٍ ذراعه ... له في مغار الليل أرخاء سرحان
يثير عجاجاً مثل ليلٍ نهاره ... كواكبه لمع بأطراف مرّان
عليها من السرد النسيج مضاعفٌ ... تموج كما صفت أفانين ريحان

وأبو فراس هو كاتب سيرة الامام عبد الله بن حمزة وفي النسخة التي اطلع

عليها ابن ابي الرجال قال انه فرغ من كتابتها في شهر ربيع الأول سنة ٦١٥هـ أيّ بعد وفاة عبد الله بن حمزة بعام وقال عند اكمال السيرة :

لو كان يومي قبل اكمالها ... لكان عندي مغنما مستفاد
يكملها غيري ولا اشتوى ... بحسرة تشوي سويدا الفؤاد
بهلك من في ضمنها فضله ... كالشمس عم النور منها البلاد

إلى أن قال

فليت عمري زيد في عمره ... أو ليتني كنت فدى لو أفاد !
أو ليتني مت بأيامه ... بين الظبى البيض وسمر الصّعاد
ولم أكن شاهد يوم به ... أختاره للقبض رب العباد
مضى فقيداً وغدا سعيه ... يحمد في الدنيا ويوم المعاد

ولعل أيام أبي فراس لم تطل بعد ذلك لكن ابن أبي الرجال لم يذكر تاريخ وفاته كعادته مع الكثير ممن ترجم لهم في مطلع البدور . [مطلع جـ ـ ٤ ـ لوحة ٢١٢ ـ ٢١٣] .

٨٠ ـ فليته بن جعفر القاسمي

من أمراء القاسميين وكان عالماً أديباً فائق النظم والنثر وله القصيدة المشهورة التي مطلعها :

شجاك من الربع القديم التذكر ... وهيهات قد مرت ليالٍ واعصرُ
وحالت به الحالات حتى تنكرت ... معالمه ، واستفهم المتخبر
منازل كانت في « القطيع » فأقفرت ... وقصر لدى « غمدان » شادته حمير
بصنعاء إذ صنعاء للملك منزل ... وللساكنيها منزل مُتخير
منازل سام لم تزل مذ زمانه ... إلى اليوم بالأملاك والملك تُعمرُ
وأول أرض قيل فيها محمدٌ ... نبي له في آل هود مبشر
بها الخير اما كنت للخير باغيا ... وإما شجاك المشرب المتكدر

قال ابن ابي الرجال وهي طويلة جيدة [مطلع جـ ـ ٤ ـ لوحة : ٢٢٢] .

٨١ ـ ابن شبيب الحسنى التهامي

عالم أديب شاعر خطيب فارس وصل من تهامة إلى براقش ، وفيها الامام

عبد الله ابن حمزة ، وقد ترجمه صاحب مطلع البدور ترجمة طويلة وقال : « صاحب اللسان والسنان والعلم والبيان أبو القاسم بن حسين بن شبيب الحسنى التهامي صاحب البلاغة والفصاحة والعلم الواسع الامام الأصولي المنطقي » ، ونقل عن المؤرخ الأديب علي بن نشوان الحميري ثناءً عاطراً عليه وان الامام عبد الله ارتجل ذات يوم بيتاً من الشعر ثم قال لابن شبيب أتم عليه شعراً ، فأجازه الفقيه بقصيدة طويلة على لسان الامام والبيت الذي ارتجله الامام هو :

ألـيـة بالجـيـاد الجـرد ساهـمـةٌ تهوي بكـل طويـل البـاع دفّـاع

وأما قصيدة ابن شبيب فهي حوالي ثلاثون بيتاً ومنها :

وكـل مسرودةٍ كالـنهـر سابغـةٍ وكـل ماض رقـيـق العضب قطاع
ومـدلفِ الأسـد نحو الأسد عابسة تحت الـعـجـاج وبيض فيـه لمّاع
والسمـر ترعف والأبـطال طائشة وكـل أزرق للأرواح نزّاع
لأبـعـثـن على الـعـجـان داهـيـةً زحـافـة في خروم الحزن والقاع
شهبـاً ترفّـل في المـاذي فوارسها وفي الـوشيـج إلى الهيجا بأنصاع
كأنـما الـبـيض والنقـع المثـار بها بوارق بين وطـف ذات تهماع
قد طال ما علكت خيـلي مسـاحلها غيظا عليهم وطالت منه أوجاعي !
كم مَعلمٍ لمنـار الحق قد طمسـوا وأهـطعـوا في الخـطايا أي اهـطاع
فدع ملامـي إذا أمـسيت مرتفقـاً أرعى النجـوم بطرف غير هجّـاع !
فما يلذ لنـفسي عيـشـهـا أبـداً ولم يحلّ بهم بطشي وايـقـاعـي
ويصبـح العـدل في الآفـاق قاطبـة طلق المحيـا طويـل الزند والباعِ !

وهذا شعر جزيل وقد تقمص قائله روح الامام الفارس لأنه هو نفسه كان فارساً شجاعاً وهو من أجود ما سمعناه من شعر العلماء ! ويمضي ابن شبيب فيقول :

وقـل إذا ما سمعت الدهر ذا عذلٍ : اقصِرْ فكـل امرىء في شانه ساعي
ياحبـذا الجـرد تَطغُـوا في أعنتها إذا دعـا لقـراع المقنب الـداعي
على منـاسجهـا أسدُ جحـاجحـةٌ من كل بدر بأفـق الحـرب طلّاع
يرى الغنيمـة في ثجـاح عارضهـا والعـين ، إن آذنت يومـاً باقلاع

وتأمَّل إنتقاءه لغرائب الألفاظ دون تكلف ثم توظيفها بأحكام وبراعة ،

وهذا يدل على تبحرّه اللغوي ، ومهارته البيانية وصفاء موهبته الشعرية وان الباحث ليأسف أن تكون بعض آثار « ابن شبيب » من نثر وشعر قد ضاعت وبعضها لا يزال موؤدا . ويستمر في اجازته لبيت الامام على لسانه فيقول :

وأسمعـاه صليـل البيض لانغم الأوتار ؛ انّـى لـه سمّـاع أسـماع

وأورداه حيـاض المـوت مترعـةً ... بين الخـميسـين لا أدنـان نقّـاع
يا قاتـل الله من يضـحى بعيشتـه ... قريـر عين أخـا لهو وتهـجـاع
ولم يكـن برفـيـق العـرب مرتقيـاً ... ذوائـب الـعـز والـعـليـا بازمـاع
على صُهي شظم عبـل الشوى بَرِقٍ ... قيـد الأوابـد اذ يعـدو بارجـاع
يكـاد من لبـده ينسـل منـزرقـاً ... خوف القـطيـع ، ولم يذعر بانجاع
أرسـاغـه ركبت في جنـدل شظف ... يفـلّق الـصـخـر في عدوٍ وإسراع
بالأعـوجيات قد نيـطت معـارفـه ... فهـو الجـواد على احسـانها راعي
فمن يكن عادلاً يومـاً بصهـوتـه ... حشيـة بين أسـجـاف وأوصـاع
فقـد ونت عن برود المجـد همتـه ... وانـني لعـلاه نادب ناعـي
أنـا ابن من أسمـع الـواعين حجته ... والسيف أسمعهـا من ليس بالواعي
فلا وربّـك لا ينـفـك منـصلتـاً ... حتـى يعـزّ به ديـني وأشيـاعـي

وكان خطيباً مصقعاً :

ولأبن شبيب التهـامي مواقف خطابية مشهـورة وخـطبتـه التي ارتجلها بالأهجر في مجمع ضمّ الكثير من علماء ومشايخ اليمن ـ وقد فهم ان بعضهم يتثاقل عن بيعة الامام عبد الله بن حمزة ـ شاهدة على سرعة بديهته ، وبرهان على فصاحته ؛ فقد قام وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال يخاطب عبـد الله بن حمزة : « يا أمـير المؤمنـين ؛ لتطب نفسُك ، وليكثر انسك ، ولينشرح صدرك ، ولا يلتبس عليك أمرك ، فان من تابعك من سلاطين العرب وبني عمك وشيعتك ، هم أهل الهمم العالية ، والعزائم الماضية ، والليوث الهصر ، والأبطال الحسر ، والمصاليت البتر ، والمساعير الصّبر ، أعلى الناس مقاما ، وأثبتهم أقداما ، وأكثرهم إقداما ، وأقلّهم في الحـروب احجاما ، يرون طاعتهم لك فرضاً واجباً ، ومعصيتهم لك إثماً لازبا ، قد دعوتهم فأجابوك ، وحضروا فبايعوك ، واختبروك فوجدوك خضماً زخورا ، وبطلا جسورا ، وليثاً هصورا ، وعاينوا منك وجها صبيحا ، ولسانا فصيحا ، وشفيقاً نصيحا ، فما عذرهم غداً ان حاسبهم الخصم بين يدي ربهم ، يسـألهم عن بيعتهم لك وعقدهم ، إذاً يكونون محجوبين ، وعند

ربهم مفلوجين ، وكلّا وحاشا ان يرغبوا بأنفسهم عن نفسك ، وان يأنسوا بغير انسك ، وفي ذلك أقول وانتضى سيفه من غمده :

كيف فرار المرء عن إمامه ... والعار والاذلال في أحجامه
والعز والإجلال في أقدامه ... والفوز بالجنات في صدامه
ياحبذا من كان عن حسامه ... يأخذ ما يهواه من مرامه

قال مؤلف « المطلع » : « وله من هذا القبيل كل فاضل من الكلم نبيل ، بما لا أعلمه لغيره من أهل عصره ولا من قرب منهم » ولما اجتمعت العساكر والقبائل والسلاطين والأمراء « بمِدَع » من بلاد حمير وناحية « حضور المصانع » قام وحيّ من حضر ثم قال بعد حمد الله والصلاة على رسوله : « يامعشر القبائل ، ويأسود الجحافل ، وياخطباء المحافل ، ويامعشر المسلمين ؛ اني قائل فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعوا ؛ اعلموا ان الأمر الذي كنتم تطلبونه ، والنور الذي كنتم تتوقعونه ، وتعدّون له الليالي والأيام ، والشهور والأعوام ها هو قد لمع ، وضياؤه قد سطع ، وقائمه للفضائل قد جمع ، وفي العلم قد برع ، وفارق الطمع ، ونشر الورع ، وفارق الراحة ، وجانب الاستراحة ، واشتدت على الظالمين شكيمته ، وتقوت عزيمته ، وغزرت ديمته ، وغلت قيمته ، وقام لله راغبا ، ولأعدائه مناصبا ، حين بدّلت الأحكام ، وعطلت الشرائع ، وشرب المدام ، وارتكبت الآثام ، واستغني عن الحلال بالحرام ، وكثر الفساد في البلاد ، واستطالت أيدي أهل العناد ، فبايعه السادة الاجلّاء ، والكبراء والفضلاء ، أهل السؤدد الباذخ ، والشرف الشامخ ، والعلم البارع ، والورع الدامع من آل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم وغيرهم من أولياء الله المتقين ، والعلماء المخلصين ، وأهل الورع واليقين ، بعد الاعتبار والسَّبْر والاختبار ، فوجدوه خضماً لا تنزفه الدلاء ، وطوداً لا يناله الارتقاء ، وليثاً لا تهوله الأهوال ، ولا تقوم بصولته الأبطال » إلى آخرها .

ولما فتح الامام « صنعاء » ولاه الامام الخطبة بجامعها ؛ ولم يذكر سنة وفاته ولعلها قبل وفاة الامام سنة ٦١٤هـ .

[مطلع جـ ـ ٤ ـ لوحات ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ـ ٢٤١ ـ ٢٤٢] .

وقد ترجمه أيضاً العلامة يحيى بن الحسين في المستطاب وقال : « وله كتاب ردّ به على الأشعرية موسوم « بالثعبان المتلقّف لافك البيان » ، واعترض على الامـام عبـد الله بن حمزة في شان السبّي والغنيمة ، فأجاب عليه بكتاب « الدرة اليتيمة » ، في احكام السبّي والغنيمة ؛ وابن شبيب هو الذي أشار إليه السيد الهادي في منظومته :

وبـابن شبيب وهو ذو العلم والعلى وذو المنـطق الجزل الفصيح المفصل

[المستطاب لوحة : ١٣٣] .
[وانظر أيضاً الحدائق الوردية ص : ١٦٠] .

٨٢ ـ القاسم بن عبد الله بن حمزة

من شعـراء الأمراء ، وأمراء الشعراء في هذا العهد الزاخر بالكثير من السـلاطـين والأئمة والقادة الذين مارسوا الشعر وأجادوا نظمه كآل حاتم والعنسي والقاسميين والسليمانيين الأمير القاسم بن الامام عبد الله بن حمزة وكان كأخويه محمد وأحمد يقول الشعر الجيد ، أديباً هماماً لبيبا ، ومن لطائفه انـه زار مسجد الامام القاسم بن علي العياني فرأى بيتين كتبهما القاضـي مسعود بن عمرو العنسي في جدار عند مشهد الامام وهما :

عذنـا ببيتـك والثـاوي بتربتـه مجدّديـن لعـهـد الحب تجديـدا
علماً بأنـا متى نقصـدك في أمـل لا نلف بابـك دون العبـد مسدودا

فأنشأ الأمير هذين البيتين

يامن يجيب دعـا الـداعي ويسمعـه سراً تعـالـيت مرجـواً ومقصـودا
قد عاذ عبـدك خوفـاً منـك معـترفاً فارحم إله السماء والأرض «مسعودا»

وأرسلهما إلى القاضـي العنسي مع تحية ! وكان اسم الرسول « فُريج » فقال القاضـي

« فريج » فرجت عني الهم لا علقت بك الخـطوب ولا أودي بك الكمدُ
أطفـأت عني بذكـراك التي ملأت أفق البسيـطة نوراً بعض ما أجـدُ
ذكـرت قاسم فانشق الـدجـا وبـدا من نوره لمصـابيـح السـما مدد
وجئـتني بنجـوم الليـل قد نظمت عقـداً وفـوقـك نور الشمس يتقـد

بالله كيف نجت كفٌّ لمست بها غوارب البحر يطفو فوقه الزبد ؟
وكيف لم يُعشِك النور الذي نظرت إليه عيناك ؛ لا أعشاهما الرمد ؟
ياآل حمزة مالي لا أصوغ لكم شوارد السحر فيها المدح مطّرد ؟
ولم يزل لي ذكر في نديّكم يفوح مسكا ، وبرٌّ ما به نكد
ونفثة من دعاء قد علمت بها اني غداة غدٍ في حوضكم أرد
ألم يشد لي شمس الدين مرتبة تبنى على كاهل الشعرى لها عمد ؟
إنصاف من ليس يخشى من غوائله ، وجود من ليس مثلي عنده أحد

وللأمير القاسم هذا البيت المفرد :

ان لذات الفتى من عمره : ذات دلّ ، وكتاب ، وفرس !

وله في ابنة عمه الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة وكأنها إحدى زوجاته

ان يحيى بن حمزة بن سليمان إلى كاهل الفخار نماها
تخجل الشمس نورها ويجلّي غسق الليل حين جنّ سناها
إن لله حمزة بن سليمان ويحيى العماد إذ انجباها !
طاب أصل لها وطاب نجار فزكى فرعها وطاب ثراها

وله وقد تزوّج بنجران :

خبّروها لما نزلت بوادي النخل أني نكحت فيها عروسا
فتصدت منهم وظلت كمن ظل يسقّى من السموم كؤوسا
ثم قالت تصبّراً : ليته زا د إليها عشراً وكنّ شموسا
وأسرّت إلى بنات أبيها بالذي عندها فتهن عبوسا
اخبرتهن إنها حازت الهم جميعاً ؛ ودونها أم موسى
فتباكين من بكاها وأعنين نفوساً ، نفسي لهنّ نفوسا !

وشعر قاسم لا يرقى إلى طبقة شعر أخويه محمد وأحمد ، وقد حاول بالأبيات السينية مجارات الشاعر بشار بن برد بل قد أغار على أبياته التي تقول :

خبّروها بأنني قد تزوجتُ فظلت تكاظم الغيظ سرّا !
ثم قالت لأختها ولأخرى جزعاً ليته تزوج عشرا
واشارت إلى نساء لديها ، لا ترى دونهن للسر سترا

ما لقلبي كأنه ليس مني ... وعظامي أحسُّ فيهنّ فترا ؟
من حديث نما إلي فضيعٍ ... خلت في القلب من تلظّيه جمرا .

وأبيات القاسم وان كانت لطيفة إلا انها ليست بشيء بالنسبة إلى أبيات بشار ، ولا ندري متى توفي القاسم بن عبد الله بن حمزة ونرجح انه عاش إلى ما بعد مقتل الامام أحمد بن الحسين سنة ٦٥٦هـ .

٨٣ ـ قاسم بن ابراهيم اليوسفي

عالم أديب شاعر تعرض لذكره مؤلف تاريخ بني الوزير وهو يتحدث عن السيد يحيى ابن منصور بن المفضل فقال : « علامة عصره وآية دهره ، له علم واسع وفضل باهر وهو يسكن الرجا بالشرف وله الأبيات المشهورة

أصبحت يامولاي جارك في الثرى ... متوسداً جنبي اليمين كما ترى
مستسلماً للأمر مالي حيلة . . ... متقطع الأسباب منحلّ العرى

وبينه وبين يحيى بن منصور مراسلات فهو من معاصريه [لوحة : ١٨٨] . وقد ترجم له أيضاً ابن ابي الرجال ولم يزد على ما ورد في تاريخ بني الوزير شيئاً إلا أنه ينتسب إلى الامام يوسف الداعي [مطلع لوحة ٢٣٠ ـ جـ ـ ٤ ـ] .

٨٤ ـ علي بن محمد بن العفيف

ترجمه ابن الوزير وابن أبي الرجال وقال : كان عالماً فاضلاً ديناً وهو مصنف السراج الوقّاد في فضائل الجهاد وهو كتاب حسن ذكر فيه فضائل جهاد النفس وجهاد البغاة ، والحربيّين ، وأحكام الجهاد فأحسن ؛ وكان معاصراً للامام أحمد بن الحسين ومن شعره في المجاهدين معه :

فكم من شهيدٍ قد تولّى كأنما ... خضبن بماء الارجوان ثيابُهُ
وأودى كريماً ثم أمسى بمنزلٍ ... حجارته درٌ ومسك ترابُه !
فماضره ان كان أحمد جاره ... غداً والقصور المشرفات مآبه
كفى شرفاً ان الجنان مقيله ... وان كؤوس السلسبيل شرابه
وحور كأمثال اللئالي مضيئة ... هوين كريما ليس يبلى شبابه !
ينبئنا الرحمن في ذاك معلناً ... وينطق بالبشرى إلينا كتابه

وجـــاد ثراه كل يوم ولـــيـــلةٍ   من المـــزن غيـــداق يدر ربـــابـــه

[مطلع : ج ـ ٤ ـ لوحة ١٦٥ ـ ١٦٦ ـ وتاريخ السادة لوحة : ١٩٧ ـ ١٩٨] .

وكان من حقه ـ حسب الترتيب الهجائي التقديم وجلّ من لا يسهو .

٨٥ ـ القاسم الشاكري

الفقيه المحقق والخطيب والشاعر القاسم بن أحمد بن عبد الله الشاكري أحـد من صحب الامـام أحمد بن الحسين أيام دراسته وتولى أمر تدريسه وتهذيبه ثم صحبه في المشاهد ، وقاول بلسانه ، وقاتل بسيفه وسنانه حتى قتل في ناحية الظفير وقيلت فيه المراثي ، وناح عليه الفضلاء ، وهو الذي حضر محاولة « الحشّاشين » اغتيال الامام أحمد بن الحسين ودافع عنه ؛ وله شعـر وجّهـه إلى « زيدية » الجيل والـديلم يردّ به على قصيدة الأمير أحمد بن الامام عبد الله بن حمزة التي امتدح بها المظفر ومطلعها

لعـل الليـــالي المـــاضيـــات تعـود   فتبـدو نجـوم الـدهـر وهي سعـودُ

وقد سبق ايرادها ، ويقول ابن أبي الرجال ان الشاكري لما علم ان أحمد بن عبد الله ابن حمزة قد بعث رسالة إلى « زيدية » الجيل والديلم متظلما من الامام خشى ان ينخدعوا فكتب قصيدة فيها ذكر أحوال الأمير أحمد وميله إلى الدنيا وانه أوفد نفسه على السلطان المظفر وامتدحه بالقصيدة المذكورة . ثم قال : وشعره كثير واسع ومنه ما قاله في حرب سناع مع الامام .

أشـــوقـــاً إذا غنت بأيـــكٍ حمائمُـــه   لربْـــعٍ عفـت أيـــامـــه ومعـــالمُـــه
بكت ساريـات المزن بالقطر موهنا   عليـــه فأضحت باســـمات كمائمُـــه
ألثّت به الجـــون المـــداليـــج برهـــةً   فراقت مغـــانيـــه ، ورقّت منـــاسمُـــه
إذا نثـــرت فيـــه الـــسحـــائب لؤلؤاً   بدا زهـــره رقـــاً مشـــوقـــاً دراهمُـــه
وإمـــا سرت فيـــه الـــنسيم تأودَّت   غصـــون روابيـــه وفـــاحت لطائمـــه
أشيم له الـــبرق اللمـــوح إذا شرى   وهـــل يشتفي من بارقٍ لاحَ شائمُـــه
يســـامـــره ليـــل الـــتـــمام متـــيّـــمٌ   اخـــو زفـــرات موجـــع القلب هائمُه
ومـــازلت أرعى العهـــد بيني وبينهم   إذا ضيعت من حق عهـــدٍ لوازمـــه
ومـــن يك ممذوق المـــودة ناســـيـــاً   فما أنـــا إلا صادق الـــودّ دائـــمـــه
تذكرت عصراً في «سناع» مضت به   مدونـــة ألحـــانـــه ومـــلاحمـــه

أقـام عليـه الجيش ستـة أشهـر ... أسـنّتُـه مشـهـورة وصـوارمُـه
نلاقي به جيش العـدود ونـنثنى ... وقـد أعْـولَـتْ في كل حي مآتمُـه
فطـوراً نغـاديـه إلى عقـر داره ... وطـوراً يغـادينـا تبـارى صلادمُـه

ثم قال : « وهي طويلة وقـد عارضهـا السيد الأمـير يحيى بن القاسم الحمزي جامع سيرة الامام أحمد بن الحسين وهو من اخواله بقصيدة مطلعها :

هو الصب فاقصد بالذي أنت لائمهُ ... ودعـه فيكفيـه الـذي هو كاتمُـه
فلو هصرت غصن الهوى منك لوعةً ... عذرت ؛ فخـل الدمع ينهلّ ساجمُه

وهي طويلة ؛ وكالعادة لم يذكر تاريخ وفاته ولا ندري هل شهد مصرعه أم مات قبل ذلك . [مطلع جـ ـ٤ ـ لوحة ٢٣٣ ـ ٢٣٤] .

وقصيدة الشاكري الدالية التي عارض بها قصيدة « لعل الليالي » قد أوردها ابن ابي الرجال في ترجمته للعلامة أحمد بن أسعد اليمني ومطلعها :

أأحـبـابـنـا ان الهـوى لجديـدُ ... وان مكـاني منـكـم لبـعـيـدُ
وأيـن ربـا صنعـاء وهـي محلتي ... ودياركـم وهـي الـلوى وزرود ؟
وكم رمت لقياكم ؛ وقد حال بيننا ... اسـاود تلفـى دونـكـم واسـود !
وزوراء يغـواهـا القـطاليـل ورده ... ويعيى لها الخـرّيت وهـو جليـد

وهي طويلة واختتمها بمدح الامام أحمد بن الحسين .
[مطلع جـ ـ ١ ـ لوحة : ١٢١ ـ ١٢٣] .

٨٦ ـ القاسم بن علي بن هتيمل
[ت ٦٩٦هـ]

حَفَل القرن السابع الهجري بنخبة من شعراء اليمن المجيدين ومنهم من سبق التنويه بهم من آل حمزة وبني حاتم ، وقضاة عنس وغيرهم غير أن المجد الشعري لهذا القرن قد تقاسمه بجدارة شاعران هما محمد بن حِمَير ، والقاسم بن هُتَيمـل . ولقد كانا بين شعراء عصرهما كما كان أبو تمام والبحتري في عهدهما ، أو شوقي وحافظ في قطرهما .

وقـد قامت بين الشاعرين منافسة أدبية لم يثرها شاعر « سهام ورمع »

ابن حمير ، ولا شاعر « المخلاف السليماني » ابن هتيمل بل أثارها النقاد والأدباء ، في عصرهما ، وبعد وفاتهما ، فكانت محاورات وخصومات أدبية ، البعض يفضل « ابن حِمير » والآخرون يفضلون عليه « ابن هُتيمل » ، ولكنهم جميعاً متفقون على براعتهما وسمو طبقتهما ؛ كما اختلف النقاد قديماً حين فاضلوا بين « الطائيَّين » وبينهما وبين « الكِندي » ، حتى قالوا : إن « المتنبي » قال : « أنا وأبو تمام حكيمان وانما الشاعر « البحتري » ، ! ومن الأدباء من ينسب هذا القول بصيغة أخرى لأبي العلاء « المعري » .

ولقد روى أبو العباس النحوي بيتين للشاعر ابن سحبان يقول فيهما :

أما قصائد « قاسم ابن هُتيمل » فمذاقها أحلى من الصهباء .
هو شاعر في عصره فطنٌ ، ولكن « ابن حمير » أشعر الشعراء .

ولا أستطيع أن أوافق هذا الناقد ، أو أن أتقبل حكمه بسهولة ويسر ، ولأسباب لا مجال لذكرها الآن ، فأنا لا أقارن بين الشعراء ولا أوازن بين أشعارهم ، وانما أؤرّخ لهم ولآثارهم ، والمقارنة والموازنة بين شاعرين أو شِعرين ، لا تتم إلا بعد دراسة نقدٍ خالص لوجه الفن ، لا يشوبه تعصب مذهبي أو طائفي ، أو تذوّق أدبي منفعل ببيئة الناقد أو نشأته الأدبية ، ولا ضير إذا اعترفت اني قد نشأت على محبة « ابن هتيمل » الزيدي الهوى والمذهب ، وأني قد استظهرت قصيدته « أنا من ناظري عليك اغارُ » وأنا في عنفوان الشباب ، وأحببته وأكبرته لأنه كان شاعر الامام الشهيد أحمد بن الحسين وقد سبق أن أشرت إلى قصيدته في وقعة قارن :

إذا جئت الغضا ولك السلامة فطارح بالتحية ريم رامَه

واستشهدت ببعض أبياتها وكذلك قصيدته

أغْلقتَ فضلة قلبك المرهونِ وجهلت فاستأمنت غير أمين ؛

وأوردت أبياتا منهما ، وخصصت تلك التي ينصح فيها الامام أحمد بن الحسين بأن يحرص على مسالمة « آل الامام عبد الله بن حمزة » من أجل تأييد دولة « العدل والتوحيد » .

كما أوردت أبياتاً من مرثاته فيه ، وأشدت بموقفه الانساني الشجاع من أسر الملك المظفر الرسولي للامام ابراهيم ابن تاج الدين وأوردت قطعة من

قصيدته التي يقول فيها :

ولـو ان غيرك يا مظفّـر صاده ... لكـسـاه ثوبيْ ذلـةٍ وصـغـار
أحـييتـه بالـعـفـو ثم لقيتـه ... بـبـشـاشـةٍ وسـكـيـنـةٍ ووقـار
ووهـبتـه دمـه بجـاه « محمـدٍ » ... ورضى « علي » و « جعفر الطيار » !

ولا شك لدي أن « ابن هُتيمل » كان أصفى نفساً ، وأكرم اخلاقاً من ذلك الهجَّاء الذي أرعب الناس وآذاهم ، وأرعبوه وآذوه كما سنرى عندما نتحدث عنه .

وقد انعقدت صداقة أكيدة بين الشاعرين واعترف ابن هتيمل باستاذيه « ابن حِمير » وقصده وأطراه .

من فحول شعراء العرب

وابن هُتَيمل شاعر مشهور ، وشعره متداول وله ديوان لا يزال مخطوطاً وان كان قد طبع قصائد منه العلامة محمد العقيلي ، وقلّ أن تجد أديباً يمنيا أو حجازياً لا يحفظ أو لا يعرف رائيته في مدح الامام أحمد ابن الحسين ؛ ومن يقرأ أشعاره بِتبصرٍ يحكم برسوخ قدمه ، وتمكنه من صناعة القريظ ، وبرقة مشاعره ، وسمو بيانه ، وقوة خيالة ، وغزارة مادته اللغوية ، وسعة إطلاعه ومعارفه التاريخية والجغرافية ، ومع انه من شعراء القرن السابع الهجري حين كانت العجمة قد بدأت تغزو العقول العربية ، وتعقد ألسنة أدبائها وشعرائها فانك حين تصغى إلى « ابن هتيمل » لا تظن إلا انك تستمع إلى شاعر فحل من فحول شعراء العرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين أوج ازدهار الشعر العربي :

استمع إليه متغزّلا يقول :

أنـا من ناظـري عليـك أغـارُ ... وارعـني ما حال عنـه الخـمارُ
يا قضيباً من فضةٍ ؛ يُقطفُ النر ... جسُ من وجـنـتـيـه والجلـنّـارُ
عجبـاً منـك ؛ تحت برقعـك النّا ... رُ ، وفـيـه الجـنّـات والأنهارُ !
قمـرٌ طوقـه الهـلال ، ومن شمس الدّ ياجـي في ساعـديـه سوار ،
صنُ محيّـاك بالـنـقـاب وإلّا ... نهبـتـه الـقـلوب والأبـصـار
فمـن الـغـبـن أن يماط لثـامٌ ... عن ثـنـايـاك ، أو يحلّ إزارُ

إلى أن يقول :

من معـيري قلبـاً صحيحـاً ولـو طرفـة عين إن كان قلبـا يُعـار ؟!
لا الـزمـان الـزمـان فيـما عهـدنـاه قديـماً ، ولا الـديـار الـديـار
والـليـالي الـطوال تنحتُ من جسمي ما أبـقـت الـليـالي الـقـصـارُ !
بعض هذا يُبـلي الجـديـدَ ويـفـنـي المـرء ؛ لو أنّ عمـره أعـمار !
لمحـت مفـرقـي فأفـزعـهـا ليـلٌ تبـدّى في جانـبـيـه نهارُ
لا يصـدّ المـلاح عن صلة الـعـشـاق إلاّ الـقـتـيرُ والإقـتـارُ
انـما الـعيش والهـوى قبـل ان ينـجم ثديٌ ، أو أن يدبّ عذار
وغـرام الـشـبـاب أشهى إلى النفس ؛ وإن كان في المـشـيـب الـوقـارُ

وحين اسمع هذا لا استطيع إلا ان اهتز طربا ؛ بل وقد أقول انه نفس عالٍ هيهات « لابن حمير » ان يجوّده ، وللناس فيما يعشقون مذاهب .

ومما جاء في القصيدة يمدح الامام أحمد بن الحسين :

حفظ الـله « أحمـداً » حيـثـما كان وجـادتُـه ديـمـةٌ مدرارُ .
الشريف الشريف ، والجـوهـر الجوهر ، والخـالصُ الـنـضـار الـنضـار .
سيّـدُ أمـه « الـبـتـول » وجـدّا ه « المـثـنّى » و « أحمـد » المختـار
و « عليّ » الـرضـى أبـوه وعـمّاه « عقيـلٌ » و « جعفـر » الـطيـارُ
نسـبٌ ما نزار زائـدة فيـه ، ولـكـن تزداد منـه « نزارُ » !

إلى آخرها وهي طويلة يقول في خاتمتها :

ولـعـمـري ما أقـنعتني « ظفـار » عنـك ان كنـتَ اقـنعتـك ظفـارُ
قبل أن تجمع « الخراج » من العرب وتجبى « العـراق » و « الامصار » .

وهـذا شعـر جزل الـتراكيب ، قوي السبـك ، رائع الأسلوب وحرارة الاخـلاص تتوهّج في كل لفظة من ألفاظه ، ولهفة الصدق تنبض في كل حرف من حروفه وتلك من مميزات الشاعر « ابن هتيمل » .

زيديته واعتذاراته للمظفر :

وقد ترجمه المؤرخ يحيى بن الحسين في طبقاته « المستطاب » فقال :
« الفقيه العالم الشاعر المفلق القاسم بن علي بن هُتيمل الشاعر المشهور ،

قال أبـو مخرمـة : كان بالمخلاف السليماني هدويّ المذهب ، وكان شاعراً فصيحـاً بليغـاً ، حسن الشعـر ، جيد السبـك مدّاحـاً عفيفاً عن الهجاء والسبّ ، عارفـاً بالفقه والنحو واللغة والتواريخ والسير والأنساب ، وأيام العـرب ، وكـان جل مدائحـه في المـظفـر ، وفي الامام أحمد بن الحسين القاسمي وفي الأمير أحمد بن الامام عبد الله ابن حمزة وفي الأمير أحمد العقيلي صاحب حلي ، وفي الشريف القاسم بن علي الذروي ؛ وكان يمدح المظفر مدح خائف وجل ، وإذا مدح أشراف المشرق أطرب وأطنب ، وإذا مدح أهل المخلاف لا يبالي أصاب أم أخطأ » .

[المستطاب لوحة : ١٤٨] .

وتفريق أبي مخرمة بين مدائحه للمظفر والاشراف وأهل مخلافه وأبناء بلدته يشير إلى أن الشاعر إذا عبّر عما يهواه أو يعتقده صال وجال ، واطرب وأطنب وأعجب ؛ وابن هتيمل كان يتقرب إلى الله بمحبة ومودة الطيبين من أهل بيت الرسولﷺ ؛ وله في الامام أحمد بن الحسين قصائد غرّاء وقد سبق ذكر بعضها .

وقـد مال إلى الامام محبةً وعن عقيدة رغم معرفته بقوة خصمه « الملك المـظفـر » ، ولـذلك فما ان قتل الامام ، وقويت شوكة المظفر حتى نكب شاعرنا وطورد مطاردة منكرة ، وضاقت به وسيعات الرحاب ، وظل خائفاً يترقب ويحـبّر قصائد الاعتذارات والاستعطاف إلى المظفر حتى عفا عنه ، وجعله شاعر عرشه ، وحادى ركابه ومن اعتذاراته إليه قوله من قصيدة طويلة :

أحـامـل أعبـاء الخـلافـة إذا وهت ... دعـائم «عبـاس» وأركـان «حيـدر»،
أقلني فلم أعثـر ، وهبني لأفـرخٍ ... كزغب القطا بين الافاحص قصّر ،
ولا تقف بي «عمرو بن هندٍ» و «طرفة» ... ورأي «انـو شروان» في «بزر جمهر»
وهب لي ذنبـاً ؛ قد أتيتـك تائبـا ... عن الذنب، واستغفرتك الذنب فاغفر
فلو انني في « الأبلق الفـرد » نازل ... لأدركتني أوفى قِلال « ذِمَـرْمِـر »!
ومـاذا يضر البـدر ان ظن تحتـه ... بعـوضـة حشٍ ، أو ذبـابـة مجزر

وهي أبيات تذكرنا باعتذارات النابغة وكان قد افتتح القصيدة بنسيب رقيق فقال :

أعـد لي أحاديث « العذيب » وكرر ... وهات لنا عن « حاجر » و «محجّر» !
وكيف « اللوى » من بعدنا أرياضُه ... ترف برفـراف الـنضـارة أخضر ؟
يَظل يناغي الشمس لؤلؤ طلّه ... بأبيض في أحوى النبات وأصفر ،
كأن ذُهاب المزن نمنم فوقه ... سبائب «مرو» أو درانك «عبقر»
إذا ما النسيم الرطب صافح تربه ... تعطّر من « خَوذانه » المتعطّر ! ،
وهل من شميم «الشيح» و «الرند» نفحةٌ ... ممسكة في طي نشر معنبر ؟
فيا لائمي في زفرة حنيت بها ... ضلوعي على جمر الغضا المتسعر
أرحني ؛ فما صدري بهضب «عُمانةٍ» ... فأسلو ، ولا قلبي صفاة « المشقّر »
ومن لي ويوم الدجن ليس بمشمسٍ ... مضيء ، وليل الحظ ليس بمقمر . .
بساقية تسعى إلي بأزهرٍ ... رذوم بذي لونين أصفر أحمر ؟
إذا باشرته بالبنان تعصفرت ... أناملها من صبغة المتعصفر
تدلّ بخصر في النطاق مؤنث ... لطيف ، وصدر في العناق مذكر :
ترى الليل فوق الشمس في خيزرانةٍ ... مرنحة في حقفها المتمرمر ،

وفيها يقول مخاطبا نفسه ومسلياً :

تذلّل فان يشمخ عليك بأنفه ... عزيز ؛ فلازم عزّةَ المتكبّر ،
ولا تكترث واجزع من الضيم آنفاً ... وان لم يكن بد من الصبر فاصبر ،
فقد قدم المقدار غير مقدّم ... وقد أخر المقدار غير مؤخر !
ودالت على الاسلام للشرك دولة ... «حنين» و «احد» قص «بدر» و «خيبر»
ولا بأبى ما ذقتُ راحة عيشةٍ ... إذا أنالم اظفر بعفو « المظفر »
فتى ورث « الأذواء » غير مدافع ... وأحرز فضل «الأسعدين» و «منذر»
أعمّ سماحاً من سماحة « حاتم » ... وأعظم بأساً من بسالة عنترِ
ووالله ما تدنو أكاسر « فارس » ... إليه ولا تسمو « تبابع حمير »
ولو وزن الأملاك منه بخنصر ... لما وزنوا منه قلامة خنصر

ومازال بالشعر يروض قلب « المظفر » حتى رق له ولان ومن ذلك قوله من قصيدة :

اني امرؤ في فمي ماء وفي كبدي ... جراحةٌ من أمير غير مؤتمر

قد ذقت من غصص الدنيا وفجعتها ... ما كان منه جميل الصبر كالصبرِ
إن جرجر العَودُ فانظر ما بغاربه ... فانه إن رغا يرغو من الدبرِ
وانظر إلي بعين منك راحمةٍ ... لا تقصدن غير وجه الله في النظرِ
والبس من الخبر الموشي مذهبه ... ينسيك مذهبها موشية الحبرِ

وقد سبق أن أوردنا موقف الملك المظفر من أسيره الامام ابراهيم بن تاج الدين وكيف صور « ابن هتيمل » بعاطفته الزيدية ذلك الموقف الكريم النبيل تصويراً شعرياً بديعاً ، وكان ذلك بعد وفاة الشاعر ابن حمير صديق ابن هتيمل واستاذه وقد أصبح فارس الميدان المجلى .

ومن الملاحظ أن ابن هتيمل كثيراً ما يشير في قصائده إلى أسماء ومواقع تاريخية وذلك يدل على سعة معلوماته ورحابة افقه وانه كان كما قال « أبو مخرمة » : « عارفاً باللغة والتواريخ والسير والانساب وأيام العرب » ، ولبراعته فقد كان يحسن ويجيد توظيف واستخدام ما يستعمل من تلك الأسماء ولا يخل بالأسلوب الشعري ، والأداء الفني ، والنسق الغنائي .

وكثيراً ما نجد في شعر « ابن هتيمل » اشارات إلى أحداث تاريخية ، ومواقع ومعارك اهمل ذكر تفاصيلها المؤرخون الرسميون للدول والامارات التي حكمت اصقاع الجزيرة العربية في القرن السابع ، ولم يكلف نفسه مختصر ديوانه وناشره جهد البحث والتنقيب في ما لا يزال مخطوطاً من الكتب التي أرخّت لأحداث ورجالات واعلام ذلك العهد ولا سيما في الحجاز والمخلاف السليماني وتهامة اليمن ، واقتصر على ما ورد في كتب « الخزرجي » و « ابن الديبع » ! ونعتقد ان نشر ديوان ابن هتيمل كاملاً وتتبع أسماء المواقع والاعلام وتحقيقها والتنقيب عما أشار إليه من أحداث تتعلق بها سيزوّد طلاب المعرفة والمؤرخين بالكثير من المعلومات والمعارف المفيدة عن الحجاز واليمن في تلك الفترة من تاريخ الجزيرة العربية ، والتيارات الأدبية والفكرية والسياسية التي تحكمت في سكانها ودولها وقبائلها .

بين « إبن هتيمل » و « إبن حمير »

قلت : إن منافسة أدبية بين الشاعرين « ابن حمير » و « ابن هُتيمل » قد

قامت لها سوق ؛ ولكن الذي أقامها هم النقاد والأدباء في عصرهما وبعد وفاتهما ؛ أما الشاعران فقد كان كل منهما يجلّ الآخر ويقدره ويعترف بفضله . ونرجّح أن « ابن هتيمل » قد تتلمذ « لابن حمير » لأنه أسنّ منه بحوالي ثلاثين عاماً ؛ فمولده كما رجّحنا في ترجمته حوالي سنة ٥٧٥هـ وأما ابن هتيمل فهو من مواليد مطلع القرن السابع وليس بعد عام ٦٠٦هـ كما سنرى . ولعله قد التقى به شابا لما يتجاوز العشرين أما في « زبيد » عندما انحدر إليها طالباً كما كان يفعل سائر طلبة العلم من بلدة « ضمد » في ذلك العهد أو في مقامات الأمراء من آل حمزة وأشراف المخلاف السليماني وسلاطين تلك الفترة هنا وهناك . الذين كانوا يتنافسون على الشعراء ويجزلون عطاياهم ، وجُلّ من مدحهم « ابن حمير » في ديوانه قد مدحهم أيضاً « ابن هتيمل » .

ومما يؤكد ما نذهب إليه ، وان « ابن حمير » قد كان له فضل التهذيب والتوجيه لابن هتيمل في مقتبل عمره ، وانه قد مثل معه دور « العَندي » مع « عمارة » وأحسن إليه وأكرمه ، الرسالة التي بعثها الشيخ « محمد بن حمير » إلى « القاسم بن هتيمل » مستعينا بجاهه ومكانته لدن « الأشراف » لكي يمدّوا إليه يد المساعدة ، والرسالة تحكي ان « تهامة اليمن » عندما بعث بها ابن حمير قد اجتاحها قحط ، وأصيبت بجائحة مجاعة ؛ فنظم قصيدة أو قصائد في مدح أشراف المخلاف يستمطر بها كرمهم ، وأرسلها عن طريق صديقه وتلميذه الشاعر « الزيدي » الذي له علاقة ودٍ ومذهب مع الأمراء الأشراف وكأن مواقف « ابن حمير » مع السلطان عمر بن علي الرسولي وأشعاره فيه التي كانت تعرِّض أحياناً بالحكام المناوئين له ، قد استغلها خصومه وأفسدوا ما بينه وبينهم ، وهو يطلب من صديقه آن يصلح ما أفسدوا ، ولعله قد بعث بتلك القصائد وهذه الرسالة في أواخر أيام « السلطان عمر » ؛ وقبل أن يغتاله مواليه عام ٦٤٧هـ ومن جواب « ابن هتيمل » نعرف اعترافه بفضل ابن حمير عليه واحسانه إليه ، والرسالتان تصوّران الأسلوب الكتابي المتبادل والمتداول في القرن السابع الهجري وفيهما طرافة شعراً ونثراً وهذا نصهما :

رسالة « ابن حمير »

أما رسالة محمد بن حمير إلى « القاسم بن هتيمل » فقد استهلّها بقوله :

إن سعت بيننا صروف الليالي ... أو تناءت منا ومنك الخيامُ ،
إذ رمى البين عنك بي فحوتني ... « يمن » أو حوتك عنّي « شام »
فودادي ذاك الوداد ، ووجدي ... ذلك الوجد ، والغرام . . الغرام
والذي كان بيننا فمقيمٌ ، ... لم تكدّر صفاءَه الأيام . . !
فعليك السلام مني ، وأرضٌ ... أنت من أهلها عليها السلام ،
والقباب التي « بعوسجةٍ » لازال مغدودقاً عليها الغمام ،
أنت يا قاسم المراد ، و قومٌ ... أنت منهم قوم عليّ كرام !
أصلنا واحدٌ نعد ، ولكن ... أنت منه السنا ، وأنت السنام
وبيوم السباق أنت المجلّى ، ... كم جرى بعدك الرجال وقاموا ،
لا أناديك من مكان بعيدٍ ... قربت بعده لنا الأرحام
لا كثيرٌ إذا وصلناك يوماً ... قد مضى للصدود عام ، وعام . .
فاذكرونا فما نسينا هواكم ... لا تناموا . . فأننا لا ننام
أنت مولى الكرام لا غالك الدهر ، ... وفحل الكلام حيث الكلام
« ضمدٌ » مذ حللت فيه عليه ... حرج أن يحل فيه الملام ،
فسقت بلدةً حوتك الغوادي ، ... ولك العز دائما والدوام .

***

ثم قال :

« سببُ هذه الرسالة المختصرة ، والألفاظ القاصرة المقتصرة ، إلى ذلك الجناب المحروس ، والفناء المأنوس ، والآداب العربية ، والأنساب اليعربية ، والطلعة الوضية ، والأخلاق الروحية الرضيّة ، قول العلماء : المعارف ذمم موكدة ، وقول النبوة : « القلوب جنود مجنّدة فما تعارف منها إئتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

وما بين «هارون» و «موسى» ابن امه ... من الود ما بيني وما بين « قاسم »
ولما حوته « الشام » عني وأيمنتْ ... بلادي ، وهذا الدهر أجور حاكم
سطرت إليه في الطروس رسالةً ... تعبّر عما في الحشا ، والحيازم
وما طرسها إلا الفؤاد يخطه ... يد الشوق عني بالدموع السواجم
فلو علم القرطاس ما في ضميره ... شكى وبكى ؛ لكنه غير عالم !

وما عسى أحمل من المحار إلى الجوهر ، ومن ورق العرار إلى عبير العنبر ، أو من حشف التمر إلى خيبر .

ونـاظم الشعـر يهديـه « لعوسَجَةٍ » كحـامل السيف يهديه إلى « عدن »
وانـما الجـهـل غطّى كل مثلبـةٍ وشاعر «الشام» يرعى شاعر «اليمن»
قحطان « هود » أبونا ؛ لو ذكرتُ له و «قاسماً» قال: أنتم نصْرتي وبني،
ولـلخـزاعـي كل الفخـر قاسمني فيـه ، وسيفٌ كساه الفخـر «ذو يزن»

وانما ينبسط المبسط على أهل الاحساب البيض ، وينسحب المسحَبُ على أهـل الذخر العريض ، والله تعالى يقول في القرآن الذي ليس في حكمه نقض : « وأولـوا الأرحـام بعضهم أولى ببعض » ؛ ولما حدث في أرض « اليـمن » ما حدث من جائحـة الـزراعـة ، وأنِفَ الأديب لأهله من الضراعة ، وهي أشرف بضاعة ، وجّهت قصائد انتجتها البراعة ، وسطرتها اليراعة ، وسيّرت هذه الرسالة على أيدي الجماعه ، ولولا عوائق الزمن ما تأخرت ساعه ؛ « ولله على الناس حج البيت » من استطاعه .

فقلت للركب إذ صاح الـدليل بهم هبّـوا ؛ فكـلّهـم لبّـاه إذ صاحـا
يارائـحـين إلى المختـار من مضرٍ سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحا ،
حيّـوا «بعوسجة» «سحبان» منطقها والمنتقى غرراً منهـا ، وأوضـاحـا
وبلغـوه سلامـاً مشرقـاً أرجـا ، كالصبح إذ لاح أو كالمسك إن فاحا
انـا إلى الله من عذر أقـمـت به ، ومـن أقـام على عذر كمـن راحـا

ولكنه يتصل بي من رواة الأخبار ، وجوّالة الأقطار ، من البلاد الشريفة والأفنية المنيفة ، أن أقواماً من سقط المتاع ، وممن يجب أن يباع ولا يبتاع ، يتقـولـون الأقـاويل ، ويحـرّفون الكلم عما نزل به « جبريل » ويسترزقون بالأباطيل التي يزوّرون ، وينسبون إلى بعض ما يصورون ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ، وأيم الله لو زأرتُ لأسكت ما به ينبحون ، ولو قرأت « نون » ، لعثر القلم وما يسطرون ، إلا انهم يجرون على ذلك في المواضع البعيدة ، ويغـرون به من لا يميّز القصيدة من العصيدة ، وأولوا الشرف متبوعون ببربرة هؤلاء الأنكاس ، وما على الأسد البيهاس ، من النوابح من باس ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم تعوّذ من الوسواس الخناس

ومـذ كنت لم أقصـد لئيماً لحاجةٍ ولـو بلغت أمـوالـه حُبُـك السما

وما كل برق لاح لي يستفزّني ... ولا كلّ من ألقاه ألقاه منعماً
إذا قيل : هذا موردٌ قلت : قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظمى !
معاشر أملاك خُدِمتُ بمدحهم ... وما أمدح الأملاك إلا لأخدما !
ولا نقص لي مهما قصدت سلالة النبي ... عليه الله صلى وسلما ،
وفضل علي والبتول وأحمد ... لهم ؛ ليس للأصباح أن يتكتما !

فان احتاج المملوك إلى مشورة فيها السداد ، وتَثقِيفةٍ تستفاد ، لجهلهم بأهل البلاد ، فمولاي أيده الله أولى من أشار عليهم ، وأفضى لهم وإليهم ، فطالما حملتني أملاك اليمن ، وشروا شعري بأنفس الثمن ، وهذه أول تُحفةٍ إلى أشراف « بني حسن » ، وهم كرّم الله أصلهم ، وكثّر نسلهم ، أهل العوارف والمنن ، وان لم يكونوا فَمَنْ ؟ الله تعالى يبقى تلك الأنفس النفيسة والهمم الرئيسة ، وعليها أفضل السلام ، وأسنى التحية والاكرام .

فكل الأرض دارٌ أنت فيها ... وكل الناس شخصك والسلام
ولو لم يرض « قحطان » فخاراً ... لكنت الفخر وانقطع الكلام

جواب « ابن هتيمل »

وقد استهل « القاسم بن علي بن هُتَيمل » الجواب بقوله :

سيدي : ما دمى عليك حرام ! ... ليس في سفكه عليك أثامُ
أنت أولى منى بروحي فاحكم ... لك فيها فما إلي كلام !
أنا راضٍ فما ملام أخي اللوم لمن لا يجوز فيه الملام !؟
بليتْ جدَّة الليالي وما جُدْتَ بوصل ، وبادت الأيام
ومضى للصدود شهر وشهر ... ما تداركتني ، وعام ، وعام ،
عبدك الرقّ شاب من لوعة البين ... وليداً ، وشاخ وهو غلام ،
حاش لله ؛ ما أظنك إلا . . ... صنماً شبهت به الأصنام !
أتراني أحظى بلثم ثناياك شفاها ، وقد اميط اللثام ؟
تتلاقى الأرواح حين تلاقى ... في العناق الأجسام والأجسام
لي من طرّتيك روح وريحان ولى من مدام فيك مدام ،
أعجمت نون حاجبيك وخطّت ... ألِفٌ بين حاجبيك ولام
يانسيم الأسحار فيك شميمٌ ... من بشام اللوى ؛ فكيف البشام ؟
أعقيق الحمى . . عقيق الحمى ؟ والعلم الفرد ؛ والخيام الخيام ؟

مالنا يارفاق زعزعنا الشوق ، وللعيس تحتنا إرزام ؟
قلتم : لا ألمّ بالطلل البالي . . وهيهات منى الألمام !
أفبدعاً ان قلت : ياربع حييتَ ، ويادارهم عليك السلام ؟!
لا نأى الغيث عن « سهام » ولازالت تمج المياه ريا « سهامُ » :
بلد توجد المروةُ والشرو ة فيها ، ويعدم الاعدام !
جمعت في « محمد » آلة الفضل ، فحارت في وصفه الأفهام
الجواد الجواد ، والسيد السيدَ ، والصارم الحسام ، الحسام !
راعف السيف واليراعة تمضى في يديه السيوف والأقلام
وإمام للأكرمين ، وما كلّ إمامٍ للأكرمين إمامُ !
ساحة يشبع الضيوف ويربو الطفلُ فيها ، وترتع الأيتام
وأيادٍ أعادها وبداها كرمٌ ، ما اهتدت إليه الكرامُ
وإذا ما عددت في شرف السعي عصاماً . فأين منه عصام ؟
إنما لابن «حِمير» قدم السبق وحيداً ؛ وتستوى الأقدام !
يا أبا عبد الله عزّت بك الأمةُ ، والمسلمون والاسلام ،
قمتَ فرداً بدولة «الملك المنصور» بالشعر حين عزّ القيام
بقوافٍ يلحقن من أعجز الجيشن « الرسولي » وهو جيش لهام ؛
أنا لولاك ما عُرِفْتُ ؛ وما السيلُ بشيء في الأصل لولا الغمامُ
نحن سيفا « عَمرو » وقد علم العالم أنا « ذو النون » و « الصمصام » ،
نسبٌ بيننا إلى نسب يجمعُ . . . فيه الأداب والأرحام
بأبى أنت ياحمد أنعمتَ بفضل من دونه الانعام
فلماذا طوقتني ولأمرٍ طوّقت في زمان نوح الحمام ؟!

ثم قال :

وردت أدام الله سعادة مولاي التحفة المرضية ، والنفحة الرضية ، الجليلة الخطر ، الدقيقة النظر ، الحاسرة الجيوب ، المعجزة الأسلوب ، الطالعة في فلك أريج ، الموضحة في كل أمر مريج . وورود العافية على السقيم والثروة على اليتيم ، والغني على الفقير ، والاطلاق على الأسير .

فلثمتها حتى محوت سطورها لثم المحبّ لو جنة المحبوب ،

كانت ألذّ من غفلة الرقيب ، وأبهج من طلعة الحبيب ، وأحسن موقعاً مني وعندي ، من البشرى أتت بعد النعى ، وكأن «حبيباً » أنشأها ،

و « الوليد » وشاها ، و « الحسن » أذهبها ، و « حسان » هذبها ، وأنا اهتدت لها الافهام البشرية ، لولا الروية « الحميرية » فعلمت انها جوهرة من خاطره

كالبحر يبعث للقريب جواهراً جوداً ويبعث للبعيد سحائبا

فما زدت عن الحيرة في أمري ، والتفكر في سري وجهري ، فرأيت أن استبعد الشقة ، ولا أتكلّف المشقة ، ميلاً إلى التخفيف ، على خاطرك الشريف ،

ولكنه جهد المقلّ ومن سعى مقلاّ وأعطى الجهد لم يخش لائما

ولولا سعة الفصول ، لكان الرد من الفضول ، ومولاي أيده الله أولى من توسل بطُول طَوله ، وستر بقوته وحوله ، على فلقة عودِه ، وحصرمة عنقوده ، إذ أنا غصنٌ هو دوحتة ، وجزء هو جملته ، وليس المرء من يحظى على نفسه ، ولا ينبه على غرسه ، ولو اني ذهبت إلى مدح فصاحته وشجاعته لجاوزت حد الاسهاب ، وتعجرفت في الاطناب ، وكنت كمؤيد الاصباح بالمصباح أو كالذي قال : ما أحلاك ياعسل ، ولاّه الله ما أولاه ، وأدام نشر محاسنه الفاخرة ، وقرن له خير الدنيا والآخرة ، ولا اخلى المملوك من خدمته ومهماته ولا أوحش الله الدنيا من حياته موفقاً إن شاء الله

جرى معك الجارون حتى إذا انتهوا إلى الغاية القصوى جريت وقاموا
فليس لشمس مذ انرت إنارة ، وليس لبدر مُذ تممت تمام !

وإذن فأبن هتيمل يعترف بأنه « فلقةُ عُودِه » و « حصرمة عنقوده » و « غصن دوحته » بل ويقول في قصيدته :

أنا لولاك ما عرفتُ وما السيل بشيء في الأصل لولا الغمامُ !

ولا ريب انه قد استوهب له من الاشراف ما خفّف وطأة الجائحة عنه ، لا سيما وهو يعلم أنه لولا « الشيخوخة » لقدم عليه وعلى الاشراف بنفسه ، كما تصرح رسالته . ونحن نعلم ان « ابن حمير » توفي عام ٦٥١هـ وان ابن هتيمل قد عاش بعده حوالي بضعة وأربعين عاماً صقل خلالها شعره ، وتبحرت معارفه . وقال قصائده الطنانة في الامام أحمد ابن الحسين ثم في الملك المظفّر ، وكان أمير شعراء عصره وقد قيل ان ديوان شعره لما وصل إلى مكة المشرفة اتفق أدباؤها على تفضيله على سائر دواوين شعراء عصره وقال

قائلهم : قد جاء من اليمن ديوان يغني عن كل الدواوين .

وهم إبن أبي الرجال

وقد ترجمه العلامة المؤرخ أحمد بن صالح بن أبي الرجال في مطلع البدور فقال : « البليغ الذي يعد في البلغاء بالخنصر ، والسابق الذي يطول على كل شاعر ولا يقصر ، وتصبو له المعاني إذا دعاها كاعبان ومُعصر ، القاسم بن علي بن هتيمل الضمدي الزيدي » ثم قال ساجعاً كعادته : « هو أحد مفاخر اليمن على الشام ، والمغنى بوميضه على كل بارق فما أحدٌ لبارق من بعد بارقه شام » .

ثم وقع في وهم كبير مربك إذ قال : « وقد أنشد من شعره العماد الكاتب وهو بمصر ونسبه إلى غيره وما أظنه ؛ والانتحال كما قال السعد التفتازاني : « أمر يصبو إليه اللبيب ، وللأرض من كأس الكرام نصيب ، فذكر العماد الكاتب القصيدة التي مطلعها : « أنا من ناظري عليك اغارُ » وهي من غرر القصائد ، وأظن ان من جملتها في مديحه للامام أحمد بن الحسين عليه السلام :

« طالبي » يكاد من طلب الثّا ر تلظى من مقلتيه النّارُ
« حسني » لوجهه حسن الدهر ، ولولاه ما أقيل عثارُ
« قاسميّ » في كفه يُقسم الرزق ، ومنه تستوهب الأعمارُ

وهذا وهم كبيرٌ من قبل العلامة ابن أبي الرجال لأن « العماد الكاتب » الاصفهاني ولد سنة ٥١٩هـ وتوفى عام ٥٩٧ ! أي ان وفاته كانت قبل ولادة ابن هتيمل في مطلع القرن السابع بحوالي عشرة أعوام ، ولم يسند ابن ابي الرجال خبره إلى مصدر محدد من كتب العماد الكاتب أو إلى الذي نقل عنه أنه أنشد من شعر ابن هتيمل قصيدته

أنا من ناظري عليك أغارُ وارعني ما حال عنه الخمارُ

إذ لو صح ذلك لكان « ابن هتيمل هو المنتحل » وليس العماد ، والأبيات الثلاثة التي قال ابن ابي الرجال انه « يظن انها من جملة قصيدة ابن هتيمل في مدح أحمد بن الحسين لا توجد في ديوانه المطبوع ضمن القصيدة . ولكي

نبرّر وهم « ابن ابي الرجال » فلعلها من قصيدة أخرى لشاعر قديم في مدح أحد الدعاة الطالبيين في القرن الرابع أو الخامس وهي من محفوظات العماد ، وان ابن هتيمل قد عارضها بقصيدته وابدع ، لان رائيته في أحمد بن الحسين مشهورة ومتواتر إسنادها إليه ، فلما قرأ ابن ابي الرجال الأبيات الثلاثة أو سمعها مروية إلى العماد توهم انها من قصيدة « ابن هتيمل » ولم ينتبه للفرق الزمني وجل من لا يسهو .

ما مدح أحداً إلّا رثاه !

ثم قال « ابن أبي الرجال » : « وكان ممدوحه في الجبال الامام الشهيد أحمد بن الحسين كما مدح أولاد الامام عبد الله بن حمزة وفي الغور أهل المخلاف وأمراء حلي بن يعقوب » ثم ذكر انه تفرد من بين الشعراء بخصلتين غير محمودتين الأولى « انه يبالغ في الممدوح حتى يهين من سواه كقوله في أحمد بن الحسين

إلى من لو وزنت الخلق طراً بظفر منه ما وزنوا قلامَه

وقوله في صاحب « حلي بن يعقوب » :

ان الملوك بني « يعقوب » قاطبةً قطعاً ، وكل ملوك غيرهم سوقُ

والخصلة الذميمة الثانية انه ما مدح أحداً إلّا ورثاه لأنه تعمر طويلاً » .

ونحن قد نتفق مع العلامة ابن ابي الرجال ونقول ان المبالغة في الاطراء خصلة غير محمودة ، ولا سيما إذا كان في الاغراق تنقيص من اقدار الآخرين ، وأما طول العمر فليست من الخصال التي يستطيع المرء ان يلام عليها ، وبكاء الشاعر على من مدحه خصلة ممدوحة حميدة لأنها تدل على وفائه ، ولا يذم إلا الشاعر الذي يهجو من مدحه واطراه ولا سيما إذا كان قد لاقى ربه جلّ وعلا . كما هو ديدن بعض شعراء السوء قديماً وحديثاً !

تخلّص حسن :

وقد ذكر ابن ابي الرجال قصة ظريفة خلاصتها ان الملك المظفر لما سمع البيت : « وكل ملوك غيرهم سوَق » والسُوَق جمع سوقه وهي الرعية وفي الاصطلاح اليمني تطلق على الرعاع ، استشاط غضباً وأرسل في طلبه إلى زبيد فلما حضر بين يديه وأنشده البيت حَنقاً قال « ابن هتيمل » أطال الله

عمر السلطان انما قلت : « وكل ملوك غيرهم سُبقُ » فاستحسن ذلك السلطان وتركه .

مقارنته بأبي فراس

وقد أشار ابن ابي الرجال إلى المشاعرات والمفاضلات بين « ابن هتيمل » و « إبن حمير » وقال : « وكان ابن حمير مجيداً ولكن هذا لا يلحق ، وما يناظر بشعره إلا شعر « أبي فراس » ولقد امتحنت جماعة من الأدباء بأبيات من شعره فقلت : لمن تظنون هذا الشعر :

أراني وان كنتم موالى دنيةٍ ... وأهلي ؛ فلي في دون أرضكم أهلُ
تُقبل كفى قبل إبراك ناقتي ، ... وتنجح حاجاتي وما حُط لي رحلُ
ويشتاقني المولى البعيد وسادتي ... عيونهم عني وعن نظري قبلُ !
وأنتم أحق الناس بي لو عرفتم ... بحقي ، ولكن دون معرفتي جهل
فما حيلتي والحال لو قمتم بها . . ... على جهة الانصاف أصعبها سهل ؟
فما صنتُ نفسي عن قتال عدوكم ، ... ولا قلت مالي في أموركم دخل !

فوقع غالب ظنهم انه من شعر « أبي فراس الحمداني » ثم قال : « وله في الغزليات ما يسترق الطباع ، وكان يجاز بالجوائز الجزيلة ومع ذلك مات وهو من فقراء المسلمين » [مطلع ج ـ ٤ ـ ٢٥١ ـ ٢٥٤] .

ولادته ووفاته

لم يذكر أحدٌ تاريخ ولادة « ابن هُتيمل » ولا عام وفاته ؛ ولكن ما نعرفه عن ممدوحيه ، ومن عاصرهم من الملوك والأئمة والأمراء والشعراء في القرن السابع الهجري يساعد المؤرخ والناقد على معرفة ذلك .

فإبن هتيمل « زيدي المذهب » كما عرفنا وقد ولد ونشأ في فترة ضعف الامامة الهدوية بانقسام وتصارع حفدة وأبناء الأئمة من « الهدويين » و « العيانيين » و « السليمانيين » و « الحمزيين » ، وتدفّق « الغزو الايوبي » على « الحجاز » و « اليمن » ، وأشعاره في الاشراف والحمزات وتحريضاته ضد من كان يسميهم « الغز » و « الترك » و « العجم » وإشادته بالامامة تدل على ذلك ؛ ولما نهض الامام أحمد بن الحسين وبايعه علماء اليمن سنة ٦٤٦هـ كان « ابن هتيمل » من أول من لبّى دعوته وناصره وهاجر إليه ،

وقد كان قبل قيامه وثيق الصلة بأولاد الامام عبد الله الحمزة الذين وان لم يدّع واحد منهم « الامامة » لكنهم كانوا يسيطرون على بعض المناطق في الشمال وفي صنعاء وفي صراع مع « الحاتميين » ثم مع « الايوبيين » وخلفائهم « الرسوليين » كما عرفنا في الفصول السابقة .

ولقد كانت قصيدته :

أنا من ناظري عليك أغار وارعني ما حال عنه الخمار ،

التي مدح بها الامام أحمد بن الحسين من أول مدائحه فيه سنة ٦٤٦ أو ٦٤٧هـ ونحن نسمعه فيها يتحسر على زمان الصبا ويبكي الشباب مما يدل على انه قد ناهز الكهولة فيقول :

ابصرت مفرقي فأفزعها ليلٌ تمشى في جانبيه نهارُ
انما العيش والهوى قبل ان ينجم ثديٌ ، أو أن يدب عذار
لا يصد الملاح عن صلة العشّاق إلا « القتير » والاقتارُ .

بل انه وفي نفس الفترة عام ٦٤٧هـ أو حواليها يصرح في قصيدة مدح بها الامام « ابن الحسين » بأنه قد جاوز الأربعين فيقول :

تنضوا الصبا ، وتريد أيام الصبا أتراك تخلف في الطماعة أشعبا ؟
أخفقت فاستمطرت غيم جهامةٍ بيضاء ، واستسقيت برقاً خلبا
أتُخِبُّ منك « الأربعون » بكرّها فوتاً ، وتطلب خلةً من « زينبا » ؟
رمقتك مقلتها غراباً أسوداً ، فاليوم قد لحظتك بازاً أشيبا !
ولئن غدوت إلى الحسان مبغضاً ، فلكم غدوت إلى الحسان محببا !
من كنتَ تعجبه بخدك أمرداً . . من أين تعجبُه برأسك أشهبا ؟

وهذا يعني انه في عام ٦٤٧هـ كان قد جاوز الأربعين ؛ واذن فلن نبعد عن الصواب إذا قلنا انه ولد في سنة ٦٠٦هـ .

وأما وفاته فنحن نعلم انه قد طال عمره ، ونستطيع أن نستنتج من آخر مدائحه في ديوانه والتي قالها في الملك الأشرف بن المظفر الرسولي الذي توفى سنة ٦٩٦هـ وكان قد خَلَفَ أباه سنة ٦٩٤هـ انه قد توفى في نفس العام الذي مات فيه « الأشرف » اذ لم نجد له مدحاً في الملك المؤيد الرسولي الذي

خلف « الاشرف » وبناء عليه فنستطيع القول انه انتقل إلى جوار ربه عام ٦٩٦هـ أو العام الذي يليه ، وقد ناهز التسعين أو جاوزها فهو بحق شاعر القرن السابع الهجري وشاهده العتيد .

بكاء الشباب

وقد أكثر « ابن هُتيمل » البكاء على الشباب ، وأبدع وأجاد ، فهو يقول من قصيدة :

رمْتَ المتابَ ولات حين متابِ ... وصباي بعد الأربعين تصابي
أهوى ؟ وقد نضت السنون صبابتي ... عني ، وقد سلب المشيب شبابي ؟
بدّلت كافور بمسك أذفر ... في لمتي ، وحمامة بغراب !
أفلا يعزّيني الرفاق بغائبٍ ... كالميت لا يقضى له بأياب
وهو الحبيب مضى ، ولا ألقى لهً ... عوضاً ، ولا عوض عن الأحباب
من لي بتدليس الخضاب فربما ... حسبته بلهُ الغيد غير خضاب !؟

ويقول من أخرى يمدح بها المظفر ونحن نعلم انه ما اتصل به إلا بعد وفاة الامام أحمد بن الحسين سنة ٦٥٦هـ ببضع سنوات ولعله يومئذ كان قد جاوز « الستين » فهو يبكي أيام الصبا بلوعة أليمة .

ماذا بعثت علي يانَفس الصبا ... من حسرة لفوات أيام الصبا ؟
حركت من وله الصبابة ساكناً ... ما كان أبعده عليّ وأقربا !
ذكرت عهداً نمتُ أغيد أمرداً ... في ظله ، وشجيتَ أشمط أشيبا
يالمةً نصلت ، وليس خضابها ... عوضاً ، وأقبح شيبة ما خضبا !
دلست بالتمويه حتى بدلت ... بنصولها ما كان أصدق أكذبا !

وفي هذه القصيدة يقول :

سُقي « العُذيب » فما أرق مياهه ... ووروده ؛ وعذابه ما أعذبا ،
وبنفسي الرشاء الذي لولا الذي ... أخشاه ما وريت عنه بزينبا
متجلبب بغلالةٍ من شعره ؛ ... كسي الملاحة حاسراً ومنقبا ،
قمرٌ توشح خصره بسواره ... فيجول من هيفٍ عليه لولبا
انظر لعقرب صدغه في وجهه ... لتقول هذا البدر حل العقربا !
أملوّمي ؛ أنّي جهلتُ ؛ فلم أرم ... وطني ، ولم أذهب لرزقي مذهبا !
مهلاً فقد حولت مني حوّلاً ... طبا ، وقد قلّبت مني قلَّبا

مازلت أعلم بالفراسة غامض الخافي ، وأعـرف بالخـبـيـث الـطـيـّبـا ،
حتى اعتصمت من الملوك بخيرها جدّاً ، واحسبهـا واكـرمها أبـا .

ويقول في المشيب من قصيدة طويلة :

أمن خلسة في الرأس كالبرق أعرضت طلا الغيـد عني باحمـرار ورودها ؟
غدوت بغـيـضـاً من تلوّن لـمـتى وكنت حبيباً قبـل بالي جديـدها ؛
فكم حسرة للشيب عنـدي ، ليتني وردت غمار المـوت قبـل ورودها ،

ويقول من قصيدة في الأمير أحمد بن عبد الله بن حمزة :

رُعيَ الصبا ؛ أيـام كانت صدرهـا صدر الغلام ، وكان خدّي أمردا ،
اذ لا عذار ، ولا نهود ، ولم يحن لي أن أطـرّ ، ولا لها أن تنهـدا
ليت الشبـاب يعـود لي ويعـود لي مرضي به وعـيـادتي والـعـوّدا

وأول هذه القصيدة :

أثـرت حبـك مغـوياً أو مرشـدا أو منصفـاً ، أو مصلحـاً أو مفسدا
أفـرطـت في حبّيـك حتى إنـني لأرى الضـلالة في هواك هي الهدى
ولقد جحدت هواك خيفة ما جرى ، لو كان ينفـع عاشقـاً أن يجحـدا ،
وعهدت طيفك لا يغبّ زيارتي ، أنّـا هجـعـت ؛ فما عدا مما بدا ؟
أمحـدّثى عن « اللوى » هل حددوا فيئـةً ؟ وهـل ضربوا لبينٍ موعدا ؟
ومتى الفـراق ؟ أمن غدٍ فأمـوت قبـل غدٍ وأجـعـل يومنـا هذا غدا ؟

وهـذا من الشعـر الـرائق الـرائـع السهـل الممتنع الذي يذيب لفائف القلوب ، ويطرب الاسماع ، ولا سيما إذا أنشده صوت حنون .

وقال في الشيب أيضاً :

عجـبـاً من نفـار «علوة» من رأسي ، واعـراضـهـا العجيبُ العجيبُ !
عرفـت مفـرقي وفيـه خضـاب الله ، واسـتـنـكـرتـه وهـو خضـيـبُ
شعـر جدّ في بلاه الجديـدان برغمي ، وغـيـرتـه الـخـطـوبُ

وهذه الأبيات من قصيدة قالها في الشريف القاسم بن علي العلوي أحد امراء المخلاف السليماني الذين حاولوا محاربة « المظفر » ومطلعها :

لكـمُ منكـم عليّ رقـيـب غبـتـمُ وهـو حاضر لا يغـيـب

وعلى خاطري هواتفُ تدعوني إلى ما يسركم فيجيب
ياغريب الصفات إنا غريبان ؛ فهل يرحم الغريب الغريب !؟
كيف تجزى بالحب بغضاً ؟ أما قيل بمثل تجزي القلوب القلوبُ !؟
هل لعذري وجهٌ إليك ؟ وهل تقبل إن تبتُ توبتي فأتوب ؟
ليت شعري أوجهك الحسن الجالب حتفي ؛ أم شعرك الغربيبُ ؟
وثناياك ؛ انك الساكن في القلب ؛ والحبيب الحبيب
وحرامٌ عليّ مذ غبت مالذّ لدي المطعوم والمشروبُ

ومنها في مدح القاسم بن علي والشكوى من مواطنيه

أشرف الناس رتبةً وأعزّ الناس والأرض « قاسم » و « الجروبُ »
« حسنيّ » للسائلين وللمحروم فيما حوتْ يداه نصيب ،
شرفاً يا أبا محمد ؛ فالعز عليكم رواقه مضروب .
عزّ في ظل رمحك « الفاطميون » ومنهم قبائل وشعوب
أنا أشكو إليك قوماً تمالوا في عقوقي بعيدهم والقريب
جهلوني وضيّعوني وهل يعرف حقّ الأديب إلاّ الأديب ؟
وأرى الشمس في الطلوع على العمي سواء طلوعها والغروب !

وقد سبق ايراد قصيدته الرائية والتي يقول فيها :

انما العيش والهوى قبل أن ينجم ثديٌ أو أن يدبّ عذار

كما ان له أبيات « مفردة » عن الشباب والشيخوخة مثل قوله :

حياة المرء صحته ، ووصل الأحبة ، والكفاية والشباب ،

وقوله :

تحملني ذنب المشيب ؛ وطالما حَلوْتُ لها ، دون الغطارفة المردِ !

وغير ذلك مما يجده القارىء منثورا في قصائده .

كان وفياً لمبدئه وأصدقائه

لقد كان « ابن هتيمل » مخلصاً صادقاً في محبته للآل ، ولكنه لم يكن غالياً ولا رافضيّاً بل « زيدياً » معتدلاً ؛ يعرف ان « المودة في القربى » ، لا تتم

إلا بالولاء لصحابة الرسولﷺ الذين هاجروا معه والذين آووه ونصروه ، وذلك مذهب السلف الصالح والتابعين باحسان ممن لا يشذ بهم نَصْبٌ ، أو يجمح بهم تعصب عنصري ، أو نعرة عرقية ، أو نزوة نفاق . ولقد كان يؤمن بمبادىء زيد بن علي عليه السلام التي منها العدل والتوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والخروج على الظلمة ، ولذلك فقد اخلص الولاء والنصرة للامام الزيدي الحسني أحمد بن الحسين ، وبذل في سبيل النصح له جهده ، وقد سبق ايراد أشعاره في محاولة رأب الصدع بينه وبين أولاد الامام عبد الله بن حمزة ، ولا شك انه قد حزن أشد الحزن وانكاه ان ينشب بينه وبينهم ذلك الخلاف الذي إنتهى باستشهاده عام ٦٥٦هـ وكان من جراءه انتصار المظفر ، وتوطّد الدولة الرسولية كما سبق في ترجمتنا للامام أحمد بن الحسين في السفر الثاني .

نعم لقد حاول الشاعر الزيدي المخلص الوفي جهده أن يصلح ما أفسده الدهر ، وكان يرى في اتحاد احفاد الأئمة من « هادويين » و« عيانيين » و« حمزات » و« أشراف » « مكة » و« المخلاف السليماني » مع الامام أحمد ابن الحسين ، ووقوفهم صفاً واحداً في دولة « التوحيد والعدل » الزيدية العلوية ضد « العباسيين » و« عمالهم » ، و« الايوبيين » وخلفائهم « الرسوليين » ، المخرج الوحيد السليم للمسلمين ، والوسيلة الفذة لانقاذ الخلافة الاسلامية التي تلفظ أنفاسها الأخيرة في بغداد على أيدي « الشعوبيين » من « فرس » و« ترك » و« تتار » ، وما كان « الأيوبيون » و« آل رسول » في نظر « ابن هتيمل » إلا من نفس الفريق قبل اتصاله بالملك المظفر .

وله قصيدة تصور مدى غبطته وانشراح صدره وفرحه باللقاء الذي تم بين الامام أحمد بن الحسين والأمير الفارس الشاعر أحمد بن عبد الله ابن حمزة ، وقيادتهما التي فتحوا بها صنعاء سنة ٦٤٨هـ ومطلعها :

كم تستعدّ بصبر ما له مددُ ؟ وكم تجمد دمعاً والفراق غد !؟

وفيها يقول :

ان « الخلافة » وجهٌ ما به كلفٌ « بالأحمدَين » ، وعينٌ ما به رمد
تكاملت بهما حتى كأنهما . . . من التمازج فيها الروح والجسدُ

أضحت بفضلهـا كالكف يعضدها عضـوان ذا ساعدٌ فيها ، وذا عضدُ
والمشرفي بحـديـه صرامـتُـه . . يوم الضراب ، وليست كاليـدين يدُ !
أن يعرف البدر «حق الشمس» مكرمة ، وليس يجهـل حق الـوالـد الـولـدُ
يا أحمـد بن أمـير المـؤمـنـين هديتَ المسلمـين إلى نهج الهـدى فهـدوا
رضيت ما رضى المهـدي فاحتدمت أكبـاد قوم وراهـا الغيظُ والحسـدُ

ثم يعرض ببعض « الاشراف » الذين شذوا وذهبوا إلى الملك المظفر في « تعز » فيقول :

فما لبعض بني «المنصـور» طوحهم عنكم وحاد بهم عن نصركم حرَدُ ؟
أمـرٌ ثنـاه لكـم ثان ؛ فمـن غبنٍ في الرأي أن يتساوى الغي والرشدُ !
وهـذه دولـةٌ أنـتـم لها عمـدٌ ولا بقـا ، لخبـاء ما له عمـدُ ،
وراسـلتكم « تعـز » من تذللهـا بالرغم ، وانتظرتكم «حيس» و «الجند»

ثم يذكرهم بتخاذلهم ، وأن ذلك كان سبب فشلهم وفوز عدوهم الغازي فيقول :

نمتم ؛ وعـظّم حال الغـير كونكم صددتـم ، وهمُ في أرضكم صَيـدُ
لا تهملوا فرصـةً في اليـوم ممكنـة فقـد يجيء بما لا تشتهـون غدُ !
أخيفـةً ؛ فرسـول الله ما عذبت له «حنينٌ» ولا طابت له «أحُدُ» !؟

ولكن سرعـان ما دبّت عقارب الخلاف ، وكان ما سبق ان شرحناه ؛ ولكم كان « ابن هتيمل » مهموماً حزينا وهو يحاول الترقيع دون جدوى ! بل وكم هم مساكين أولئك « المرقّعون » في كل زمان ومكان ! لأنهم يحاولون إيقاف عجلة التاريخ وتغيير سنة الله التي إذا كانت قد دَفَعت عجلة التاريخ في اتجاه مَّا لا تستطيع أي قوة تحويلها عنه ! وقُتِل « ابن الحسين » على يد « ابن حمزة » وانتصر « المظفر » رغم انف « ابن هتيمل » ، ومحاولاته ، ولكنه لم يستسلم ، وبكى ابن الحسين بكاءًا مراً ، واندفع يؤيد الامام الحسن بن بدر الدين الذي أعلن دعوته بعد قتل ابن الحسين وقال في ذلك آخر « إماميات » ومحاولاته الزيدية وهي قصيدة لم ينشئها طمعاً في مال أو جاه ، أو رفد دنيوي ، وإنك لتلمس في غزلها نبرة الحزن اليائس ، الساخر من نفسه حين يكابر ويفتتح قصيدته في مدح امام جديد بعد قتل إمام كبير فيقول :

عرّج ففي الكلة البيضـــاء ياحـادي ... برء السقيم وريّ الحـائم الصادي !
ومـــا يضرك من روح تمنّ بها ... على بقـــيـــة أرواحٍ وأجســـاد !؟
ففي التشاكي ـ ولو مقدار مضمضةٍ ـ ... حرّ الجـــوى ـ برد أحشـــاءِ واكبـادِ
زود جفونك من حسن الحبيب وطب ... نفساً بموتِك ، واستكثر من الزاد
هل يعلم الـــرائـح الغـادي لطيتـه ... صرف النوى ، ان قلبي رائح غادي
ما أجمـل الصـبر لولا عادة حكمت ... ان لا يكون جميل الصبر من عادي
ما كان يحمـــلُ ما حَمّلتُـــه رمـــقـــي ... صخـــر المشـقّـــر أو عاد بن شدّاد
يا مصلحي بفســادي أنت أملك لي ... مني ، وأولى باصـــلاحي وافســادي
لا تسأل الناس عن جسمي وما نهكت ... منه الصبابة ؛ وأسأل سرحة الوادي

انـه شعـر من يتسـلى متكلفـاً ، ويحاول التعزي فلا يجده ، وما الكلة البيضاء الا آماله الضائعة وأحلامه التي تحتضر ، فماذا يضيره لو بذل لها روحه ثمناً ؛ وما يحمله رمقه وما تبقّى له من جهد ، لا يقوى على تحمله أحد ، وما كان أحراه بالرضوخ ، وجميل الصبر ولكن أين منه وليس الصبر له عادة !

ولعله لم يبعث أو ينشد الامام الحسن بن بدر الدين هذه القصيدة إلا بعد قيامه بعامين أي في سنة ٦٥٩ وبعد أن عارضه الامام السراجي ، وقد سبق ان ذكرنا ونحن نتحدث عن « ابن بدر الدين » الذي كان عالماً أديباً شاعراً ان الاشراف من « الحمزات » وغيرهم قد خذلوه ، ولم يستجيبوا لدعوته ، ولما لجأ إلى قبائل تهامة لم يسعفوه ، فجرجر ذيل خيبته وفشله ، وعاد إلى بلده « رغـافَة » ، واعتكف على القراءة والتأليف حتى مات عام ٦٧٠هـ ومثل نسيبه الحزين اليائس ، كان مدحه أيضاً حزينا يائساً ولا سيما حين خاطبه موسّيا ومواسيا بقوله :

يابن الأئمة ، والفضل الذي شهدت ... بفخـــره النـاس في حضر وفي بادي
ان اعرضت عنك أبناء الامام ، ولم ... تجنـــح إليـك باسعـاف واسعـاد ،
فاصـــبر فربّتـــما اغنـــاكَ ربّـك عن ... قومٍ بقـــومٍ ، وأجنـــادٍ بأجنـــاد

وكان قد أطراه واثنى عليه فقال :

ان الامامة صارت في بني « حسنٍ » ... إلى إمـامـة هادٍ من بني « الهـادي »
مقـــابـــل بين أعـــمام جَحَـا جحـةٍ ... وأمـــهـــات وآبـــاءٍ وأجـــداد !
فخم الأصالة ؛ مشهور البسالة ؛ مرضيّ العـدالـة ؛ مثـل البـدر في النـادي

طودٌ يؤيـده من شم ما نسـلت ... أصلاب «يحيى بن يحيى» شم أطواد
ثبت إذا زلت الأقـدام وارتعـدت ... بذّ الـكـماة بابـراق وارعـادِ
يقـضـان قلّب آراء وتجـربـة ... في الحـرب حوّل اصـدار وايـراد !

ثم يصرخ وقد رأى تخاذل الناس عن نصرته بقوله :

فاصـبر ؛ فربتما اغنـاك ربـك عن ... قوم بقـوم وأجـنـاد بأجـنـاد !
أ «صالحٌ» في «ثمود» ما سمعتَ به ... أو «نـوح» في قومه أو «هود» في «عاد»
جاهد بربك ، أو جاهد بسيفك أو ... جاهـد ببـالـغ اخـوان وأولاد
والق المئـين بأعشـار ولا حرج ؛ ... قد يهزم الـنصر آلافـاً بآحـاد

ولم يقف وقد رأى تخاذل الاشراف في الجبال ؛ في « حجة » و « شهارة » و « صعـدة » موقـفـاً سلبياً بل قد التفت يحرض « اشراف » المخـلاف السليماني » على « المظفر » وعماله ؛ نعرف ذلك من قصائده في « الذرويّين » والأمراء من « آل غانم » وأشرافهم وما قاله في وقعة « حرض » التي دارت بين الشريف « القاسم بن علي » وعمال « الملك المظفر » .

شهـدتُ أبـا المنصور ، والله شاهد ... بما قلتـه والله أكـبر شاهـد
لما نقَمتْ أبنـا « سليمان » ثارهـا ، ... ولا جاهدت في الله ، لو لم تجاهدِ !
أتحت لأهل « الساعد » الموت بعدما ... غدت « حرض » رأساً وليس بساعدِ
وقد ظنّت «الأتراك» ان ليس مخرجاً ... إليهم وأن لا غزو من بعـد «خالد»
فوافـيـتـهـم في عصبـة « طيبيـةٍ » ... كرام اللحى عنـد التحـام الشـدائد
إذا أصـدروهـا كنت آخـر صادرٍ ، ... وان أوردوهـا كنـت أول وارد
وراحـوا و «أعـلاج المجوس» رؤوسهم ... وسـائـدهـا في الأرض شر الـوسـائـد

وهـو يقصـد بالـترك جيش الـرسـوليين الـذي كان يتكون من «الغُز » والعجم . وقد تذكر في هذه القصيدة أصدقاءه « الامام أحمد بن الحسين » و « الأمير أحمد بن عبد الله بن حمزة » وصاحب « حلى » « أحمد العقيلي » فقال مشيداً بذكراهم :

توهمـت في رقّـى لمن هو خالص ... أ «للقـاسم» الذرويّ أم «للأحامد»
خضـارم جودٍ خضرمٌ بعـد خضرمٍ ... عليّ ، ويكفي ماجـدٌ فقـد ماجدِ !

وكان « الأحامد » قد لحقوا بربهم ولهذا قال : « ويكفي ماجدٌ فقد ماجد » .

ومن قوله يحرض « الأمير القاسم بن علي » على مطاردة عمال المظفر عن « بيش » و « حرض » واجلائهم عن تهامة ويذكره بمن قتلوا من أهله :

يا « قاسم بن علي » دام لك الذي ... يكوي وينضج أكبد الحساد
يكفيك عن شرف الأوائل همةٌ ... شَهَرتكَ في الاغوار والانجاد
ألزمت نفسك خطة لم تتكل ... فيها على الآباء والأجداد !
لا تنس ما لقي «الحسين» وما جرى ... في «الطف» من ولد الدعي «زياد»
غدر اللئام بخالدٍ ، وبقاسمٍ ... وبغانمٍ ، ومحمد الصيّاد
هيهات ان ترد الكتائب جَهلتي ... « بَيْش » وأنت لهنّ بالمرصاد !
إياك تربيه « الاعاجم » مثلما ... ربّى أبو حسن شقي « مراد »
أعدمتهم « حرضاً » وما أجلاهم ... «المهدي» عن «حرضٍ» وآل «الهادي»
فكأنّهم بيتٌ بلا عَمَدٍ ، وهل ... بيتٌ يقوم لهم بغير عماد ؟

وكان داء الانقسام والتفرقة قد سرى أيضا إلى أشراف المخلاف ودبت عقارب المنافسة والصراع على السلطة كما دبت بين « أولاد الهادي » و « العياني » و « الحمزات » وسادات « الجبال » ؛ وكان شاعرنا يرى في « القاسم بن علي » الفتوة والمروة والنجدة ويخشى أن يصاب بالخور واليأس فيتغلب « المظفر » على أصقاعهم كما تغلب على « صعدة » و « حجة » و « ثلا » وغيرها فقال يثبته ويحثه على الصبر :

لا تجزعن لكون قومك أصبحوا ... فئتين بين أصادق وأعادي
واصبر فمرجعهم إليك وإنما ... تجري الشعاب إلى مسيل الوادي !

ولكن سيل القدر إذا هدر غيّر حتى مجاري الشعاب ، واكتسح مسيل الوادي ! ولذلك فقد طغى سلطان المظفر وعظم شأنه وسرعان ما دخلت امارة « المخلاف » تحت رايته وتحول حتى امراؤها الذين كانوا يحاربونه له عمالا وأعوانا سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وفي هذه الحال وبعد أن رأى « ابن هتيمل » الانتصارات المتتابعة لجيوش المظفر واستيلائها على معظم اليمن جنوباً وشمالاً ، ورأى أيضاً وسمع عن شجاعة واقدام وكرم « المظفر » ما يدعو إلى الاعجاب والاكبار ، كان لا بد أن يغيّر موقفه السياسي والوطني فبدأ من بعد سنة ٦٦٥هـ يراسل الملك ، ويتوسط بأصدقائه ، ومعاريفه في « زبيد » و « صنعاء » و « حجة » ، بأن

يرضى عنه ، ويغتفر زلاته ، ومحاربته له ، بلسانه وقلمه ، ويتوسل إليه بقصائده ، معتذراً تائبا ، وكان ما سبق ايراده في مستهل الحديث ، وانضم إليه وأصبح حاديا لركابه طيلة ثلاثين عاما .

ولكن هل نسي مبادئه ، وتنكر لزيديته ومودته لآل البيت حين انضم إلى البلاط المظفري ، وبايعه وأصبح من أنصاره ؟ لا .

لأن شعره يحدثنا بانه قد ظل وفيا لمبادئه ومشاعره واخلاصه لكل ذلك ، ولعله قد راجع نفسه وعرف ان إمامه زيد بن علي عليه السلام لم يقل بحصر الخلافة في « قريش » ، ولا في « آل علي » كما يدعي بعض الفقهاء من أتباعه ، وأكبر دليل على ذلك انه لم يتبرأ من إمامة الصديقين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وقال لمن طلبوا منه أن يعمل ذلك . . وإذا لم يعمل فسيخذلونه ويرفضونه : اذهبوا فأنتم « الرافضة » ؛ وإذاً فاذا كان « المظفر » مسلماً قوياً أميناً ولقد كان كذلك ، إلى أدب جمٍّ وعلم وشجاعة وكرم ، وحنكة ودهاء ، فلماذا لا يكون هو « الخليفة » للمسلمين ولدولة « العدل والتوحيد » ؟ وذلك هو كل ما يتطلبه « الزيدي » في « الشاعر » « ابن هتيمل » ؛ وأول قصائده التي أنشدها بين يديه مهنئاً بانتصاراته سنة ٦٦٦هـ تدلّ على ذلك وتشير إليه اذ قد قال وهو يطريه :

«مظفرٌ» ما أتَت من وقعة يده ... إلا مسوّمة الأظفار بالظفر
ترى المصانع والغيطان منه بشمسيّ ... العداوة ، ليليّ السرى ، نهريَ
لا يستريح ولا يفضي به سفرٌ ... من بُعد همته إلا إلى سفر
هديُ كهدي رسول الله ، متّبعٌ ... ما سار «آل رسول الله» في السيرَ
أحيي «التبابع» و «الأذواء» فاشتملَت ... «بالعدل» دولة «قحطان» على «مضر»

ثم يحرضه على الجهر بالخلافة الاسلامية ، ويعلن نفسه إماماً لها فيقول معرضاً بالعباسيين وخلفائهم « التتر » :

ان الخلافة قد آمت وقد عجزتْ ... عنها ملوك بني العباس والتتر
فانهض بقدرتها ، واعلم بأنك إن ... اهملتها كانت الاحدى من الكبر
وان طلبت مطاراً للتي عضلت ... فقد وجدت جناحاً طائراً فطر
هذا قميصك إما قدّ من قبل ... كابن النبي ، وإما قدّ من دبر !

وقد سبق أن أوردنا في اعتذاراته أبياته الرائية والتي صرح فيها بأن

« الهاشميين » من « عباسيين » و « علويّين » قد وهت دعائمهم عن تحمل أعباء الخلافة الاسلامية فقال يخاطبه :

أحامل أعباء « الخلافة » إذ وهت دعائم « عباسٍ » وأركان « حيدر »

وهو بهذا يوافق رأي « الصالحية » و « المطرفية » من الزيدية الذين يقولون بشيوع الرئاسة الاسلامية ؛ الخلافة أو الامامة ، بين القادرين الصالحين الأبرار المنتخبين من المسلمين ؛ دون نظر إلى عرق أو عنصر أو لون أو جنس ، ومع ذلك تظل عواطفهم نحو أهل البيت عواطف اجلال وودّ .

ولابن هتيمل وبعد اتصاله بالمظفر ، ويأسه من أحفاد الأئمة مواقف جليلة تصوّر مدى تمسكه بمودة آل الرسول ومن ذلك موقفه من أسر المظفر للامام ابن تاج الدين الذي سبق أن ذكرناه وأوردنا قصيدته الرائية والتي منها

فأسرته مستبسلاً وحفظته شرفاً بأفضل حوطة وجوار
وأخو الصبابة ما عليه غضاضة في الصبر ان لطمته ذات سوار
أحييته بالعفو ثم لقيته ببشاشةٍ وسكينة ووقار
ووهبته دمه بجاه « محمدٍ » ورضى « عليّ » و « جعفر الطيار »
ولو ان غيرك يا « مظفر » صاده لكساه ثوبي ذلةٍ وصغار

وقد بلغ قمّة الصدق والاخلاص في الولاء ، وقد تذكر لما رأى موقف المظفر الكريم ما فعله « الحواليّون » بأبن الامام الهادي حين أسروه ، وما صنعه « الصليحي » وما عمله « الأمويّون » و « العباسيون » بأسراهم من « العلويين » .

وهو في قصيدة أخرى يمجد احسانه إلى أسيره الامام فيقول :

وأنلت « ابراهيم » عفواً ما جرى من قبل عفوك في أسير عانى
وصفحت عنه وقد أساء ، ولم تزل تهب الاساءة للمسيء الجائي

وليس ذلك فحسب بل ويطلب منه العطف والاحسان ، وخفض الجناح لمن عارضه وخرج عليه من أولاد الامام عبد الله بن حمزة فيقول :

واعطف على «الحمزات» واعلم انهم أعوان صدقٍ أيّما أعوان
واخفض «لداوودٍ» جناحك، واغتفر ذنباً لمن زَلّتْ به القدمان
فالأمر يفسد ثم يصلح بعدما يأسٍ ، وقد يتناحر الصنوانِ

والقصيدة التي منها هذه الأبيات من غرر قصائد « ابن هتيمل » وقد خاطبه فيها وكأنه خليفة للمسلمين وليس ملكاً لليمن ومنها :

هل سرحة الوادي على عهدي بها ... مخضرّة الأفنان والأغصان ؟
وهل النسيم الرطب يحمل ذيله ... نفحات ذاك الشيح والحوذانِ ؟
وذوائب الأثلات ترقص إن هفت ... مرضى الرياح بها على الغدران ؟
وأنا الفداء لمرهفٍ متعنّت ... نسخ الوصال بآية الهجران
صنم من الأصنام يعسل عطفه ... في المشي ؛ في غصنٍ من الأغصان
أكرمتُه فأهانني ، وحفظته ... فأضاعني ، وأطعتُه فعصاني

وفيها يخاطب المظفر بقوله :

ياشمس ؛ يامَلك البرية ، يا أبا المنصور ، ياذا الحسن والإحسان .
أصبحتَ للاسلام ركنا ثابتاً ، ... والبيت مبنيٌّ على الأركان
وكسوتَ بيتَ الله أشرف كسوةٍ ... نُشِرَت عليه ، وكان كالعريان
وبثثت في الحرمين من صدقاتك الحسنات ما يغنى عن الحرمان
وصنعت في « عثمان » خير صنيعةٍ ... لما أتاك « المصحفُ العثماني »
توجّت رأسك منه حين لقيته ... تاجاً يُشرّف سائر التيجان

وتدفعه عاطفة الود والولاء في الله ، أن يضم إلى هذه المكارم احسانه إلى الامام ابراهيم فيقول : « وأنلتَ ابراهيم الخ » ثم : « واعطف على « الحمزات » الخ . وقال في قصيدة أخرى يستعطفه لهم :

يايوسف الحسن والاحسان والشرف العلوي ، والحلم والاقدام والمنن
إذا أطاعتك في أقصى ممالكها ... «بنو الحسين» فعفواً عن « بني الحسن»!

لقد كان مخلصاً في زيديته ، يودّ آل بيت نبيه مودّةً في الله ؛ لا تقديس فيها لأوهام ، ولا خوف من طغيان ، ولا طمع في جاه أو مال ، وهذا هو المعنى الكريم لقوله تعالى : ﴿**قل لا أسألكم عليهِ أجراً إلّا المودّة في القُربى**﴾ .

مراثي إبن هتيمل

١ ـ بكاؤه على زوجته

وذلك الولاء الذي لا تملّق فيه ، وهذا الولاء المحض النابع عن عقيدة واستبصار ، لو أردنا أن نتعرَّفَ به ، ونستنتج منه فنقف على « مفتاح » شخصيّة أكبر شعراء العرب في القرن السابع الهجري القاسم بن علي ابن هتيمل لقلنا إنه « الوفاء » .

لقد شب وشاب وعاش وفياً لمذهبه ومبدأه ، ولأهله وأصدقائه ، ومن عاشرهم وأكرموه ، وعرفهم من ملوك وأمراء وعلماء عصره ، وهذا هو السر وراء المراثي الكثيرة التي يطفح ديوانه بدموعها وحسراتها ، ويضج بعويلها وأناتها ، وإذا كان قد قال قائل قديم ان مراثيه لمن مدحهم من خصاله التي لا تحمد ، وانه كان شؤما على من يمدحهم لأنه ما مدح أحداً إلا ورثاه ؛ فنحن نعتبر ذلك افراطاً في التشاؤم من ذلك القائل ، ونعد تفرّد « ابن هتيمل » بتلك الصفة بين الشعراء الكبار من أكرم صفاته ، وأفضل مواهبه ، فهو لا ينسى فضل صاحب الفضل عليه ، ولا صداقة من عرفه وصافاه بمجّرد ان يواريه التراب ، أو يستقيل أو يقال من منصبه ، وليس من المنافقين الغادرين الذين يعمدون إلى هجاء وذم وشتيمة من مدحهم بالأمس ، وقد كتب الله له طول العمر ، وكتب عليه أن يرى أصدقاءه من ملوك وامراء وزملاء وأهل يتصرّعون واحداً اثر واحد ، وهو يودّعهم بأشعاره ودموع ذكرياته ودعواته ، وحسراته وصلواته ، وما إن جاوز التسعين إلا ولسان حالة ينشد :

ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

ومراثيه كسائر شعره قوة سبك ، وحسن أداء وصفاء ديباجة ، وكما كان يجيد النسيب والغزل والوصف والمديح فقد أجاد أيّما إجادة في مراثيه ، وكلها ينفح منها عبير « الوفاء » ، ويتضوّع عطر نسيم الولاء ، ولم يكن قول القائل القديم « انه ما مدح شخصا إلا رثاه ولا أطرى أميراً إلا بكاه » من صفاته الذميمة ، بل من خصاله الحميدة .

ولن نقف ـ ولو مقدار مضمضةٍ ـ حسب تعبيره في احدى وقفاته الشعرية مع كل مراثيه وقد أثبت بعضها ناشر ومختصر ديوانه ، ولكنا سنقف وقفة

قصيرة مع بعض مراثيه في زوجته وأولاده واخوانه وأشقائه ففيها لوعة صادقة ، ومن بعضها سنعرف كم كان برّاً بأهله صادق الحب لهم ، وسنعرف أيضاً ان قصائده الغزلية لم يقلها في « علوة » أو « ليلى » أو « هند » أو امرأة تخيّلها ، أو حاول تصيّدها ، أو عمد إلى التشبيب بها كما كان يفعل الكثير من شعراء العرب ؛ ولكنه قد قال كل ذلك في زوجته وشريكة حياته وأم أولاده « فاطمة بنت عبد الله » التي لا شك انه قد أحبها أعمق الحب وأصدقه وأنها أيضاً بادلته الهوى وغمرته بالحنان والسعادة ، وكل ذلك نلمسه في مراثيه لها التي أثبت بعضها ناشر ديوانه ومختصره . وهو في احداها ـ ولعلها أول مراثيه لها ـ يقول :

يعزّ عليّ أن عظم المصابُ ... ولا صبرٌ لديّ ولا احتسابُ
فتَخْسر صفحتي دنيا واخرى ؛ ... فلا ذات الوشاح ولا الثوابُ
عرفت النائبات ؛ وكل حين ... اعاتبها ، وما نفع العتابُ !
إذا استفتحتها للخير باباً ، ... تعرض دونه للشر باب ؛
يئوب الغائبون ، وكل ميت ... يشيّع ما لغيبته إياب

وهو بالبيت الخامس قد نظم المقولة الدائرة على ألسنة اليمنيين رجالاً ونساءً « كل غائب يعود إلا غائب القبر واللحود » في قالب يسهل حفظه والترنم به في موكب « العزاء » و « التأبين » ثم قال :

بنفسي عصر يوم السبت نعش ... تداوله المناكب والرقاب
تسلّ إلى الحفيرة منه شمس ... تبلج في جوانحها شهابُ !
من الخفرات يخفى الليل منها ... إذا ما جن مالا يُستراب

وهو لصدقه ولوعته ، وشرعية حبه ، بعد أن وصف جمالها وحسنها وخفرها وعفتها ، لا يتحاشى أن يقول إنها كانت له أنساً ومتعة ؛ شتاءً وصيفا :

ففي الوقَدات « كانونٌ » إذا ما ... لهوت بها ، وفي الشتوات « آب »
تكفّن في الثياب فليت جلدي ... لها كفن ، وليت دمي خضاب
فان أبكى فما وجد كوجدي ... وما كمصاب « فاطمة » مصابُ

ولنستمع إليه يناجيها بهذا الخطاب الحزين الباكي

أهاب عليك عادية الليالي ... ولا أخشى عليّ ولا أهاب

يجدّد قبرك المعهود حزني ... مطاولة ، ومنزلك الخراب
وعزّ علي أن أمسى وبيني ... وبينك من سوى الدنيا حجاب
أحيي بالسلام ؛ فلا أحيّا ، ... وأعلن بالكلام فلا أجاب !
وما بيني وبينك قاب قوسٍ ... وأقرب ما يكون القرب قاب !
ولو اني قتلت عليك نفسي ... لكان خطاي في الفعل الصواب
ولو أديت حقك ما حلا لي ... لفرقتك الطعام ولا الشراب !
أوسّدك التراب وكنت أخشى ... عليك بأن يدنسك التراب ؟
واسمح للبلا بجمال وجه ... يؤثّر في محاسنه النقاب ؟
فما فعل الثرى ويد الليالي ... بجسم كان تؤلمه الثياب ؟
وما فعلت محاجرك السواجي ؟ ... وما فعلت ثناياك العذاب ؟
وما فعل الصبا الغضّ المُباهي ... بزهرته ؟ وما فعل الشباب ؟

نعم لقد تدله وأصبح بعدها كالمجنون وها هو يتخيل ان نساء الحي سيتطلعن إلى مجاذبته حبال الهوى ، وكأنه قد تصوّر انها في قبرها تتخيل ذلك فقال يطمئنها ، ويعزي نفسه :

تجاذبني النساء حبال ودٍ وهيهات المودة والجذاب
فما عوض عن « البيض » الدآدي ، ولا خلف عن الماء السراب !

و « البيض » من الليالي هي المقمرة ، و «الدآدي» هي الليالي الشديدة الظلمة

يهوّن لوعتي أنِ لا حساب عليك من الآله ولا عقابُ
سقاك الرّفه بعد الرّفه حتى يمج ثراك ، دمعي والسحابُ

ومن مراثيه لها قصيدة ميمية طويلة ، وقد لقبها فيها بأم « حمزة » و « أم المعزبي » وكأنهما من أولاده منها . وهي من الشعر الفخم الجزل الألفاظ والتراكيب ، البدويّ التصوير والخيال ، الغريب التعابير والتشابيه ومنها :

على مثل من ودّعته ووساده على المضجع الأرضي كفّ ومعصمُ
ومن غصبته النائبات ، وسآءني بفرقته يومٌ من السوء أيومُ
أحنّ حنين الهيم ذاد خماسها عن الواردات العبقري الغشمشمُ

ونستطيع أن نتصور عرامة لهفته على زوجته « فاطمة » ، وتدله حنينه إليها بل وجنونه ، حين نعرف ان « الهيم » هي « الابل » العطاش ، و « الخوامس » منها تلك التي تظل ترعى ثلاثة أيام دون ورود بعد شربها الأول ؛ ثم ترد الماء في اليوم الخامس وهي تتسعّر عطشاً وحنيناً إلى الماء وإذا بذلك الشديد القوي الجبار « العبقري الغشمشم » يذودها عن الماء ويطردها ولا يسمح لها بالورود مع الواردات ؛ انها صورة شعرية رهيبة للحنين الفتاك .

وبعد أن يعزّى نفسه بأن « خديجة » الكبرى و « فاطمة » البتول و « أم الحسين » ، و « مريم » قد أدركهنّ الحمام كما أدرك زوجته « أم حمزة » يقول :

كأنيّ و « أم المعزبي » تقاصرا على صفتينا «مالك» و «متممُ» !

وهو بذلك يتذكر أعظم حزن عرفه الشعر العربي بكى به انسان على آخر حتى ضربت به الأمثال ، حزن « متمم » ابن « نويرة » على أخيه « مالك » وقصتهما مشهورة ! ويصوّر كيف يبيت قلقاً وحيداً وكأنه يضاجع حية

رقطاء ، ويتذكر بعض مواقفه معها وقصة حدثت لهما مع «منجّم » زعم بأن عمرها سيطول ، ويتمنى لو انه كان « الميت الأرمل » وكانت هي « الايّم » الحية ، فيقول في لوعة وأسى :

أبيت على جنب الفراش كانني ... ضجيعي من بعد المليحة أرقم
أتاركتي فرداً بدون قرينةٍ ... وما كل موجود القرينةِ توأمُ !
تندّمت فيما كان من عجرفيةٍ ... عليك ؛ فما أغنى علي التندّم ؛
واطمعني فيك « المنجم برهةً ... وأكذب شيء ما يقول « المنجّم »
فمن لي اني في مكانك « أرملٌ » ... وانك مني في مكاني « أيّم »
ومن ضعف حظي انني متأخرٌ ... فيا بردها لو انني المتقدم !

وبعد ذلك يتحدث عن حياته بعدها ، وانه لا يمكن ان يقترن بأخرى ، وزيارته لها يومياً ، ولعله لم ينشىء هذه القصيدة إلا بعد سنوات من وفاتها

أهابكِ حتى ان كل محللٍ ... عليّ - على ما تعهدين محرّم !
كأنك كنت الماء ما حلّ بعده ... على المرء في المفروض إلا التيمّمُ
وحسبك اني حول قبرك كلما ... هفتْ كبدي ؛ مستغفرٌ مترحم

ثم يبدع صورتين لحزنه وفقدانه من تلك الصور الشعرية التي لا يهتدي إليها ويتخيلها إلّا فحول الشعراء وتعوّدنا أن نتلقاها عن شعراء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام فيقول :

وما مُعْفِرٌ عصماء في مستقرها ... من النَيق مجدولُ الشوامتِ أعصمُ
يكفّ الضواري عنه أعسرُ شاهقٌ ... ويحجب عنه الشمس أعيطُ أيهمُ
مشى تحته الموت الوحي بمعْظمٍ ... حبالته للصيد قوسٌ وأسهم
فأصعد في الشمراخ معتصماً به ... ولا شيء - إن لم يعصم الله - يعصم
فطار له عن قلب زوراء مشقص ... من الزّرق ممهوّ الجوانب مخذم
فخرّ كأن النضح مما يصبّه ... على الأمعز الّلابيّ حُصٌّ وعندم
وما أم فردٍ لم تزل في صلاتها ... تضرّع في إنشائه ، وتهينمُ
أناف على العشرين وهي لحبه ... تعوّذه خوف الردى وتتمتم
فدبّ له تحت الثري متغضنٍ ... من الرقش منفوش الظهارة أعرمُ
بأكثر مني لوعة وصبابةً ... عليك ، ولكني أسرّ وأكتم !

والعُفْرُ من الظباء : ما يعلو بياضه حمره ؛ الذكر أعفر ، والأنثى عفراء والعصماء والأعصم منهن : ما في ذراعيه أو أحدهما بياض . والنّيق : أرفع موضع في الجبل والأعيط : المنيف الممتنع ، والأيهم : الجبل الصّعب ، والموت الوحي ، العَجِل المسرع ، والشمراخ : رأس الجبل . والزوراء : القوس ، والمشقص : نصل عريض ، أو سهم فيه ذلك يُرمى به الوحش ، والممهو : من أمهى الحديدة : احدّها وسقاها . والمخذم : القاطع . والأمعز والمعزاء : الأرض الغليظة ذات الحجار ، والمكان الكثير الحصى الصلب . واللابي : الأسود الغليظ نسبه إلى اللّابة وهي الحرة ذات الحجارة السود . والحُصّ بالضم : الورس يصبغ به ، والزعفران واللؤلؤ . والعندم : شجر أحمر ويسمى « دم الأخوين » . والظهارة : نقيض البطانة .

واذن ؛ فحنينه إلى « فاطمة » زوجته أشد لهفة من حنين الهيم الخوامس إلى الماء وقد ذيدت وطردت عنه ولم يسمح لها بالورود !

ولوعته وصبابته عليها أشد وانكى من لوعة العصماء ذات الطِّلاء حين ترى أليفها ، وشريكها في مستقرها الحصين « الظبي » الأعصم ، وقد طارده الصياد النهّم ، الضامر البطن البادي العِظام ؛ فأصعد في رأس الجبل يتحاشى حبالة القناص ، ويفر من قوسه وسهامه ومشقصه ، وإذابه يخر صريعاً ينضح دمه على حصى الأرض الغليظة فيصبغها بلونه الأرجواني . وهي وطلائها لا تملك غير الجزع والحنين والرعب .

بل ان حزنه عليها ، وكمده بعد موتها ، أنكى وأوجع من كمد وحزن « الأم » التي ما فتئت تربي وحيدها مخلصة في تنشئته تتضرع في صلواتها وتهينم بدعواتها وتعوّذه من خوف الردى بالتمائم وما إن ازدهر شبابه وأوعد ، وأناف على العشرين حتى دبت إليه من تحت التراب حية رقطاء بشعة ونفثت في تاموره سمها المميت .

يالها من صورة فذّة أبدعتها ريشة خيال صناع في اطار بديع . وقوله في البائية :

تسلّ إلى الحفيرة منه شمسٌ تبلّج في جوانحها شهاب

يوحي بأن « فاطمة » ماتت وهي « حُبلى » فيالها من فاجعة وله فيها قصائد أخرى ولعله ظل وفيا لذكراها حتى مات وقد جاوز التسعين .

٢ ـ بكاؤه على إخوته

وقد عاش ابن هُتيمل مرزَّءاً يفقد خيار أصدقائه وأحبابه فقبل أن يصاب بفقد شريكة حياته قد رزىء بفقد أخ وأخت له ماتا في أسبوع واحد وهما في عنفوان الشباب فبكاهما أوجع البكاء ومما قاله في رثائه لهما :

قصارى المرء ردّ المستعار ، وسائلة الحياة إلى قرار
ولسنا بالخيار على الليالي ولكن الليالي بالخيار
فلا يأمن عثار الدهر حيٌّ فليس الدهر مأمون العثار

إلى أن قال :

بنفسي ؛ أنفس غصبَت جهاراً لأمر دق عن غصب الجهار !
ولو طلبت بحكم الحرب عادت بحرب دونها حرب الفجار
فأي أخ أشمّ ، وأي أخت رزيتُ ، وأي ضارية وضاري ؟
وأية جارةٍ ، ومناخ ركب ونجعة مرملين ؟ وأيّ جار !
غلام ليس كالغلمان مجداً ؛ وجارية ، وليست كالجواري
متى ترى بيتهم تشبع ؛ ومهما ضربت بهم ؛ ضربت بذي الفقار
فأيهما على الخلوات أبكي ؟ أبدر التم ، أم شمس النهار ؟
مضتْ ، ما ابيَضّتِ الضّفرات منها ومات ، وما بدا شعر العذار !
فياربَّ العمامةِ : كنْت تكفي من الحسرات عن ذات الخمار ؛
ويا عفّ الازار ؛ لقد رزينا على الأسبوع : طاهرة الازار

ثم يقول :

أكفّكَ بالقناة أشف حسناً بها أم كف أختك في السوار ؟
وخدكَ بالطلاقة كان أبهى سنىً ؛ أم خدها كالجلّنار ؟
رأيتكما أرق على اليتامى وأرأف في التحنّن من صوار
وأحفظ للحقوق إذا أضيعَتْ لذي القربى ، وأرعى للجوار ؛
إذا حُجب الدخان عن الموالي واجهضت الأجنة للقتار

ومن هذه الأبيات نستشف البيئة التي كانت تحيط بعائلة « ابن هتيمل » وأسرته ، فهي بيئة مكارم الأخلاق ، من شجاعةٍ وكرم ، وعفةٍ ورأفة باليتامى وحفظ للحقوق ، ورعاية للجوار ، وهو في مرثاته لأخيه الأكبر « خليفة بن علي ابن هُتيمل » كأنما يرثي أحد اقيال اليمن ، أو سلطانا من سلاطين العرب وقد افتتحها بقوله :

ما شاء بعدك فليأتي به الزمن ... فلا السرور يوازيني ولا الحزن
لِمن أضنّ بعمري ؟ لا تعرض لي ... بمثل يومك لا عِينٌ ولا وطن ؟!
كان الذي خاف أهل الأرض فيك بذيالدنيا ؛ فيا قرب ما خافوا وما أمنوا !
مصيبة ؛ لو أصاب «الطُّور» أو «حَضَنا» ... معشارها لتداعى «الطُّور » أو «حضنُ»!
ما خصّ يومك حياً ؛ إنما رزئت ... على العموم به «قحطان» و «اليمن»
لو قاضك الدهر منا بالحياة وبالأحياء ... كان عليه الغبن والغَبَن
قد كنت للدين روحاً يستقل بها ... في أهله فتولى الروح والبدن
ما هكذا محن الدنيا التي سلفت ... من قبل فالناس قد تُبْلى وتمتحنُ
هل تعلم الأرض من وارت ومن ضمنت ... أحشاؤها ، ودرى من ضمه الكفن ؟
لبث على مهج الأعداء متهمٌ ، ... يوم الوغى ، وعلى الجارات مؤتمن ،
يوماه حسبك من بأس ومن كرم ... إذا الرجال دهاها البخل والجبنُ
ملازم الصمت ؛ لا عيّ ولا حصرٌ ، ... وإن تكلّم فهو المصقع اللسن

وبعد هذا التفخيم والتعظيم والاطراء بأفضل ما يُطرَى به ذوو الفضل والدين والزعامة ومكارم الأخلاق يعود فيتحدث عن فجيعته في أخيه الأكبر الذي لا يبالي بعد ذهابه بما يأتي به الزمن والذي وقد اختطفته المنية ، وكان ما كان يخاف منه الناس ، فلا يوجد من يضن له بروحه ، أو يتمنى البقاء من أجله . والشاعر لا شك يعلم أنه قد أختار الوزن والقافية اللّتين نظم بهما « المتنبي » قصيدته المشهورة :

بما التعلل ؛ لا أهلٌ ولا وطن ... ولا نديم ولا كأسٌ ولا سكن ؟
أريد من زمني ذا أن يبلّغني ... ما ليس يبلغه من نفسه الزمنُ

فعليه ان يحتاط ، وان يحترس من العثار ، وهو يجاري أكبر شعراء العربية والاسلام . والحق أنه قد استطاع ان يحتفظ بتوازنه البياني والفنّي ، وقل أن يطيق ذلك من يحاول مجاراة « المتنبي » أو معارضته من المتقدمين والمتأخرين .

ألم يبدع حين قال فيها :

آسى عليك ومالى يا « خليفة » لا ... آسى وقد صدقتني بعدك الفتنُ ؟
هيهات مُكث الليالي أن تنابذني ... حربَ الخطوب ؛ وكانت بيننا هدن
تغيّرت بهجة الأيام وانتقض العهد الوثيق ، وحال الحي والسكن ،
فالأقرب الأقرب الأرحام تَصرف نابَاهُ عليّ ، وجار الجنب مضطغنُ ؟
بمن أذود الأعادي كلما كلحت ... تحت العجاج رماك الخيل والحصنُ ؟
ومن أحمّل أعباء العشيرة إن ... لم يحمل الزمن ، المعذورُ والزَّمِنُ ؟

لقد تقمص روح « المتنبي » وفي لفحة هذا البيان شواظ من ناره ، وقبس من شعاعه ، بل ونفحة من نفحات أسراره . والقصيدة طويلة وقد اختتمها بقوله وأجاد ايما أجادة :

لي في المقابر أشجان إذا ذكرت ... عندي ، فقبرك لي من بينها شجن
وما حياةٌ - لمثلي - غير صالحة ... أُهان بين أهاليها وأُمتَهَن ؟
ما أنصفتك العيون الباكيات فلو ... أنصفن ما جال في أجفانها الوسنُ ؛
تلك المنازل أطلالٌ وما سلخت ... شهراً ؛ وتلك وفيها أهلها دمنُ
أمّا وقد قادك الموت الذي يده ... لكل آب أبيٍّ جامح رَسَنُ
فاذهب حميداً ؛ وإن أصبحت مرتهناً ... فرداً ؛ فكلٌّ بما لاقيت مرتهن

٣ - بكاؤه على أولاده

يقول ناشر ديوانه ومختصره : إن ابن هتيمل قد رزق بعدة أولاد وان أحدهم ويسمى « سلطان » قد توفى وهو في ميعة الصبا فرثاه بقصيدة أولها

أتسمعني فداك أبي وأمي ... من الأسواء ؛ لا خالي وعمي
سأشرح بعض ما القى وأشكو ... مصائب قضتها فرجاً بغم
وأنت أجل يا سلطان قدراً ... وأشهر أن أكنّي أو أسمي
رزنتك غير مكتمل هلالاً ... لضعف رزينة القمر الأتم
فوا أسفا لبدر بعد بدر ... أصاب به ونجم بعد نجم
تعالجنا بصولتها المنايا ... فتخترم الأهم عن الأهم

وان ولـدين من أولاده قتلا على يد شخصين يدعى أحدهما « مقداد » والآخر « عمار » وانه قد رثاهما بقصيدة عامرة يقول فيها

من لي ومـن لبـنيَّ الـذاهبـين على	رغمي بقتلة « مقـداد » و « عمار »

ولا ندري كيف عرف « مختصر » الديوان أن من قتل على يد « مقداد » و « عمار » من أولاد الشاعر كانا اثنين ! مع إنه يقول « لبنيّ الذَّاهبين » فلعلّهم أكثر من اثنين ؛ وقد تعمد المختصر حذف ما قاله الشاعر فيهم لسبب لا نعلمه والبيت المذكور ليس من قصيدة عامرة رثى بها ولديه القتيلين كما توهم ، بل هو من قصيدة طويلة مدح بها الرسول الكريم سيدنا محمدا صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومطلعها :

لولا محبـة أهـل الـدّار والـدارِ ما	غاض صبري وجـفـني ماؤه جاري !

ويظهـر انه قالها وهو يعاني وَهَن الشيخوخة وأنها من آخر ما قال ومنها يخاطب الرسول الكريم :

اني رجـوتـك والأيـامِ قد نحلت	عودي وأثقـل ظهـري حمل أوزاري
بدّلـت من قوتي ضعفـاً ومسكنـة	والمـرء يخلق طوراً بعـد أطـورِ ،
من لي ومـن لبـنيّ الـذاهبـين على	رغمي بقتلة «مقـدادٍ» و «عـمار» ؟
لي اسوةٍ في «علي» و «الحسين» وفي	ثارِ لحمزة ، ان لم يقض لي ثاري !
فوضـتُ أمـري إلى الله المهيمن في	حل وعـقـدٍ ، وايـرادٍ واصـدار
ومـا استجـرت بغـير الله منـه ولا	استغفـرت للذنب إلاّ خير غفّـارِ
ومـا مدحتـك إلاّ للشفـاعـة في	قومـي غداً ؛ لا لدينـار وقنـطار
ما ينشـد المنشـد المثنى عليـك وقد	أثنى الآلـه بما يقـرى به القـاري

إذا مُدِحتَ بآيات الكتاب وفي التوراة ؛ ماذا عسـى سجعـي وأشعـاري ؟

وأما ما قاله في ابنه « سلطان » فلم يذكر من القصيدة مختصر الديوان إلا تسعة أبيات ومنها :

رزئـتـك غير مكـتـمـل هلالاً	لضِعـف رزيـة الـقـمـر الأتم !
يقـول النـاس روحـك غير روحي	لجهلهم ، وجسمك غير جسمي ،
أمـا علمـوا بأنـك من حيـاتي	ومـن موتي ومـن بدني ولحـمـي ؟
فوا أسـفـا أبـدرٌ بعـد بدرٍ	أصـاب به ونجـم بعـد نجـم ؟
تعـالجنـا بصـولتـهـا المنـايـا	فتـخـترم الأهـم على الأهـم

ديوانه واختلاف نُسخه

« ابن هتيمل » هو شاهد القرن السابع الهجري وشاعره ، وقد شاهد ميلاد الدولة الرسولية وعاصر أكبر ملوكها « المظفر » ، كما عاصر وجالس وصادق وخاصم ، وعادى وصافى معظم سلاطين وأمراء وأئمة ذلك القرن في « اليمن » و« الحجاز » وسجّل في قصائده التي مدحهم أو رثاهم بها أخبارهم ووقائعهم والأحداث التي عاشها وشاهدها وخاضها معهم ، وكان كما قلنا شغوفاً بتسجيل الأحداث وأسماء الرجال والأماكن في شعره وبأسلوب فنيٍّ لا يخل بالنسق البياني ، وهو ما لا يتقنه ويجيده إلا فحول الشعراء .

فديوانه يُعد بحق وثيقة تاريخية تستحق العناية من قبل المؤرخين والجغرافيين مثلما يستحق اهتمام الأدباء والنقّاد وأرباب البلاغة ، وقد جُمع ديوانه في حياته وتداوله الناس في اليمن والحجاز ، بل وذهبت بعض قصائده شرقاً وغرباً وشمالا فتدارسوها في بغداد ومصر والشام . ولأن عمره طال فلا شك ان نسخه متفاوتة بما كان يضيفه إلى الديوان مما يجدّ من شعره ، ولذلك يوجد في بعض النسخ ما لا يوجد في الأخريات وكنت أمتلك نسخة ضاعت بين ما ضاع من كتبي حين انتهبَتِ القبائل « صنعاء » سنة ١٣٦٧هـ /١٩٤٨ م اثر فشل « ثورة الدستور » .

ويقول الاستاذ محمد العقيلي الذي اختصر ديوانه ومحقه ! لما نشره عام ١٣٨١هـ /١٩٦١ م انه اعتمد على نسختين احداهما نسخة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز آل عقيل ، وأخرى مصورة من نسخة في معهد المخطوطات بمكتبة الجامعة العربية ، وقال ان ثمة نسخة ثالثة في نفس المعهد ، ورابعة في مكتبة الشيخ محمد سرور الصبّان بجدة يومئذٍ .

ثم قال : « انه توجد منه نسخ أخرى متفرقة في مكتبات العالم » . وياليته اهتم بنشره كاملاً دون اختصار ، أو استبعاد ما لا يتفق مع ذوقه ، أو مذهبه واهتم بشرح ما أشار إليه من وقائع وأحداث ، وعرّف بأعلامه والقبائل والأماكن التي ذكرها ، وحقق وضبط نصوصه ، وزاد على النسخة التي اعتمد عليها ما أثبتته النسخ الأخرى ، فان ثروة الديوان التاريخية والجغرافية والسياسية لا تقل أهمية ونفعاً عن ثروته اللغوية والبيانية والفنية ، نسأل الله العون لمن يجد الرغبة والقدرة على القيام بذلك .

نماذج من شعره :

ومما حفظته من شعره قوله :

فقل للنفس إن طمعت جماحاً : تمادي في الغواية ثم توبي
ولا تستشعري أبداً قنوطاً فان الله غفّار الذنوب

وقوله :

العمر عاريةٌ فاغنم سرورك ما دام السرور له دولٌ على الحزنِ
تمضي الحياة كأن لم يكس لابسها عن بزّة المهدِ إلا بزّة الكفن !

ومما سار من شعره وغنّي به في المجالس قوله من قصيدة :

قم فبادر بها صياح الدجاج واسقنيها صرفاً بغير مزاج
وأدرها ؛ كأنما القدح الدائر ملآن من نجيع الشجاج
بنت كرم تسعى بها بنت عشرٍ لم تعالج بالماء أي علاج !
صبغت زرقة الزجاج إلى أنْ صار لون السّلاف لون الزجاج

وله من قصيدة :

أحلا الحياة، وأحلا العيش ما بكرت فيه الكؤوس على شرب وجلاس
من كف أغيد في خدّيه مزهرة من حمرة الورد أو من خضرة الآس
يرتج حقف النقا من تحت مئزرة عن قد أملد كالخرعوب مياس

ومن لطائفه قصيدة على وزنٍ « حميني » مُعرب ، وهي تدل على انه قد مارس هذا النوع الخاص بأهل اليمن : « الحميني » قبل « ابن فليتَه » ، ومن يدري لعل له فيه ديواناً خاصاً لا يزال بين الموؤدات فهذه القطعة الغنائية تدل على ذلك :

يا مُلبسيي ثوب الغرام وسالبي . . . بالحسن قلبي :
خلّ سلبي .
ما قلتَ قولاً لم أطعه ، وهل دعوت . . . فلم ألبِّ
دون صحبي ؟
ما الفرق أنك لم تحلّل نهبهم . . . وابحتَ نهبي ؟
« أيش » ذنبي ؟

أنا من وعيدك والوعود احيص في . . . صدق وكذب . . .
فاحتفظ بي .
الله حسبك في الذي زخرفت من . . . ملقٍ وعتب !
وهو حسبي .
بالثّغر ، بالشعر الأثيت اللدن بالْـ . . . خصرِ الأقبِّ ،
لم شعبي .
وأرح عليّ ؛ فمما اصطفيت من الزمان . . . ليوم كربي
غير حبي
أوصيك ياريح الجنوب إذا قضيتُ . . . الآن نحبى
لا تهبى .
لا تنفضي عذب البشام على غديرٍ . . . غير عذب
فيه قلبي .

وبهذه النماذج ، وبما سبق أن سجلناه من قصائده نكتفي ؛ ولم يحدثنا أحد ممن تعرض لذكر ابن هتيمل في أي عام توفى ، ولا في أي مكان . ولكن لأنه قد مدح الملك « الأشرف » ابن « المظفر » ولم يمدح خلفه ونحن نعلم ان « الأشرف » توفى عام ٦٩٦هـ فلعله توفي في نفس العام أو في الذي يليه وقد بلغ من العمر عتيا ، ونرجح انه وُسِّدَ في مقبرة أشجانه حيث وَسَّدَ جثمان زوجته « فاطمة » ، ومن فقدهم وبكاهم من « أولاده » واخوانه وأهله في مكانٍ ما ، بالمخلاف السليماني والله أعلم .

٨٧ ـ القاسم بن علي الذروي

الأمير الحلاحل قاسم بن علي بن محمد ينتسب إلى ذروة بن يحيى من ولد موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . كان أميراً على « صَبْيا » أيام الأيوبيين والرسوليين وشهر بالشجاعة والكرم والأدب وله شعر حسن ، وقد نشبت بينه وبين الغزّ والرسوليين عدّة معارك ، واستولى على « حرض » ووسع مساحة امارته في تهامة ، ثم استعادها الرسوليّون ، وما فتئت المعارك بينه وبينهم قائمة حتى وقع في أسر « المظفر » وزج به في السجن بتعز مدّة ثم أطلق سراحه وعاد إلى وطنه حيث كانت الفتن قائمة على ساق وقد قتل في احدى معاركها . وللشاعر الكبير ابن هتيمل فيه عدّة قصائد مدح ، ورثاه بعدّة قصائد ، كما أنه سجل الكثير

من غزواته ووقعاته مع الرسوليين وله معه حكايات ظريفة .

وقد حيكت حول كرمه وشجاعته وسجنه ومقتله أقاصيص تداولتها الألسن ، ومنها ما هو أشبه بالأساطير ومن ألطف ما يروى حين يتناشدون بائيته المشهورة ، ويتحدّثون عن قصة سجنه واطلاقه ، ان الملك المظفر لمّا سجنه في قلعة تعز قال له ـ وقد جرّه إلى السجن بنفسه ـ « لن تخرج من سجني حتى يلتئم هذا الصدع الذي في الحجر وأشار إلى حجر هنالك كان مصدوعاً ، يريد بذلك أن يُيئسَه من الفكاك على نحو قوله تعالى : ﴿**حتى يلجَ الجملُ في سم الخياط**﴾ ؛ قالوا فلبث مدّة ملتفتاً إلى الله سبحانه داعياً متضرعاً وأنشأ قصيدة فأصبح صدع الحجر ملتئما ، وكتب إلى المظفر يخبره : ها قد التأم صدع الحجر فهلاّ التأم صدع غضبك علي ؟ ، وجاء المظفر إلى السجن وشاهد التئام صدع الحجر فاندهش وقال اطلق سراحك إكراماً لجدّك ﷺ والقصيدة التي يقولون انها سجلت كرامة التئام الحجر طويلة ، رقيقة المعاني ، جيدة السبك ، وأهل اليمن يترنمون بها في مقايلهم ومطلعها :

من لصبّ هاجه نشر الصَّبا ... لم يزده البين إلاّ نَصَبا ؟
وأسير كلما لاح له ... بارقُ القِبْلةِ من « صَبْيا » صَبا !
ولطرفٍ أرقٍ إنسانه ... دون من يشتاقه قد حجبا
لم يزل يشتاق « نخلان » وإن ... قدم العهد ويهوى « الطّنبا »
ما جرى ذكر المغاني في رُبا ... « صبرات الشط » إلاّ انتحبا
حبذا صلب « القعيشا » وطني ... ولُيَيْلات بها ما أطيبا !
وربا « النيرين » من قبليهما ... وزلال بهما ما أعذبا !
يا أخلاّئي « بِصَبْيا » واللوى ... وأحبائي بتيّاك الربا
هل لنا نحوكم من عودةٍ ... ونرى سدركم والكثبا ؟
فلكم حاولت قلبي جاهداً ... يتسلّى عن هواكم فأبى
فاذكروا صباً بكم ذا لوعةٍ ... بان عنكم كارهاً مغتصبا !
وإذا ما سجعت قمرية ... صاح من فرط الأسى واحربا !
هائم القلب كئيبٌ دنفٌ ... لم ير السلوان عنكم مذهبا ؛
ونرى الحيّ الذي كنا وهم ... جيرة بالشام أيام الصِّبا
ليت شعري بعدنا هل طنّبوا ... بربا « نخلان » بعدي طنبا ؟

أو تناءت دارنا عن دارهم ... أو سبتهم بعدنا أيدي سبا ؟
عجباً للدهر ماذا سنّه ... ولاحداث الليالي عجبا !؟
ما طلبت السهل إلّا صعبا ... أو طلبت السلم إلّا أحربا !
غير لا أنكر معروفاً ولا ... عابس الدهر إذا الدهر كبا
لا ولا مكتئباً لو أنه ... نهب الحوباء فيما نهبا
وأشد الناس بأساً لو على ... غارب المكروه يوما ركبا

***

اخوتي بالشام ؛ بل يا سادتي ... وأعز الناس أماً وأبا
ومساعير الوغى من حسنٍ ... وبنى الحرب إذا ضاق القبا
الشناخيب الذرى من معشرٍ ... الصناديد الكرام النجبا
ان قضيتم من هوانا أرباً . . ... ما قضينا من هواكم أربا !
أو تناءات دارنا عنكم ولم . . ... ياتكم منا على الدهر نبا
فاذا ريح جنوب جنبتْ ... فاسألوها كيف حال الغربا ؟
فلديها من تناهي لوعتي ... وغرامي ما يحط الشهبا
حبذا لو انني من دونكم ... خائضاً سمر العوالي والظّبى
وجياد الخيل ينثرن على ... متنات الدارعين العذبا
لحق الأقراب شعثاً شزّبا ... نتعاطى بالعوالي شربا

***

أيها الرائح بالشام على ... قلق السير كهبّات الصبا
أوكسهم طار من مجنبةٍ ... ذات وردين إذا ما ركبا
قل لمن كان لنا دون القضا ... ولأحداث الليالي سببا
والذي أوقد نيران الغضا ... زد على نارك يا ذا حطبا
واستلب ما شئت عمداً فعسى ... عن قريب تستحط السّلَبا
ان يكن سرك ما ساء فعش ... كي ترى من بعد هذا عجبا
أو أمنت الدهر يوماً واحداً ... فلقد حاولت ظناً كذبا
رب صدع كان أعيى شعبه ... ادركته رحمة فانشعبا

(قال الراوي انه أشار بهذا البيت إلى قصة الحجر المصدوع !) .

كم سرور بعد يأس قد أتى ... وزمان بعد بؤس أعشبا !

فلكم فتح من الله أتى ... حيث لا يدرك ساع مهربا !
فجلى همّاً وأطفى حُرَقاً ، ... وشفى غيظاً ، وجلّى كربا
وأعادت رحمة الباري على ... مويس من حاله ما ذهبا
ان « خبوني » عنك في مستودع ... فشهاب العزم منّي ما خبا
أو ملا جفنيك لذّات الكرى ... فجفوني والكرى ما اصطحبا
رب ليل بتّه مرتقبا ... لطلاب الثار أرعى الشهبا
أرقب النّسر هزيعاً طالعاً ... واراعي الغفر مهما غربا
لنهار تنقط السمر به ... في الوغى ما شكّلت بيض الظبى
والمذاكي في لظى معركةٍ ... مجنبيات يثرن الغيهبا !
ربّ أن يقضى به ذو أرب ... موجع القلب أسيرٌ مأربا
وينال المرتجي من ربه ... في أعاديه الذي قد طلبا
وصلاة الله تغشى دائما ... أحمد المختار ما هب الصبا

***

وقد علق القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال على هذه القصيدة قائلا : « وهذه القصيدة تدل على عذوبة ناشية ، ورقة حاشية ، وقل ما يكون ذلك في مثل هذا الشريف من احلاس الخيل وسراة الليل » [مطلع ج ٤ ـ لوحات ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ـ ٢٥١] .

ولم يذكر لنا سنة مقتله ولكني أظن استنتاجاً من قصائد ابن هتيمل ان مصرعه كان قبل سنة ٦٧٠هـ .

٨٨ ـ القاسم بن علي القاسمي

قال في المطلع : كان من عيون زمانه وله أشعار تدل على فضل من ذلك ما قاله بعد قضية حضور أيام الامام أحمد بن الحسين والتي زلزلت أركان البغى ومنها :

شجىً للكاشحين ولا سرورا ... ونصراً للامام ولا ثبورا !
علا الاسلامُ واطردت قناه ... وعزّ لواءهُ وازداد نورا

[مطلع ج ٤ ـ لوحة ٥٢١] .

٨٩ ـ محمد بن أحمد الحمزي

الأمير محمد بن أحمد بن الامام عبد الله بن حمزة ترجمه في مطلع البدور فقال ان محمد بن حاتم ترجم له وذكر انه ولي أقاليم وحصونا وكان مرجوعاً إليه أيام الامام أحمد بن الحسين وكان مقداماً عارفاً وله قصائد غرر ثم أورد له قصيدة طويلة مطلعها :

حيّ الطلول ومن بها من حاضر ... ان السلام أقل فرض الزائر
درست وغيرها الزمان فأصبحت ... كالرق أو كخلال حصن داثر
ما بين « بلسَن » و « الزرود » معاهدٌ ... تغنيك عن ذكر العقيق وحاجر
دمنٌ بهنّ جررتُ أذيال الهوى ... مرحاً وريعان الشباب الناضر
فسقى ثراها غير مفسد أرضها ... صوب الربيع وكل دجن ماطر
من كل داني المزن هطّال الحيا ... رَجْل الرواعد رائح أو باكر
مسخنفر لجب كأن ربابه ... كرم الهجان صغت لهدر الهادر
فلقد أراها والجديد الى بلى ... لهو الحديث بها وانس السامر
في حيث لا ترميك مقلة أحور ... إلّا إذا سفعت بطعنة ثائر
كم قد عهدت لهن من خرعوبةٍ ... بيضاء كالقمر المنير الباهر
من كل فاترة اللحاظ كأنها ... ريم أحست نبأةً من زاجر
ريّا الروادف لينٌ أعطافها ... تسبي الحليم بسحر طرف فاتر

***

يا أيها المتحملون تحمّلوا ... منا السلام لمنجد من غابر
يشفي الغليل وان تقادم عهده ... زور الخيال لنا ، وذكر الذاكر
ما لي أقيم على التهاون مفضياً ... مستنقصاً قدري بحظ قاصر ؟
والأرض ذات الطول لي مستوطن ... والناس في كل البلاد معاشري
واذا شددت ففوق كل مطهّم ... وإذا ارتحلت ففوق كل غذانر
يختال في نسل الوجيه ولاحق ... ويخب في نسل الجديل وداعر

***

وقد اختتمها بمدح الامام أحمد بن الحسين : ولعل ذلك قبل أن ينضم والده الأمير أحمد الى المظفر ويقود الحملة التي أسفرت عن مقتل ابن الحسين عام ٦٥٦هـ وهو نفس العام الذي مات فيه والده الفارس الشاعر أحمد بن عبد

الله بن حمزة [مطلع جـ ٤ ـ لوحة : ٢٨٩ ـ ٢٩٠] .

٩٠ ـ محمد بن اسماعيل بن ابي النجم

عالم أديب كان في العهد المظفري واستشهد والده كما سبق في وقعة « أفق » التي أسر فيها الامام ابراهيم بن تاج الدين وله شعر منه مرثاته لجده عبد الله بن علي بن أبي النجم والتي مطلعها :

صفو المعيشة ممزوج به الكدرُ ... والموت غاية ما الاحياء تنتظر

ومن شعره أيضاً قوله :

اقلاّ من التفنيد بالله واعذرا ... ولا تعذلا من ليس يجدي ملامُهُ
دعاه فان اللوم أوفى بليّةٍ ... وأوفى دليل للحليم سقامه
فكيف تلوما من يبيت مسهداً ... جفا طرفه سلوانه ومنامه
يحن لفقد النائين عن الحمى ... فما ذُكروا إلاّ وجدّ غرامه
فيا مخبري كيف الحمى بعد أهله ... هل اخضرّ منه رنده وخزامه ؟
وهل جاده مزن الخريف ووبله ... وهل وكفت بعدي عليه غمامه ؟
وهل ذلك الروض الأنيق كعهدنا ... تعانق منه شيحه وبشامه ؟
وهل عادت الأغصان في جنباته ... تغني بها أقماره وحمامه ؟
بنفسي حبيب كان فينا مخيّماً ... يحاكي وميض البرق منه ابتسامه
فمن وجهه البدري ينسفر الضحى ... ومن شعره ليل الدجى وظلامه
فما عرف الاملود قبل تثنياً ... ولا الغصن لولا قدّه وقوامه !
بدا لي وقد شد الرحال ضعانهم ... وقد جدّ عني بينه وانصرامه
وغاب لذيذ العيش عني عشية ... بها قوضت عن حلتيه خيامه
وأعول حادينا وحادي ضعانهم ... « زبيد » لعمري قصده و « سهامه »

***

وهي طويلة ووجهها إلى العلامة يحيى بن أبي النجم ولعل وفاته في حدود عام ٦٨٠هـ [مطلع جـ ٤ ـ لوحة ٣١٥ ـ ٣١٦] .

٩١ ـ محمد بن حِمْير
[ت ٦٥١هـ]

« إبن حمير » هذا الاسم الفخم في تاريخ الشعر العربي في اليمن ؛ يدور في فلكه دوران النجوم السيّارة في فلك الشمس . وهو قسيم « ابن هُتَيمل » في امارة الشعر العربي خلال القرن السابع الهجري ؛ تربع « إبن حِمْيرَ » على عرشه في نصفه الأول بجدارة ، وبمبايعة من أهل الحلّ والعقد في دولة الأدب ، وجلس على منصته تلميذه وخليفته « ابن هُتَيمل » في نصفه الثاني والأخير عن جدارة وانتخاب أيضاً بل وبمباركة وترشيح أستاذه الذي قضى نحبه وهو مطمئن على دولة الشعر في الجزيرة العربية لأن الجالس على عرشها « القاسم ابن علي بن هتيمل » لن يعبث بنظامها ولن يرضى لها بالوهن .

ولو كنت ألتزم في حديثي عن الشعراء المنهج الزمني الذي حدّدت في كتابي فتراته الفكرية والسياسية حسب تدرجها التاريخي وتسلسلها الزمني ، ولم ألتزم الترتيب المعجمي في سرد أسماء الشعراء ـ والشعراء فقط ـ لكان لزاماً علي أن أقف مع « ابن حمير » وأتحدّث عنه قبل أن أقف مع تلميذه « ابن هتيمل » وأورد شيئاً من أخباره وأشعاره .

ولا ندري ـ أنا والقرّاء ـ هل أحسنّا بذلك إلى « ابن حمير » أم أسأنا إلى ذكراه ؟ ولا ندري أيهما كان الأفضل ولكن ذلك ما كان . ولم نرد إلاّ الاحسان والْتزام النهج الذي سلكناه ، ولعل ذلك سيغنينا عن إعادة القول ان « ابن حميرَ » من مواليد الربع الأخير من القرن السادس أي حوالي عام ٥٧٥هـ أو قبلها بعام أو عامين وانه قد توفى كما يقول « الخزرجي » سنة ٦١٥هـ وهو يزحف إلى الثمانين لأننا قد أشرنا إلى ذلك ونحن نتحدّث عن تلميذه « ابن هتيمل » .

ولكننا قد نضطر إلى الاعتراف بأن تحديدنا لعام مولده لم ننقله عن مصدر تاريخي ، ولا ذكره أحدٌ من المؤرخين القدامى الذين تعرضوا لذكره ، وأوردوا شيئاً من أخباره ، وانما استنتجناه تخميناً ، واستخرجناه حدساً ، كما صنعنا مع غيره من أعلام الفكر والأدباء الذين ترجمناهم في كتابنا هذا .

وهذا الحدس والتخمين لو لم يكن يشبه اليقين أو يقاربه لما اضطررنا إليه ولا تكلّفناه لكن الشاعر نفسه قد أراده لنا ودلّنا عليه حين أشار إلى عمره وصرح انه قد جاوز الخمسين وهو يمدح الفضل بن مظفّر السنحاني ويشيد

ببطولته وهمته في أخذه بثار أخيه الشيخ راشد بن مظفر صاحب سنحان الذي قتل في أحداث ثورة « مرغم الصوفي » في بلاد يريم والحقل .

ونحن نعلم أن ثورة « الصوفي » كانت سنة ٦١٩هـ وان الشيخ راشد السنحاني كان قد انضم إلى الحملة الأيوبية التي قادها نائب الملك المسعود الأيوبي عمر بن علي بن رسول ، كما نعلم ان « ابن حمير » كان محسوباً على « مَشْيخة سنحان » وانه كان قد قال في الشيخ راشد الكثير من قصائد المدح ، وبعد أن قُتِل وخلفه أخوه « الفضل » على رئاسة « سنحان » ظل « ابن حمير » معه كما كان مع أخيه فإذا كان قد قال القصيدة التي يهنّي فيها الشيخ الفضل ويشيد بأخذه لثار أخيه راشد بعد بضع سنين من الحادث أي حوالي ٦٢٥هـ وكان مولده كما قلنا تخميناً سنة ٥٧٥هـ أو قبلها بعام فيكون عمره يومئذٍ في حدود الخمسين . ومطلع القصيدة :

أغيب بقلبٍ منك ليس يغيبُ ... وأهجر منك الربعَ وهو حبيبُ
وأبكي إذا غنىّ الحمام ؛ وحالُه ... وحالي شتىّ ؛ ثاكلٌ وطروبُ !
يغرّد فوق الأيك ، والنوح ديدني ؛ ... قلوب بكت لما سررنَ قلوبُ !
وفارقتُ ليلَى ، وهو ينظر الفه ، ... وما يتساوى آهل وغريبُ ،
ولو كان محزونا كمثلي لم يكن ... ليلبس طوقاً ، والبنان خضيب

***

ثم يقول وهو الشاهد :

ولا حينَ لي ، لاموا على الحب قل لهم : ... كذا النّاس عندي مخطىء ومصيب
يقولون : تبْ ما بعد «خمسين» صبوةٌ ... فقلتُ : هل الشيخ الظريف يتوب؟
رأتني ليلَى والبياض بعارضي ... فصدّت ، وانكار المشيب عجيب ،
وهل هو إلاّ لونها صَبَغتْ به ... ذوائب رأسي والفؤاد يذوب

ثم يذكر انه قد غاب في « تهامة » بضعة أعوام بعد قتل الشيخ « راشد » ولم يزر خلفه وأخاه « الفضل » الذي كان كأخيه موالياً للغز والأيوبيين وخلفائهم الرسوليين وقد أقرّوه على أعمال بلده « سنحان » وعلى مخلاف « ألهان » و « آنس » وفيها الحصن الشهير « أشيح » قائلا :

أطلتُ مقامي «بالغوير» وكانَ لي ... بأشيح «مصرٌ» قبل ذا و «خَصيبُ»
وكنت إذا ناديت يا « فضل » مرةً ... أجاب فتى للهاتفين مجيب

فقــد مرّ بي عام وعــام ولم أزر ... جوانب ذاك السفــح وهــو رحيبُ
حبست القـوافي دون سيـدها الذي ... لها في نداه منــصــبٌ ونــصــيــبُ
وحيث الجلال الضخم ، والرجل الذي ... تنـادي الغـوادي باسمـه فيجيب ،

ومنها يذكر أخذه بثار أخيه راشد :

أتنكـر « سنحـانٌ » مقـامك بعد ما ... طلعت وقــد وارى أخـاك قليبُ ؟
اثــرت بذاك الثـار يومـاً عَصَبْصَبـا ... شقــقــنَ قلوبٌ عنــده وجيــوب
وقمت مقاماً سرّ « راشد » في الثرى ... فطبــت بهم نفســاً وأنـت تطيـبُ

***

ومما يؤكد ذلك ما نعلمه من أن « ابن حمير » قد أصبح « شاعر المنصور » بعـد ان أعلن استقـلاله باليمن ، وألغى تبعيّته للأيّوبيين وضرب السكة باسمه ، وخطب للخليفة العباسي في بغداد عام ٦٢٨هـ ؛ وظل شاعر بلاطه حتى قتل سنة ٦٤٧هـ ، وحوالي عام ٦٣٠هـ مدحه بقصيدته المشهورة :

هل عنـدكم من أناس باللوى خبرُ ... أم لا ؛ فأتـركُ دمـع العين ينهمرُ ؟
ما لي وقفت على البــانـات أسـألهـا ... عنكم ، وليس يجيب السائل الشجرُ ؟!

إلى أن يقول وفيه الشاهد الذي يشير إلى عمره وانه قد جاوز الخمسين :

مالي شغلتُ بمشغــولـين عن ولهي ... لا ؛ بل سهرت لنوّام وما سهروا ؟
لا أبتغي الغيّ ، والخمسون تزجرني ... في الأربعين عن الخمسين مزدجرُ ،
ما أنكرت من حلول الشيب عاذلتي ... والفجـر لا عيب فيـه حين ينفجـر
لولا البيـاض الذي حول السواد لما ... زان الــنــواظــر تدعيــجٌ ولا حورُ
ومــا على الــبــاز مبيضٌ قوادمــه ... ولــيس يبرح مخضــوبــاً له ظفــر
والــراح تسلبُ ان طال الشويّ بها ... لبّ الـرجال ، ولا يزري بها الكبرُ

وبهذا نطمئن إلى ان ولادة محمد بن حمير كانت حوالي سنة ٥٧٥هـ .

وفاته :

أما وفاته وأين كانت وفي أيّ عام فقد حدثنا علي بن الحسن الخزرجي في

« العقود اللؤلؤية » وهو يتحدث عن أحداث سنة ٦٥١هـ فقال : « وفي هذه السنة توفي الأديب جمال الدين محمد بن حمير الشاعر المشهور ، وكان أوحد شعراء عصره ، وهو من شعراء الدولة « المنصورية » ، وكان يصحب الشيخ والفقيه صاحبي عواجه ، وله فيهما عدّة قصائد ، وشعره فيهما وفي غيرهما كثير مشهور متداول ، وله ديوان شعر جيد وهو عزيز الوجود ، وكانت وفاته في مدينة زبيد ودفن في مقبرة باب سهام شرقي قبر الشيخ الصالح مرزوق بن حسن الصوفي بينهما الطريق هنالك الى قرية المخريف من وادي رِمَع » [عقود ص : ١٠٥ ـ ج ١ ـ] .

فان كان حدسنا لم يبعد عن الصواب ـ ولعله كذلك ـ فقد توفي وهو يزحف الى الثمانين بعد أن أمضى حياة مضطربة ذاق فيها الحلو والمرّ ، وجرب العزّ والذل ، والسعادة والشقاء ، وجالس الأمراء والملوك والأئمة والمشايخ والفقهاء ، كما عرف أشدّ أنواع السجون ظلاماً وبؤساً ونكالا ، وقال في كل ذلك شعراً وسجله في رسائل .

ديوان شعره :

لا شك ان « إبن حمير » كان ثرّ القريحة ، سريع البديهة ، وقد شهد له بذلك الملك المنصور عمر بن علي بن رسول ، وقد كان ينادمه ولا يكاد يفارقه في سفر أو حضر . بل ويؤانسه في مجالس الشراب وكان للسلطان شاعر آخر اسمه « التاج بن العطار » من فضلاء مصر وأدبائها الذين نزحوا إلى اليمن ضمن الحملات الأيوبية ، فاجتمعا يوماً لدن « المنصور » في مجلس شراب فقال « ابن العطّار » : يا مولاي أنا شاعرك من الديار المصرية ، وأراك تفضل « ابن حمير » عليّ ، وتنعم عليه أكثر مني ، فأجاب « المنصور » ان « ابن حمير » حاضر القريحة ، سريع البديهة ؛ وأنتم يا أهل مصر ـ وان كنتم أهل فضل وأدب إلاّ أنكم تبطئون ؛ ثم التفت إلى « ابن حمير » وقال له : ما تقول ؟ فقال مرتجلاً :

متشعّراً بعمامةٍ معقودة ... لو بعثرتْ ملَتِ الفضاء خميرا ؛
وأبوه عطارٌ فما بال ابنه ... يهدي الصِّنان الى الرجال بخورا ؟

وكان به شيءٌ من ذلك فضحك السلطان وقال أجبهُ يا ابن العطار . فأفحم .

وحضر في مجلس شراب آخر عند السلطان « المنصور » وعنده ابن أخيه الأمير أسد الدين وكان له شاعر من أهل المشرق اسمه علي بن أحمد فجعل « أسد الدين » يثني على شاعره المذكور فقال السلطان لابن حمير ما تقول ؟ فقال ارتجالاً :

أنا البحر فياضاً بكل غريبة ... أُحلّي بها المنصور دراً وجوهراً
وما إن أبالي عن « عليّ بن أحمد » ... وعن شعره ذقن «ابن أحمد» في المسك !

فقال السلطان : وما منعك من قافية الراء ؟ قال : خوف ابن أخيك هذا . [عقود ج ١ ـ ص : ٨٣ ـ ٨٤] .

وله نوادر كثيرة مبعثرة في كتب التاريخ كالسلوك للجندي والعقود اللؤلؤية للخزرجي تدل على جودة قريحته وحدّة لسانه ، وطيش بيانه ، واسراعه الى القدح والهجْو إن دعاه خصام ، أو حفّزه طمع ، أو أهاب به تنافس ، وقد يقذع فتتأدّب الألسن والأقلام عن رواية وتسجيل نوادره ، كما انه كان كثير الاستجداء مع كرم نحيزة ؛ فانه كان يهب ما يستوهب ، ويتظاهر بمظاهر الفروسية والبذخ وكان الى ذلك ذا نزعة صوفية ، فهو يحبّ الفقهاء ومشايخ الطرق ويكثر التقرب اليهم ومدحهم ، وزيارة قبورهم ، وتحبير نشائد « الموالد » والحفلات الصوفية ، وله في المدائح النبوية عدّة قصائد ، وكان إذا حلّت به كارثة ، أو نزلت به مصيبة ، أو اجتاحت البلاد جائحة مرض أو قحط لجأ إلى الشعر يتوسل به مستغيثاً بالله بل وبالرسول ﷺ وأهل بيته والخلفاء الراشدين بل وبالأولياء والمشايخ والقبور ، ! ولم يكن يستنكف عن الطلب والالحاح فيه ، ولا يتورع عن أن يمدح شخصاً ثم يهجوه ، وأن يهدّد السلاطين ورؤساء القبائل وضعاف النفوس ، ممن يخافون مقولة السوء وإن كانت مفتراة ، فيبتزّ منهم العطايا ، وله في ذلك غرائب قد نسجل بعضها ، وبالرغم من أنه كان حوّلاً قلّباً في علاقاته مع الناس ، كثير الأوهام سيء الظن بالبشر ، فقد كان خفيف الظل ، لطيف المعشر حسن الفكاهة ، كثير الحفظ لنوادر الأخبار والأشعار ، وله تَدلُّهٌ يرتفع به أحياناً إلى آفاق الملائكة والأولياء ، وقد يهبط به إلى درك الشياطين والخلعاء أحياناً !

ودارت بينه وبين شعراء زمنه ملاحاة ومهاجاة ، وآذاهم وأذوه حتى اضطرّ

إلى التشرّد بل وقد سجنه أحد الأمراء ، وكان خصومه يضعون على لسانه شعراً في هجو بعضهم ، أو أنه كان ينكر ما قاله حين يخاف العقاب ويدعي انه لم يقل ذلك الهجاء !

ولـذلك كلّه فنستطيع الجزم بأنّه كان من المكثرين ؛ وقد يكون ديوان شعـره في مجلدات ، وفيه الغث والسمـين والجيد والـرديء ، وهـو حال المكثـرين من الشعـراء في كل زمان ومكان وما وصلنا من شعره يدل على ذلك ؛ فهو أحيانا في القمة روعة أداء ، وقوة سبك ، وجودة معاني ، وأحيانا في درجة من الاسفاف لا تليق بمثله .

ونعتقـد ان ديوان شعره الذي عثر عليه العلاّمة القاضي محمد بن علي الأكوع في احدى مكاتب « الهند » ، ليس إلاّ أحد أجزاء ديوانه ، وليس فيه إلاّ بعض أشعاره ، في مشايخ وفقهاء سهام وتهامة ومشايخ سنحان وسلاطين ووزراء وكتاب الرسوليين ، ويؤكد ذلك أن بعض ما ورد في كتب التاريخ من قصائده لا توجد فيه رغم شهرتها وقد أضاف اليه القاضي الأكوع بعض ذلك عندما نشر الديوان .

والحق ان ديوان « ابن حمير » أو ما وجد من ديوانه كان أحسن حظاً من ديوان « ابن هتيمل » ؛ إذ لم يشطب منه ناشره شيئاً بل أضاف اليه ما ليس فيه ؛ وإن كان لم يبـذل جهداً كافياً في ضبط نصوصه ؛ فكثرتْ الأخطاء والتصحيفـات والتطبيعات وأثقله ـ كعادته ـ بالتعليقات والهوامش التي لا فائدة فيها ، والتي توحي بالعُقد العنصرية ، والنعرات المذهبية ؛ وهو في هذا المجال يلتقي مع « ماحق » ديوان ابن هتيمل !! والشاعران كما قلنا هما شاعرا القرن السابع الهجري وشاهداه ، ولو نشر الديوانان كاملين بتحقيق ودقـة وضبط ، وفهارس وتعريفات بالاعلام والامارات ، والأحداث التي ذكـرهـا الشاعران لاستفدنا معلومات جديدة عن الجزيرة العربية في تلك الفترة الخطيرة من تاريخ العرب والمسلمين .

مهاترته مع مُسَلَّم بن العُلَيف :

الشاعر « مسلّم » « ابن العُليف » من مشاهير الشعراء المعاصرين « لابن حمير » وأحد أصحابه ، وسوف نتحدث عن بعض أخباره وأشعاره ، وقد ذكر

الخزرجي انه وفد على « بني مُعَيْبد » رؤساء « الأشاعر » في وادي « رمع » ومدحهم ، فلقي الحظوة لديهم ، وأجزلوا مثوبته ، ولما علم « ابن حمير » بذلك حسده ، وذهب الى بني « معيبد » وأساء تأويل مدائح « ابن العليف » ، وزعم انه قد هجاهم في معرض المدح وأستأذنهم في هجائه فأذنوا له فقال قصيدة بذيئة مطلعها :

غيري تدلّهه الفتاةُ العَيْطلُ ... ويشوقه الغادون حيث تحمّلوا
وسواي يشجيه الحمام إذا شدا ... ويهيج لوعته الصّبا والشمألُ ،

ويقول « الخزرجي » ان « ابن حمير » إنما فعل ما فعل خشية ان يتقرب « ابن العليف » إلى مشايخ « بني مُعَيْبد » فيدنوه ، وتسقط حرمة ابن حمير عندهم ، وانه كان لَسِناً لا يكاد يتحاشى من أحد ؛ ومن القصيدة :

أبْلغْ «مُسلَّم» إن بلغت «مسلّماً» ... فالكلب ليس بفاعل ما يفعلُ
واردد عليه مرذّلاً من شعرهِ ... فالزبل في وسط المزابل يُجْعَلُ
أتلوم قوماً كنت يا ضبع الفلا ... بالأمس بين بيوتهم تتنقّل ؟
أغنوك إذ لم يدر كفّك ما الغنى ، ... وسقوك إذ لا ماء قومك شلشل
ورأوك في « حوك» يساوي درهماً ... فكسوك تخطر في الحرير وترفل ؛
وقدحت في مدح «السهيليّ» الذي ... أذيالُه من هام قومك أطولُ

ثم أغرق في الفحش والشتيمة ، ثم قال :

لو كنتُ حاضرها غداةَ رويتها ... يابن العُلَيْف لرض فاك الجندل
ولَبيّتتك وصبّحتك صواعق ... مني تحلّ إذا حللتَ ، وترحل
لكن خلوت وحشو أرضك نسوة ... فوقفت بين بيوتهم تتغزل !
وإذا الاجادل غيّبت عن بلدةٍ ... وقف الغراب بها يصيح ويحجل
وإذا الحمار بأرض قوم لم يروا ... خيلاً بها قالوا أغرّ محجّل !
شعر كجوف الطبل ما في جوفه ... شيء ولكن للمسامع يشغل
والله ما أعطوك انك مفلقٌ ... في الشعر لكن للمروّة توصل
وعجبتَ إذ قالوا : فلان شاعرٌ ... وتغامزوا فعجبتُ لِمْ لا تخجل !

***

وقد أجاب عليه « ابن العُليف » بعدة قصائد ومما قاله قصيدة مطلعها :

بأيــة شيءٍ بعــدكــم أتــعــلّل ... ومن أي وجــهٍ بعــدكم أتحمّــلُ ؟
ومـا العـذر حتى لا ألام على البكا ... عليكم ؟ ولا فيــا أجـدّ وأهـزل !
أحــاول بعــد الــظاعنين تحمّلاً ... وحسبــك يوم البــين من يتحمّــل

إلى أن قال مخاطباً المشايخ :

أسركــم ما قال فيَّ « ابــن حمير » ... وان كان في أقــوالــه لا يطوّل
تحمّـل من حسـدي على حسناتكم ... ثقيــلاً ومن بغضَــاي ما هو أثقــلُ
ولست أبــالي عنــه ؛ ليس بآخــر ... من الحــاملي بغضي ، ولا هو أولُ
ومن بعض ما يرويــه اني هجـوتكم ... وذلــك مكــرٌ ظاهــر وتحــيّــلُ ؛
فلا وأبي لاخــبرّت يمــنيّــة ... بأني فيــما ساءكــم أتــنــصــل
يعــيّرني في لبس « حوك » لبستــه ... فقــولــوا له : لادر درك حنبــل !
أما كان « قعقاع بن شور » على الذي ... سمعــت به في شملة متشمّــل ؟
وكـان لباس الروح «عيسى بن مريم » ... مسوحاً فما أزرى به وهـو مرسـل
ومـا الفخـر في لبس الحـريـر وانّـما ... فخــار الفتى فيــما يقــول ويفعـل

إلى آخر ما قاله من السبّ ؛ وكال له بالصّاع صاعين فحشاً وشتماً .

تشرده واعتذاراته :

ومـا قالـه المؤرخـون والنقاد عن حدة لسانه ، وطيش يراعه ، وانه إذا خاصم أفحش القول يؤكده ما ورد في ديوانه من اشارات إلى عدة خصومات نشبت بينـه وبين شعراء وفقهاء وكتّاب عصره ، واعتذاراته إلى السلاطين الذين نُسِبت إليه قصائد في هجوهم ، ودعواه انه لم يقلها ولا نظمها ، وأن اعـداءه وخصـومـه من شعـراء زبيد وكتّابها قد زوّروها ونسبوها إليه إفكاً وكيداً ، ولا يبعد أن محاولته الكيد لابن العُليف وزعمه انه قد عرّض برؤساء بني « مُعيبد » قد دفع « العليف » وغيره من خصومه إلى ارجاع سهام كيده إلى نحره فوضعوا أشعاراً في هجو الشيخ أبي بكر بن مُعيبد الأشعري الذي كان أحد زعماء تهامة المقربين إلى الملك المنصور الرسولي ونسبوها إلى « ابن حمير » ؛ ان لم يكن حمقـه وطيشـه قد دفعـه إلى هجو الشيخ ؛ ومن تلك الاعتذارات رسالة طويلة كتبها إلى الشيخ أبي بكر وهو شارد في الجبال وقد

افتتحها بقصيدة يقول فيها :

خليليّ ما جانبت قومي عن قِلًى ... ولا عن ملال حار فكري فيه
ولا لي « بالقيل اليماني » عائضٌ ... وأي أبٍ للطفل مثل أبيه ؟
ولكن مقالٌ من سفيه مذمّم ... وحسبكَ ان تُبلى بقول سفيه
وتشبيه أقوام عليّ أباطلاً ... وفي الناس للانسان ربّ شبيه

ثم ذكر أسماء ثلاثة أدعى انهم هم الذين وضعوا اشعار الهجاء ونسبوها إليه كيداً فقال :

قصائد « لابن الشيزري » نظامها ... و « لابن مُحيا » الخط وهو يليه
وأنشدهن « الزيلعيّ » بزوره ؛ ... وأية تلميذٍ لأي فقيه ؟
مكائد تنسى كيد أخوة « يوسف » ... ورهن « ابن يامين » وبيع أخيه
فلما رأيت الأمر وعراً سلوكه ... ونام عن التمييز كل نبيه
عزفت عن « الشعب اليماني » ناقتي ... وقلتُ لها : يا ناق لا ترديه
لقد عقني من كنتُ قدماً أبرّه ... وأسلمني من بالضلوع اقيه
وكيف يجبّ المرء مارن أنفه ؟ ... وكيف يخون المرء عهد ذويه ؟
فياعين إن ربع عفى فتجلدي ... ويانفس إن خل جفا فدعيه !

ثم استشهد بقول « ابن القم » :

« إذا حل ذو نقص محلة فاضلٍ ... وأصبح رب الجاه غير وجيهِ »
« فان حياة المرء غير شهيةٍ ... إليه وطعم الموت غير كريه »

وبعد ذلك خاطبه متودّداً ، يضرب له الأمثال في الحلم والصفح والعفو إلى أن قال : « يامولاي « ناصح الدين » ؛ وقال « عبد الملك بن مروان » لبعض جلسائه : « يافلان أتاني منك ملام ، ونقل لي عنك كلام » فقال : معاذ الله ياأمير المؤمنين أرضعُ درَّك ، واكفر برّك ، فقال : جاءني به الثقة . فقال : ان الثقة لا ينم . قال : صدقت وعفا عنه ، وأوقِفَ رجل بين يدي السفّاح في خطيئة اقترفها ، فقال ما تحب أن أصنع بك ؟ فقال : كما تحب ان يصنع الله بك إذا وقفت بن يديه ؛ فعفى عنه وخلّ سبيله ، وقدم رجل بين يدي سليمان بن عبد الملك في خطيئة ليضرب عنقه فقال : ياأمير المؤمنين بحق من أنت بين يديه أذل مني بين يديك ، وبحق من هو على عقابك أقدر منك على عقابي ألا عفوت عني ؛ فعفا عنه » .

والله سبحانه يقول وقوله الحق المبين : ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ وقال : ﴿**وان تعفو أقرب للتقوى**﴾ وقال ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ فلما وعى رسوله ذلك كله قال الله سبحانه له : ﴿**وانك لعلى خلق عظيم**﴾ .

« وقال « الحسن بن علي » رضي الله عنه لخادمه « قنبر » : اسقني شربة ماء فناوله الكوز على غفلة منهما فكسر رباعيته فجعل الدم يتدَعدَعُ على الأرض والحسن مطرق ؛ فلما رأى ذلك « قنبر » قال يامولاي و « الكاظمين الغيظ » . قال : كظمت غيظي . قال : والعافين عن الناس » قال : قد عفوت عنك ؛ قال : والله يحب المحسنين » قال : أنت حر لوجه الله » .

وبعد هذا التمهيد الذكي ، الذي ذكر فيه شعراً أسماء « الشاعر » و « الخطاط » و « المغني » الذين تآمروا على وضع قصيدة الهجاء في الرئيس « أبي بكر » وعلى تقليد خط « ابن حمير » ثم على تلحينها ونشرها في الأسواق والمجالس ؛ والذي أورد فيه من مواقف الصفح والعفو والاحسان للخلفاء والملوك على من استحقوا العقوبة وعلى من اقترفوا خطاءً أو إثما ؛ أقدم على غرضه من الاعتذار وتبرأ من مَا نُسِب إليه وقال إن ضربه للأمثال ليس لأنه قد أذنب أو اقترف سيئة ، أو يعترف بها زوّره خصومه وافتروه كذباً عليه قائلا

وما أضرب الأمثال من أجل ذلة ... إليك ؛ ولا ذنب عظيم فعلتُهُ !
ولكنني حملتُ قولاً ملفّقاً ... عليّ دماء البدن إن كنت قلتُه !
وقد كان لي في أرض «أشعر» منزلٌ ... به الرحب ، والترحيبُ مهما نزلتُه
وكنت بقومي ذا مقام معظمٍ ... إذا رمت منه موضع النجم نلتُه ،
فياليت اني لم أربّ « ابن ملجم » ... ولم أكفل « ابن النضر » فيمن كفلتُه
فما ضرني إلا الذي قد نفعتُه ، ... ولا حَطّني إلا الذي قد رفعتُه
ومن عجب تكذيب « اخوة يوسفٍ » ... وتصديق فيَّ « الزيلعي » واخته !

ويظهر من هذا ان « الزيلعي » الذي غنى القصائد ولحنها وبثها في المجالس كان من صنائع « ابن حمير » وان له « أختاً » قد شاركته بث تلك الاشعار والأغاني في مجالس النساء مما أثار حفيظة « الشيخ » وسخطه ، وسبب فرار شاعرنا « ابن حمير » وتشرده ، ثم تحبير هذه الاعتذارات شعرا

ونثرا ، وقد واصل القول شعرا فقال عن « الزيلعي »

وأصبحت عن قومي بعيداً ؛ وقوله	هو القول عند القوم والدست دستُه
ومـا هو إلا الحظّ ينبـح ضغيمٌ ؛	ويـزأر نبّـاح إذا قام بخـتُـه ،
فان كان للدجـال وقـت معـينٌ	فهـذا هو الـدجـال والـوقت وقتُـه
ومـا قدره لولا سواه ؟ فأنها	إذا الكلب شم المسك بَقبَقَتِ استه !

ولم تكن هذه الرسالة هي أولى رسائله إلى الرئيس « أبي بكر » فانه حين فصّل ما أجمله في الأبيات يشير إلى انه كان قد تلقى جواباً منه يذكر انه قد قبل العذر وعرف أن ما نقل عنه كذب ، وانه كان قد أطمأن إلى ذلك ولكن « الزيلعي » وعصابته جدّدوا افتراءاتهم عليه فقال :

« وقد كان تقدم للمملوك مطالعة قديمة ، سبب ما سلف من النميمة ، براءة من الله ورسوله إلى « المولى » من أقوال المتقوّلين ، وأساطير الأولين ، وزخاريف المبطلين ، فوصل الجواب على لسان الرسول ، يذكر ان العذر مقبول ، وان حبل الرعاية موصول ، وأن الناقل يكذب فيما يقول ، وان الاساءة من المحسَن إليه لا تقبلها العقول ، ثم تجدد بعد ذلك أن « الزيلعي » الفاجر ، وعبد الله بن محيًّا » الناسخ الغادر ، وفلان بن فلان الشاعر ، وهم النفر الذين في أعراض الناس يقدحون ، والشيعة الذين لا يفلحون ، والرهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » . وهنا أغفل كاتب الرسالة ذكر ما تجدد ، ولم ينتبه محقق الديوان ، ولعل ما أغفله أو سقط من الأصل هو انه قد تجدد منهم الافتراء ووضعوا على لسانه أشعاراً أخرى ، ولحّنوها ونشروها ولهذا قال :

« وليس بين المملوك وبين أحد من أهل هذا العصر ما بيني وبينهم من الضغينة ، والأحقاد الدفينة ، منذ أيام الطوفان والسفينة ، وقد أجمعوا على أن يزوّروا ذلك الخط على بناني ، ويصوروا ذلك الشعر على لساني ، ويرويه الثالث عن الثاني ، ويعملون منه المقاصير والأغاني ، ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، وقد حُكي أنّهم غرّروا على المولى بتلبيسهم ، وصناعة أبليسهم ، ما ظهر منه الخيال والوبال ، وجاز على كثير من الرجال ، وقد مكروا مكرهم وان كان مكرهم لتزول معه الجبال » .

والرسالة طويلة ؛ وأسلوبها رصين ، ونفسها عال شعرا ونثرا وهي تذكرنا برسائل ابن العميد وبديع الزمان وابن زيدون ، وتدل مع ما سبق أن نقلناه

عنه في خطابه إلى « ابن هتيمل » على ان ملكته البيانية نثرا لا تقل عن ملكته في الشعر .

المكيدة الثلاثية

ولعمري لقد كان المكر الذي أصيب به « ابن حمير » مكراً كُبّارا . فقد تآمر عليه « الشاعر » و « الخطاط » و « المغني » وما اجتمع هؤلاء على شر إلا كان مستطيرا ؛ فالشاعر يزور القول وينمقه ، ويشحذ من سهام القوافي ما يدمي ويُصمي ، و « الخطاط » يقلد « الخط » ويرسمه كأنه قد نقش ببراعة وبنان « ابن حمير » والمصيبة الثالثة ذلك « الملحن » أو « النشاد » كما يسمونه في اليمن يطرب به الناس ويلقنه الصبيان ، بل ويعلم « أخته » أن تتغنى به في « تفاريط » النساء ، ولذلك فقد ضاقت بالشاعر فسيحات الرحاب ، وذهب مشرداً في الآفاق ! ولكن من هو هذا « الشيزري » الشاعر ؟ وما إسم « الزيلعي » الملحن الماكر ، والذي يقول ابن حمير انه قد أحسن إليه وربّاه ؟ وهل في الامكان أن نعلم شيئا عن الفنان الخطاط الماهر الذي قال ان اسمه « عبد الله بن مُحيًّا » ؟

أما ناشر الديوان والرسالة ، فقد أعفى نفسه عن البحث وقد حاولت التنقيب فوجدت أن محمد بن حاتم اليامي مؤلف كتاب « السمط الغالي الثمن » قد ذكره وهو يتحدث عن أحداث عام ٦١١ ـ ٦١٢هـ ووصول الملك المسعود ابن الكامل الأيوبي إلى اليمن . فقال : « وجاء العماد الشَّيزري إلى الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول واعطاه ورقة وقال : إذ أنت لقيت الملك المسعود فأعطه هذه الورقة وكانت متضمنّة بيتين من شعر المذكور هما

قل للوزير « كُرَيْز » و « ناصح الدين » : كُل كُل !
لا تكثروا ، لا تطيلُوا قد جاء من يصكَع الكلُّ

[السمط ص : ١٦٦] .

كما ان « الخزرجي » قد ذكره وهو يتحدث عن وقعة « عَصر » التي نشبت بين « الغز » بقيادة « آل رسول » نواب الملك المسعود وأمراء آل حاتم حلفائهم ، وبين الأشراف « الحمزات » سنة ٦٢٣هـ فقال :

« وفي هذه الواقعة يقول العماد الشيزري وكان شاعر الملك المسعود :

الا هكــذا للملـك تعلو المــراتب | وتسمــو على رغم العـداة المنـاقب
فتـوح سرت في الأرض حتى تضوعت | مشــارقهــا من طيبهــا والمغــاربُ
بسيف الجواد ابن الرسول توطدت | قواعــد ملك ربــه عنــه غائـبُ !
فولّـوا ومن طعن القنـا في ظهورهم | عيـون ؛ ومن ضرب السيوف حواجب

[ج - ١ - ص : ٤٣] .

وقد عني بقوله : « قواعد ملك ربّه عنه غائب » ان الملك المسعود الأيوبي كان يومئذ في « مصر » ولم يعد إلى اليمن إلا بعد تلك الوقعة سنة ٦٢٤هـ ثم كان من أمره ما أوضحناه في حديثنا عن « الحمزات » وبني « حاتم » وعن بداية الرسوليين .

ونحن نعلم من رسالة « ابن حمير» ان لقب ناصح الدين » كان يطلق على « الشيخ أبي بكر بن مُعيبد الأشعري » ممدوح « العُليف » و« ابن حمير» والتي زور خطه بها « ابن مُحيا » و« لحنهـا » الزيلعي ويزعم انها من شعر « العماد الشيزري » .

ولعل تشرد « ابن حمير» كان أيام المسعود الأيوبي ؛ أي في أجواء عام ٦١٥هـ وهو في عنفوان رجولته يزحف إلى الأربعين وهذا يؤكد ما استنتجناه من أن ولادتـه كانت حوالي عام ٥٧٥هـ فهو إذن من معاصري « الشيزري » ، وعرف الملك المسعود وكان شاعر خلفه أول ملوك بني رسول .

ذلـك هو كل ما نعلمـه الآن عن الشـاعـر « العـماد الشيَّزري » وأمـا « الخطاط » و« المغني » فلا نعرف عنهما إلا ما حكاه « ابن حمير» مـن أن اسم « ابن محيّا » « عبـد الله » وانـه كان ينسـخ الكتب ، وكـان ذا خطٍّ حسن ؛ ونعلم من قوله في القصيدة الهائية :

لقــد عقّـني من كنت قدمــاً ابــرّه | وأســلمــني من بالـضـلوع أقيــه

وقوله في الأخرى

فيــالـيــت اني لم أربّ «ابن مُلجَم» | ولم أكفل « ابن النضر » فيمن كفلتُهُ
فما ضرني إلا الــذي قد نفــعـتُــه | ولا حطَّني إلا الــذي قد رفعتُــه ،

ان « الزيلعي » كان من خاصة أصفيائه ؛ ولهذا فقد شبّه تآمره عليه بتأمر « عبد الرحمن ابن مُلجَم » على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، واغتياله له مع انه الذي رباه وثقفه وقد أكد ذلك نثراً في رسالة وهو يدافع عن نفسه بقوله :

«فان كانت الحجة علي أنه غلامي ، وانه يعرف مدحي وملامي ، ويعلم ما تحت حزامي ، فأخوة « يوسف » عملوا على أخيهم الأكاذيب ، وجاؤوا بقميصه الخضيب ، وقالوا : إنّا ذهبنا نستبق فأكله الذئب » . ولم يقنعوا بالزُّور الذي يحكون ، حتى جاؤا أباهم عشاءً يبكون ، فاذا كان أولاد الأنبياء حكوا وبكوا وزوّروا بالدمع المنسكب ، على القميص المختضب ، فما ظنك بهذا النمام الفاجر ، الضعيف المشاجر ، الذي أبق وركب طبقاً عن طبق » . ثم ذكر انه مع « ابن محيا » قد دأبا على عمل المكايد له مع غير الشيخ قائلا :

«وقد زوّروا عني إلى أهل « زبيد » ، قصائد لا يحصى لها عديد ، وبدائع من المقصود والقصيد ، وعجائب من الهجو الشديد ، والقدح الذي ما عليه مزيد ، وكان يستنسخ من « ابن محيا » الأشعار في الناس ، كلما عضّهما الأفلاس ، ويشبهها على رقمي ، ويكتب عليها اسمي ، ومهما حصل اقتسماه ، وأخذاه والتقماه ، حتى انتهى في المدينة أمرهما ، ونما إلى المملوك مكرهما وهو الذي أوجب الفرقة عن يقين ، وانفصاله عني منذ سنين .

إذا صديق نكرت جانبه ... لم تعيني في فراقه الحيلُ
ولست أبكي الطلول فيه ولا ... أسائل الظّاعنين ما فعلوا ؟

والمشايخ بنو « مسيح » بواسط ، قد اطلعوا على تزويراته ، وخدعه وتصوّراته ، وعامة أهل « زبيد » وكل نفس معها سائق وشهيد » .

والرسالة كما قلنا طويلة وقد سلك فيها كل مسالك التفنيد شعراً ونثراً ، وبذكاء وبراعة مستشهدا بالآيات والأحاديث والأقاصيص التي تدل على سعة إطلاعه وتبحّر معارفه ، ومن أظرف ما ورد فيها من الدفاع قوله : « وان احتجّ المولى على المملوك انه لا بد لكل شيء من سبب ، ولكل نار من حطب ، فان هذا النمام لا يمكنه ان يخترع الأشياء إذ كيف يبني على غير

أساس ، ويقدّر على غير قياس ، فأي سبب بين « أبليس » و « آدم » ، وأي وتر بينهما تقادم ، حين كره أن يسجد له مع الساجدين ، وأخرجه من جوار رب العالمين ، وقال ، « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » ، وقال في ذريته « فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين » ! الشر عجيبٌ لمن تأمّل والحسد عداوة ما لها من أوّل ، فلو كان كل من لام قُبِل ملامه ، وكل من رمى أصابت سهامه ، وكل من نطق صدق كلامه ، لهلكت الأموال والأرواح ، وتلفت المشكاة والمصباح ، وغرقت السفينة والملاح ، غير ان الأمور ينظر في حقائقها ، ويفكر في دقائقها ، ويرجع إلى قائدها وسائقها .

و « ابن منصور » و « الحبيشي » في العام ... « وشـدّاد » عنـك قالـوا محالا
كثّـروا ثم قلّلوا ، ثم دسّـوا . . ... وأجـلّوا ، ومـثـلوا الأمـثـالا
طلبـوا جاهـك الـرفيـع فلما . . ... قصروا أذرعـاً وطـلت منـالا
أقـسـمـوا لارأوك إلا بعـينٍ ... طالمـا غرّت العـيـون الـرجـالا
وإذا كنـت أنـتَ أنـتَ وخـانـوك فانّي أقـل حالاً . . وآلا .

والرسالة بديعة وخليقة بالدرس والتحقيق والشرح والتفسير ؛ وقد قبل الشيخ « ناصر الـدين » اعـذاره بعـد لأي وعاد إلى أهله ولكن يظهر أن « الشيخ » كان عفوه على دخن فقد تمثل ذات يوم وهو في مجلسٍ يضمّ « ابن حمير » بقول « المتنبي » .

واحـتـمـال الأذى ورؤيـة جـانـيـه غذاءٌ تضـوى بـه الأجـسـام

وكأنه قد تذكر قصائد الهجاء والقدح ، والتي قد سارت كل مسار ، وكأن « ابن حمير » قد لمح في أسارير الشيخ وقسمات وجهه الغيظ والحقد فخاف ونفـر من البـلاد من جديد واحتمى ببعض مشايخ الجبال في « سنحان » و « آنس » و « خولان » و « همدان » واستشفـع بهم إلى شيخ « الأشاعر » وسار بعضهم معه إليه يطلبون له العفو والصفح وأنشده « ابن حمير » قصيدة نونية مطلعها :

أعـاني هوى ليـلى وكـيف أعـاني ... وأدنـو إلى من ليس بالمـتـداني !
وأرعـى لها أيـام إذ هي جارتي ... وإذ خدرهـا المضروب قيـد عيـاني
ومـا خنت ليـلى يعلم الله عهـدهـا ... ولا ملت للواشي غداة لحاني

ولا غيرتني شقة البعد بعدها ... إذا غير الأحباب جورُ زمان ،
ولا اعتدت تسهيد الجفون ، وانما ... جفتني ليلى ، والمنام جفاني
دعاها النوى ، لما دعاني لها الهوى ... فلبّت : كما لبيت حين دعاني !
وكم من محب وهو غير محبّب ... وحانٍ على من لا يرق لحاني !
خليلي من « سعد بن نبتٍ » رقدتما ... وبت أشيم البرق وهو يماني
فلو كنتما مثلي مشوقين ، أو معي ... لأشجاكما مسراه حين شجاني
أعينا على ما بي من الهم واشكرا ... على ذاك من عافاكما ، وبلاني
فان خليلي من يقاسمني الأسى ... ويشركني في نائب الحدثان

وبعد ذلك يدخل في الموضوع الذي يهمه فيقول :

أتتني من «القيل» اليماني هدّةٌ ... تشيّبُ رأسَ « الأسود بن قنان » !
وزأرة ضرغام ببيشة لودعا ... بنجران لأنهدّت سقوف « عمان » !
ومن أنا حتى أجحد « ابن مُعيدٍ » ... نداه ؛ وكم براً بذاك أتاني ؟
ومن أنا حتى أجحد الشمس ضوؤها ... واغمط جود الغيث ذي الهملان ؟
وما كان مني في « أبي بكر » ما رووا ... ولكن شأني عنه أحقر شأن
أأركب أمواج الهلاك تعمداً ... وأفتح شدقي والرماح دواني ؟
وآكل لحم الافعوان تشبعاً ... ولو مس جلدي جلده لشواني ؟
واكفر احسان الذي في زمانه ... عرفت ، واعمى الحاسدين دخاني ؟
وأجدع انفي وهو موضع نخوتي ... وأقطع كفي عامداً ببناني ؟
أما والذي حج الملبّون بيته ... على مضمرات كالقسيّ حواني
لما سطرت ذاك الكلام أناملي ... ولا قال ما قال الوشاة لساني
ولكنهم « أولاد يعقوب » أقبلوا ... بذئب ، وثوب حوله الدم قاني
ومن عجب أن تستحل محارمي ... بخط فلان أو بقول فلان !؟
وقد قيل بالبطحاء «أحمد» ساحرٌ ... وقال أناس للمهيمن ثاني !
وصور أصحاب « المسيح » كمثله ... صليباً ، وروح الله ليس بفاني
فلا حول منها ؛ فعلة شقت العصا ... وسخطٌ أتى من غير زلة جاني
أفيكة أفّاك رماني واتقى ... محالاً ؛ رماه الله حين رماني
وللحق وجه لا يرد وانما ... كلام العدا ضرب من الهذيان
عليك « أبا بكر » سلام ولم تزل ... مغانيك للزوّار خير مغاني !
معافى من الأسواء ترقى إلى «السهى» ... وتبقى وتسقي الغيث كل أوانِ
قدمت وصحبي بين ناهٍ يردّني ... وآخر يرخي للمسير عناني

وفي النفس أشواقٌ وفي القلب هيبةٌ ... وان الهوى والخوف يصطرعان
وخلفي يابن « الأشعريِّين » صبيةٌ ... كزغب القطا كل يودّ يراني !
وشيخ حنته النائبات وشيخةٌ ... يعز عليهم أن يشط مكاني
وقد راعهم ما قلت فيّ ، وكلهم ... على خده عيناه تنهملان ،
تصدق عليهم أو عليّ لأجلهم ... وسكّن قلوباً جمة الخفقانِ
وأمّن ؛ فكم أمّنت روعة فاقرٍ ... وأطلق ؛ فكم أطلقت كربة جاني
وعش عمر «نوح» في «سماحة» تبعٍ ... تنال من الأيام كل أماني

وهذه القصيدة من أبدع اعتذاراته ، ومنها نعرف انه كان لا يزال كهلاً وقد رزق بأطفال ولا يزال أبوه على قيد الحياة وذلك يؤكد ما ذهبنا إليه من تاريخ عام ولادته .

سجن « ابن حمير »

قليل هم الشعراء المبدعون ، وأقل قليلهم أولئك الذين نجوا من السجن والنفي ، أو الشنق والاعدام ، أو لم يخرّ صريعاً اغتيالاً أو استشهادا ؛ كلٌّ من « امرؤ القيس » و« المتلمس » و« النابغة » ، إلى « بشار » و« المتنبي » و« عُمارة » ، وحتى « البارودي » و« شوقي » ، فإلى « الجواهري » و« الزبيري » ، والمئات من قبل ومن بعد .

يتوهّجون ويطفئون كأنهم ... سرجٌ بمعترك الرياح الأربعِ

أما لماذا ؟ فالعلم في بطن الشاعر كما يقول اليمنيون ! ولا أريد أن أتحدث عن مآسي الشعراء ومصارعهم ، ولا عمن تشرد أو اغتيل أو استشهد منهم ، ولو احصيت فقط اليمنيين وفصلت أخبارهم وسجلت أشعارهم التي اتهموا بها أو أخذوا عليها لألّفت سفرا كبيرا .

وقد علمنا لماذا نفر شاعرنا « ابن حمير » من بلده « سهام » وفارق أطفاله وهم كزغب القطا ، وأبواه الشيخان العجوزان وعرفنا أسباب ذلك وأسماء بعض المحرضين عليه والملاحقين له .

ولكنا نقف حيارى حين نقرأ في ديوانه قصيدةً يقول الناشر انه قالها في « السجن » وكتبها إلى الأمير « عز الدين » دون ان يذكر من هو الذي سجنه وبأي تهمةٍ وفي أيّ بلد !؟ ولا في أي تاريخ ؟

وهل كان ذلك قبل خصومته مع آل « معيبد الأشعريّين » وفراره منهم إلى « الجبال » أم بعده ؟ و « عز الدين » هذا هل كان والياً على زبيد « للغز » أم أحد أعوان السلطان ، ويطلب منه التشفّع والعون ؟ وهل هناك سبب سياسي أوجب غضب الحاكم عليه ، أم هي فقط نزوات لسانه الطائش ومزاجه المجنون ؟

كل ذلك لا نعلم عنه شيئاً ولم يحدثنا عنه من ترجمه من المتقدمين أو المحدثين ، وأستبعد ان « ابن حمير » وهو الشاعر المكثار لم ينظم في سجنه إلا هذه القصيدة التي أجاد فيها وصف السجن ، وما يقاسيه نزلاؤه ، من عنت ونكد وعذاب وقد افتتحها بقوله :

أناديك « عز الدين» والصوت يُسمع ... وأدعوك إذ ضاقت بي الأرض أجمعُ
تتبعني الحساد قدماً ، ولم يكن ... خلا أحدٌ من حاسدٍ يتتبعُ !
فصرت إلى سجن به كنت أشتهي ... عدوّك يُجزاه مقيلٌ ومضجع ،
وجشمني سجانه ، وأحلّني ... محلاً به خدي على الترب يوضع !
وأمسيت لا الليل الدجوجي ينجلي ... بحالٍ ، ولا الصبح المشرّق يسطع ،
«أبيت كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السمّ منقع»

والبيت الأخير من قصيدة للنابغة قالها وهو شارد هارب من الملك النعمان ، وقد تصرف في صياغة القافية ملاحظة للروي . ثم نقل لنا صورة حية للسجن ونزلائه المناكيد فقال :

أسامر قوماً ضامرين من الطوى ... ضعاف القوى أنفاسهم تتقطع
حيارى بمهجور الجوانب مظلم ... يظل به منهم على الترب أذرع
إذا أنّ هذا أن ذاك كأنما ... حشا ذا وهذا بالكلاليب تُنزع !
شجيتُ لما بي ثم زاد الذي بهم ... شجاي ، ونكؤ الجرح بالجرح أوجع

وبعد ذلك اقسم الايمان انه لم يحدث ذنبا ، ولم يقترف جرما ولا كان منه ما يعاب ، وانه « ليفزع من مرّ الرياح ويجزع » وذكّر « عز الدين » انه خادمه وان له عليه حق لا يضيع ، ولا ندري ما هو هذا الحق لاننا لا نعرف عن « الأمير عز الدين » هذا شيئا ، وقال ان له فيه « المديح المرصّع » ونبحث في سائر الديوان فلا نجد له ذكرا إلا في هذه القصيدة ثم يقول :

أغثني بجـاه منـك أو بشفـاعـةٍ فانـك والله الـشـفـيـع المشـفـعُ
ومـن لم يجد ظلاً ظليـلاً يكـنّـه فلي منـك ياسيف المـمالـك مقنعُ

وهنا يخطر بالبال ان « الأمير عز الدين » هذا ليس هو الذي أمر بسجن الشاعر وانه كان أحد أعوان الوالي على « زبيد » بعد ان عزم الملك المسعود الأيوبي على السفر إلى مصر سنة ٦٢٥هـ وأناب عنه على اليمن « أتابكه » نور الدين عمر بن علي ابن رسول وعمت الحروب والفوضى عموم اليمن فلعل سجن الشاعر كان في تلك الأثناء وانه قد طلب من « عز الدين » أن يتشفع له عند الوالي ويؤيد هذا الظن ويرجحه قوله :

تذكـر ثنائي عنك ، وارث لضيقتي فقـد يُرحـم المسـتـأسرُ المتضرّع
لعـل من المـولى « الأتـابك » عطفة يضـم بها شمـلي الشتيت ويجمـعُ
فما زلـن أحـلام الملوك وسـيـعـةً وان كثـر الـواشـون قولاً ووسعـوا

و « الأتابك » هو أقرب المقربين إلى السلطان والمربى لأولاده وكان عمر بن رسول هو « أتابك » الملك المسعود ولما توفى في مكة تولى الحكم واستبد بالسلطة وكان أول ملوك بني رسول كما تقدم .

فهل يمكن أن نفترض أن « الأمير عز الدين » قد تشفع لدى « الأتابك » وخلّص « ابن حمير » من السجن وان تلك اللفتـة من الـوالي « عمـر بن رسول » نحو الشاعر قد كانت لبنة أساس العلاقة بينهما ولذلك أصبح شاعره ولسان دولته حينما أصبح ملكا وأعلن استقلاله باليمن عن الأيوبيين ؟

لا نستطيع ان نجزم الآن بهذا وسواء كان ذلك أو غيره ؛ فالمهم هو ان « ابن حمير » قد ابتلى بالسجن مثلما أصيب بالتشرد ، وأنه قد قال في ذلك شعراً ووصف السجن ونزلاءه فأحسن ، وقد جاء في القصيدة عن أولاده وأبويه ما يلي :

وخـلفي أهـلٌ لو سمعت عويلهم لأشـجـاك منهـم ما تراه وتـسـمـع
وشيـخ حنتـه النـائبـات وحـولـه عجـوز لها دمـع ، وللشيـخ أدمـع
وأطـفـال دار لو تغـيّـبـتُ ليـلةً عووا كذئـاب البيـد إذ هي جوّع
ومـا لهمُ كاف سواي وكـافـل أذب الأذى عنهم وإن غبت ضيعوا

وهي صورة مؤثـرة تذكرنا بما سبق أن أوردناه من تشفعه بنفس الأولاد

والشيخ والشيخة ، إلى « زعيم الأشاعر » حين توعّده وطارده وقد يؤكد هذا ما افترضناه ان سجنه كان في نفس الفترة سواء كان قبلها أو بعدها .

نكبة الشيخ عمار

أما أن « ابن حمير » كان نزق الطبع له نزوات وصبوات ، وانه كان جشعاً يحب الانتقام فنستطيع ان نتعرف على ذلك مما رواه المؤرخون عن سلوكه مع بعض سلاطين وامراء وشعراء عصره .

قالوا : إن الشيخ عمار السَّبائي كان ممتنعاً على حصونه في « يُمين » مسيطراً عليها يقصده الوافدون فيرفد محتاجهم ، ويجير عانيهم ، وكان في نفس الوقت مطيعاً للملك « المنصور » ، فصادف أن قصده شاعرنا « ابن حمير » ووفد عليه مسترفداً ، ولكنه حين وصل إلى باب حصنه أقام ساعة من نهار لا يؤذن له فكتب إليه رقعة يقول فيها :

بالباب ـ أصلحك الله ـ امرؤ لسنٌ ... أمضه السير والادلاج والسهرُ
وافى إلى أرض « خولان » قصادفها ... مثل القتادة ؛ لا ظلٌّ ، ولا ثمرُ

فلما وقف الشيخ عمار على الرقعة تحركت أريحيته ، وكأنه لم يُشعر من قبل حجّابه بوجود الشاعر في الباب ، ولم يعلم انه قد أطال الوقوف ، فوقّع على ظاهر الرقعة : « بل كالغمامة فيها الظلّ والمطرُ » . وأمر بسرعة ادخاله عليه وأكرمه وأنصفه ، وأقام عنده مجلّلا أياماً ، ثم أجازه ، وأعطاه المال والهدايا ولما انصرف عنه صادف ان لقيه جماعة من عبيد الشيخ عمار فنهبوه وأخذوا ما معه ، فذهبت الظنون « بإبن حمير » كل مذهب ولم يعد إلى « عمار » شاكيا بل اتهمه ووقع في خاطره انه هو الذي أمر العبيد بالتعرض له لؤماً ، ولم يتورّع في هواجسه بل ذهب فوراً إلى مقر « الملك المنصور » الرسولي واستأذن عليه ، وحين دارت أحاديث الأدب في مجلس الشراب ، وامتزجت سوْرة الصهباء بثورة الحقد ، وتعتقت نشوة الخمرة بعقار الغضب ، أنشد الملك هذه القصيدة :

ما شاق قلبي أحداج واكوارُ ... ولا شجتني أعلامٌ وآثارُ !
ولا أسائل أهل النجد إن نجدوا ... ولا أسائل أهل الغوران غاروا
قد يزأر الذئب إذ لا حوله أسدٌ ... ويصهل «العير» إن لم يُلف خطّارُ ،
سررت باليمن الخضراء حين صفَت ... « لابن الرسول » فما في تلك اكدار

وكـــان فيهـــا عضـــاريطٌ زعـــانفةٌ ... فما بقـى من بني البـــظراء ديّـــار !
لكـن بقى فرد ثؤلـــولٍ يعـــاب به ... والنـــار تسهـل مركـوبـاً ولا العـارُ
ان قلت : لم يبق سلطان سوى «عُمرٍ» ... قالـوا : بلى وبقى السلطان «عـمارُ»
أو قلت : لا قصر إلا قصر «دُملؤةٍ» ... قالـوا : برأس «يُمين» القصر والدارُ !
أو قلتُ: ما أحسن «المعشـار» من «جؤةٍ» ... قالوا: وليس إلى «ذبحان» معشار !
فخـذ «يُمينـاً» ولا تقبل معاذره . . ... «فـالكلب حيث خلا بالعظم جبّارُ»
لم يتـــفـــق قط سلطانـــان في بلد ؛ ... هل يدخـل الغمـد بتـارٌ ، وبتّارُ ؟
ما غبـتَ الا رمى بالعـــين «دملوةً» ... وظـــل ينشـــد ، والأقـداح دوّارُ ؛
و «ابن المحلّى» يمنّيـه بملحمـةٍ ؛ ... كلاهمـــا انفقـــا ؛ طبـلٌ ومـزمـارُ !
مولاي : لا تحتقره «فابن مُلجم» قد ... عدا بحيـــدر ، والغـــدّار غدّار ،
بئس الخـبيئـة تحت الفـــرش قمّلةٌ ... و «السـد» شرّ كمينٍ تحته «الفارُ»!

ولا شك ان « ابن حمير » كان قد اختلق من الأحاديث وزوّر من التهم ما أثار طيش وغضب الملك المنصور ، وأنه قد روى عن « ابن المحلّى » الذي كان أحد ندماء وشعراء الشيخ عمار ما يهيج نزق الملك ثم أردف كل ذلك بهذه القصيدة التي تقطر أبياتها حقداً ، ولعل السلطان كان قد أنكر أموراً على الشيخ إذ أنـه ما لبث أن جهز لساعته جيشاً جرّاراً وهاجم به حصن « يُمين » ، واستولى على كل ما فيه وقتل « عمار السبائي » وقد قيل انه جعله في سلة ثم القى به من رأس الحصن ، وكان ذلك عام ٦٣٩هـ /١٢٤٢ م [عقود : جـ - ١ - ص : ٦٩] .

جشعه وتهديداته للمشايخ :

على أن حادثـة أخـرى تصور لنا تهالك الشاعر « ابن حمير » على المال وجشعـه والحـاحـه في الـطلب ، فقـد قصد مرة شيخا آخر اسمه عمران القطيعي المقصري يستجديه ويسترفده ، فطلب منه الشيخ الكريم الذي كان في أزمة ماليه يومئذٍ ان يمهله شهراً حتى يجمع ما يستطيع به اكرامه ، وأتاه على الوعد وكأنه كان لا يزال معسراً ولا يملك ما يستطيع به ان يرضى جشع شاعرنا فأرسل إليه يعتذر له ويستمهله شهراً آخر فكتب إليه « ابن حمير » ما يلي :

قل للفتى « عمران » والرجل الذي ... مازال يحفظ صحـــبـــتي وإخـــائي
حاشاك يا « عمران » تنقض صحبتي ... وتـضيـــع عهـــد محبتي ووفـــائي ،

وو‌عـــدتني بالخـير شهـراً كامـلاً ، وقـطعت بعـد الشهـر حبل رجائي
وبعثت نحــوي شاعــراً بمعــاذرٍ في « رحم » أم الشعـر والشعـراء !
والله ما يشـنــون فيـك بمـثــل ما أثنى ، ولا يهجـون مثـل هجائي !

وحـاشا أخلاق سيدي الفقيه ، واللبيب النبيه أن يضيّع أسباب الأخوة ، وان يقطع حبل المروّة ، وأن يكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة ، تعدني شهرا ، وتتبعه عذرا ، أرسلت إلى نابغة الأشعار ، وجهينة الأخبار ، يعتذر إلي اعتذار الجدير ، ويدل علي إدلال العزيز القدير ، ﴿**اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير**﴾ .

أتُهـيـجُ الأسـدَ من غابـاتهـا أتـثـير الـنـارَ من تحت الضرم
هاهــنـا والله سيـلٌ عَرِمٌ يأخـذ الحجّـاج من وسط الحـرمُ

الله أكبر نسخ العيان السماع ، وحلت الفرقة بعد الاجتماع ، وخربت خيبر فلا امتنـاع ، وأخذ « بن يامين » بالصواع ، فلم يبق الا أن ينصب الميزان ، ويجازي بعمله كل انسان ، ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذّبان**﴾ .

وهذا تهديد وقح ، وابتزاز سافر ، وجشع عرم ، وقد فزع الشيخ الكريم لذلك قالوا : « فما كان منه إلا ان قام بنفسه حافياً مُقرعاً وجرّ حصانه ونزل به ووهبه له معتذرا » .

سخر حتى من عروبته :

ولإبن حمير مدائـح كثـيرة في المشـايخ الاقطاعيين الذين كانوا يتغلبون ويتسلطنون على مناطقهم مستقلين بها عن الدولة المركزية سواء كانت في « صنعـاء » أو « تعز » أو « زبيد » أو « صعدة » ـ إذا لم يكن السلطان أو الملك أو الامام قوياً ، وتلك المدائح مبثوثة ومفرقة في كتب التاريخ وبعضها يسجل أحداثا هامة ولا يضمها ديوانه ـ أو أحد أجزائه ـ الذي نشره العلامة الأكوع ـ ومعظمها قد عبثت بها تصحيفات الكتّاب وتحريفاتهم ولكن شاعرنا كان سرعـان ما يتـبرأ من أولئك المشايخ و « المتسلطنين » إذا قويت شوكة « الحكومة المركزية » بل قد يدفعه التنكر لهم إلى الاغراء بهم ، والسخرية من عروبته وهو الذي كثيرا ما يزعم انه الفارس العربي الأصيل .

ومن يتمعّن في دراسة شعر « ابن حمير » مدحاً وقدحاً ، وغزلاً ووصفاً ،

يستنتج انه قد مثل عصره المضطرب المتناقض ؛ وانه كان « الشخصية النقيض » لتلميذه وصديقه الشاعر « ابن هتيمل » الذي كانت « شخصيته » ترتكز على « مبدأ » مكين راسخ لا يزيغ عنه ولا يفرط فيه ؛ مهما اختلفت الظروف ، وحتى حين يضطر إلى المصابرة والمطاولة ، والحذر والمجاملة فانه يمارس ذلك بعفّة واتزان ، وتذكر ووجدان ، ومراعاة لصوت الضمير والايمان .

وأما « ابن حمير » فلا يبالي أن يشتم اليوم من مدح بالأمس ، وهو أحياناً مع « المتسلطنين » في « الجبال » وأحياناً مع الاقطاعيين في « الغور » وأحياناً مع « السلطة المركزية » يغريها بهؤلاء وأولئك دون رأفة أو حنان .

وكما أغرى السلطان « المنصور » بالشيخ « عمار » السبائي ، وهدد « الشيخ المقصري » كذلك كان يغرى « المظفر » بمشايخ وزعماء تهامة ، وفي ديوان شعره المطبوع الكثير من ذلك ومن التعريض بالعرب والاعراب وفلان وفلان ؛ ولما أصدر السلطان الرسولي ـ وهو كردي الأصل ـ الملك المنصور « عمر » أمره بأخذ خيول العرب ومصادرتها قال قصيدة طويلة يسخر فيها من « العرب » ويتنصل من انتسابه إليهم ومطلعها :

مولاي « نور الدين » لا ... لاقيت صرف النوب
وعشْت ألفي سنةٍ ... في خفض عيش خصب
سمعت منك خبراً . . ... أطلت فيه عجبي ؛
ان كان من قصدكم . . ... أخذ خيول العرب
فانني من ساعتي ... أخلع منهم نسبي
أكون زنجياً ولا . . ... ادخل في ذا الحسب
إن أنا إلا فارةٌ ... في جحرَ ضبٍّ خرب
وما اختلاطي بهم ... إلا أشد التعب
والمرء معذورٌ إذا ... جانب أهل الريب

إلى أن يقول بعد أن سخر من نفسه :

لستُ « ابن كلثوم » ولا « عمرو بن معدى كرب
ان أنا إلا شاعرٌ أطلب فضل « العرب »
كالطير يسترزق من حبوب أهل الجرب
مولاي اني عبدكم منكم ، إليكم هربي
لا تخلطوني بهم فقد عرفتم نسبي
إن « آدمُ » جدهم فان « ابليس » أبي !

مع الامام الشهيد « أبو طير »

ولما قتل الملك المنصور الرسولي عام ٦٤٧هـ واختلف أمراء « الغز » وتقاتلوا وتصارعوا على السلطة وكان الامام أحمد بن الحسين قد ادعى الامامة سنة ٦٤٦هـ ظن « ابن حمير » ان نجم « آل رسول » قد أفل ، وأن راية سلطانهم قد تمزّقت ، فقلب لهم ظهر المجن ، وترك « المظفر » يصارع اخوانه وأمهم وأنصارهم من العبيد والغز ، ومشايخ الجنوب واتصل بصديقه وتلميذه الزيدي الشاعر « ابن هتيمل » فقدمه إلى الامام أحمد بن الحسين ، ولعل ذلك كان عام ٦٤٨هـ ومدحه بقصيدة طويلة يعرض فيها بالعجم ويشيد بعزة العرب ومطلعها :

لو لم يكن بي ياذات اللّمى - ألمُ ما قطعت كبدي الأطناب والخيمُ

ويقول فيها

ان الامام لمهديّ الانام فلا والله ما بسواه تهتدي الأمم
الحمد لله ذا وقتٌ أضاء به وجه الرشاد وزال الظلمُ والظلمُ
هذا الأمير « أمير المؤمنين » فان تزهو المنابر ، أو يرقصنَ ، لا جرم !
هذا الامام ، وذا السيف الحسام ، وذا الليث الهمام ، إذا ما أعيت الهمم
عزت به العربُ الأنصار دولته واستبشرت ولقد ذلت به العجم
جاءت به الخيل من «شام» ومن «يمن» والخيل تقرع « بالأتراك » تقتحم
فوارس زعموا أن لا مردّ لهم عنه فمزق جند الله ما زعموا !
ان الملوك يد « المهدي » غالبةٌ ان غالبوه ؛ ومهما راغموا رُغموا

إلى أن يقول يطمعه بالخلافة الاسلامية

مولاي ذا زمن أصبحت واحده فما مقامك إلا دونه القِممُ ؛

الشرق والغـرب مشتـاق وسـاكنـه إلى لقـائـك والاحـرام والحَـرَمُ
وفي ظهـور « بني العبـاس » قاطبـة لولاك ما هي في « بغـداد » تقتسم
هم يعلمـون بان السر فيـك وإن قد خادعـوك ، ولكن غير ما علموا
هذا زمـانـك إن طالـوا وان قصروا هذا أو انـك ؛ إن باحوا ، وان كتموا
ان الخـلافـة ما كانـت مخالـفـة بأنـك الحق فيهـا ، والمحـال هم !

ومضى يكيل المدح والاطراء مبالغاً مغرقاً إلى ان قال معرضاً بالايوبيين والرسوليين وسائر المعارضين للامام من السلاطين .

أمـا الملوك فحـارت في توصلهـا إلى مداك ، وقـد أعطيت ما حُرموا
مازلت أكـرمهم جداً ، وألـزمهم عهـداً، وأعـظمهم مجدا، وإن عظموا
كاف إذا قصروا ، وافٍ إذا غدروا برا إذا فجـروا ، عفّ إذا اثـمـوا
فرقـتـهم شذراً ، إذ حاربـوا قدرا وفي اعتقـادك ما لو سالمـوا سلمـوا
هذي المفـاخـر ؛ لا كأس ولا وتـرٌ وذي المـآثـر لا «عادٌ» ولا «ارم» ؟!
فالوقت وقتك من «عمروٌ» ومن «عُمرٌ» والـوحي ارثك ؛ لا شاء ولا نعم !

والقصيدة طويلة وقد اختتمها يعتذر عن تأخره من تأييده له قبل ان يُقتل الملك المنصور الذي كان شاعره بقوله

اني قدمـت من الأرض البعيـدة ما بغـير حبـلك بعـد الله ألـتـزم
ما اخـترت عنـك وقـوفي انما علل لم تخف عنـك ، وعـول كله حرم
بل كم وددت وصـولي ذا الجناب ولو اني على الرأس أمشي ان ونى القدم
أمـا وقـد نظرت عيني إليـك فلا أخشى الخـطوب ولـو يأتيني العـدم

وإذا كان قد قصد « ابن الحسين » الامام بهذه القصيدة عام ٦٤٨ أو ٦٤٩هـ كما قلنا فيكون قد جاوز « السبعين » ببضع سنوات ، ومع ذلك فما إن رأى نجم « المظفر » يتلألأ من جديد حتى ترك الامام وعاد إلى « زبيد » يمـدح ويطري الحاكم الظافر ولكن الشيخوخة كانت قد أخذت منه كل مأخذ وما هي إلا سنوات حتى توفاه الله بزبيد سنة ٦٥١هـ كما قال الخزرجي .

من غزلياته :

ولعل ألطف ما يمكن أن نختتم به هذه الترجمة مختارات من غزلياته التي ما يزال أبناء اليمن يتغنّون بها ويرقصون على ألحانها . ومن ذلك قصيدته

التي سلك فيها أسلوباً جديداً في عبث ومجون ، وسهولة ممتنعة وعذوبة ورقة ومنها :

لونُ الرياحين ولين الغصون ... أرخص مني كل دمع مصون
ياأهل وادي البان لي فيكم ... أَحْور أحوى بابليّ الجفون
يفتنني تفتير الحاظه ... وما فتور اللحظ إلا فتون
تقول عيناه لعشّاقه : ... « هيهات هيهات لما توعدون »
وردفه يقرأ من خلفه : ... لمثل ذا ؛ « فليعمل العاملون »
ومنه فوق الخد سطرٌ يرى : ... ما لكم ياقوم لا تعشقون
قلتُ وقد تيمني حبّه ... وأهله عنّي لا يشعرون :
ماذا جمالٌ ، هذهِ فتنةٌ ، ... ماذا هوى ياقوم ؛ هذا جنون !
يارائد الحيّ ؛ حديثٌ لنا ... أين استقل الجيرة الظاعنون
هم أوحشوني بعد انس وهم ... خانوا ، وما خلت مليحاً يخون

ومن رقيق شعره قوله من قصيدة :

خليلي من «سعدٍ» عفا الله ما مضى ... فلا تحدثا شرا جديداً وقد عفا ؛
أمستحسنً عذلي إذا الورق لي شدت ... على البان من نجد أو البرق رفرفا ؟
وهل ضايري دمعي إذا جاء عندما ... تذكرتُ الفاً لي قديماً ومألفا ؟
فان « امرؤ القيس بن حُجر» بعلمكم ... دعا صاحبيه يوم سقط اللوى: قِفا
و« قيساً » بكى الأظعان يوم عبوره ... على جبلي « نعمان » حتى تلهّفا ؛
وللناس أشجان ؛ فلو هان نازح ... على فاقد لم يبك يعقوب يوسفا !
وما لمت قلبي يوم سار بسيرهم ... ولكن الوم الجسم حين تخلّفا ؛
وقد كنت أخفيت الهوى وشجونه ... فأظهر هذا الدمع مني ما اختفى

ولما أقطع الملك المنصور ولده يوسف « المظفر » « رمعاً » وولد له ابنه « الأشرف » قال يهنيه :

هنئت بالولد الميمون والبلدِ ... ولا برحت سعيداً طيلة الأمدِ
في غرّة «الشمس»، في عزّ الشوامخ في ... سعادة « المشتري » في جبهة «الاسدِ»
أعيذه بعد أسماء الآله بقُلْ ، ... و « قلْ»، و «قلْ» وبوجه الواحد الصمدِ
من العيون، ومن ريب المنون ، ومن ... رقش المتون ، ومن نفاثة العقد

وفي وسع الناقد أن يلاحظ وهو يقرأ شعر « ابن حمير » و « ابن هتيمل »

ان الشعر الذي سقط في هاوية المحسنات اللفظية والبديعية في معظم الأقطار العربية خلال « القرن السابع » الهجري قد ظل في اليمن يحمل الطابع العربي الأصيل البعيد عن التكلف والصنعة .

وقد سبق أن أشرت إلى المفاضلة بين « ابن حمير » و « ابن هتيمل » وما قال « ابن سحبان » في ذلك ويقول الخزرجي وهو يتحدث عن الفقيه سراج الدين أبو بكر بن دعاس المتوفى سنة ٦٦٧هـ : « وكان شاعراً ماهراً فقيها نبيها نحوياً لغويا ، وكان أحد جلساء الخليفة وخصيصاً به وكان الخليفة يثني عليه ويفضله على ابن حمير ويقول : انما ابن حمير صاحب خلاعة » وهو يعني بالخليفة الملك المظفر ، ولا أظنه قد فضل « ابن دعّاس » شاعريةً وبلاغةً ، ولكنه فضله على « ابن حمير » علماً وفقهاً وسلوكا ، اذ ان المظفر لم يكن كأبيه « المنصور » صاحب مجالس لهو وشراب وطرب بل حازماً وقوراً وانظر العقود جـ - ١ - ص : ١٥٥ - ٢٣٧ .

٩٢ - محمد بن ذعفان الصنعاني

كان شيخاً جليلاً وهو من آل أبي عمرو المشهورين بالفضل والعلم ومنهم من سبقت ترجمته أبو فراس دغثم وغيره وكان محمد شاعراً مجيدا وله في الامام عبد الله بن حمزة عدة قصائد منها لما فتح صنعاء :

همم الخطير جليلة الأخطار ... محمودة الايراد والاصدار
وتفاضل العزمات في أربابها ... تجري بحسب تفاضل الأقدار
والناس مشتبهو الذّوات وانما ... ليس المعادن كلها بنضار
ان الياقيت الثمينة لم تكن ... مما تقاس بسائر الأحجار

ومنها

جاء ابن حمزة في الأنام بمعجزٍ ... من جنس معجز جده المختار
وأتى ابن بنت محمد كمحمدٍ ... ما أشبه الآثار بالآثار
كنا عن المنصور نرجو مخبراً ... حتى بدا يغني عن الأخبار

وهي طويلة ، وله شعر كثير لا يزال بين المفقود من آداب القرن السادس واحتلال الامام لصنعاء للمرة الثانية كان عام ٦١١هـ .

[مطلع جـ - ٤ - لوحة ٣٥٦] .

٩٣ ـ محمد بن نشوان الحميري

العالم اللغوي الأديب الشاعر بن الشاعر القاضي محمد بن نشوان بن سعيد الحميري كان من أكابر العلماء والفقهاء في أيام امامة عبد الله بن حمزة ، وقد ترجمه الكثير من المؤرخين لهذه الفترة منهم ابن ابي الرجال فقال : « كان بحراً من البحار ذكره الشيخ ابن حجر العسقلاني ونقل عنه وذكره الجلال الاسيوطي وغيرهما ، وقال صنوه العلامة علي بن نشوان : هو رجل غزير العلم والمعرفة ، جم الحفظ في جميع العلوم والفنون » ثم قال : « ولّاه الامام المنصور عبد الله بن حمزة القضاء وإقامة الجمعة في مغارب خولان ونواخي حيدان ومرّان وما يوالي تلك الجهات من النواحي والبلدان وأسند إليه قبض الحقوق من أهاليها ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واقامة الوزن والكيل بالقسط ، ونفى الجور ، فقام في ذلك أتم قيام وأحسنه » إلى ان قال : « وله في اللغة ضياء الحلوم مختصر شمس العلوم تأليف والده نشوان بن سعيد وكانت وفادته إلى الامام المنصور إلى حصن كوكبان وقرت عين القاضي بامامته بعد أن باحثه في دقائق المسائل وجلائلها ولما أراد توديعه في شهر رمضان سنة ٥٩٤هـ ودّعه بهذه الأبيات :

ياسيداً سبق السادات كلهم ... إلى مدى بالغ في المجد والجودِ
وعالماً بذّ أهل العلم ان له ... من ربّه لطف تدقيقٍ وتسديد
وقائم مكّن الرحمن وطأته ... على البرية من بيضٍ ومن سودِ
أله آتاك ما لم يؤته أحداً ... من الأئمة من نصر وتأييد
أجابك الناس من شام إلى يمنٍ ... ملقين في كل أمرٍ بالمقاليد

ثم اغرق في الاطراء وأطال إلى أن قال :

ياأيها الناس قد نادى امامكم ... فاسعوا إليه بتشمير وتجريد
عبد الآله الذي جاد الآله به ... فشدّ ما كان منا غير مشدود
ان ابن حمزة مذ نيطت تمائمه ... أحيا الذي مات من آبائه الصيد
آل النبي وأبناء الوصيّ ومن ... لهم على الناس فضل غير مجحود
لهم مناقب من عين ومن أثر ... يجل في الوصف أن يحصى بتعديدِ
هذا الامام الذي كنا نؤمله ... وكان يروى بتصحيح الاسانيدِ !
فالحمد لله إذ أعطى ارادتنا ... فيه وقرّبها من غير تبعيدِ
قد اختبرناه خبر العارفين له ... حق اليقين ولم نقنع بتقليدِ

فكـــان في الخُـــبر أوفى منـه في خَبرٍ　　مستحسن كنسيم المسـك محمـودَ ،
جئنـــا إليـــه فأولانـــا الجميـــل ولمَ　　يرض القليـل ولم يبخـل بموجود ،

***

يامـن يعــزّ علي البعـــد عنـــه ومن　　أُعـــدّ طاعـــتـــه نســكــاً لمعــبـودِ
نفسي فداؤك والأقــوام كلهــم　　من المــكــاره لو ان أمــرءاً فودي
ولــو تخلّد في الــدنيــا أخــو كرم　　لكـنـت أكــرم من يحظى بتخليــد
آن الرحيل وصبري اليوم عيل فجد　　بحسن « فسحٍ » وجود منك معهودِ
لولا الشــواغــل لم أسمح ببعدك في　　قِيدٍ من الفِـترِ بل بعض من القيـد
ما هاج قلبـــي أولاد ، ولا وطـــنٌ　　ولا اشتيــاق إلى البيض الأمــاليـد
لكــن شواغـــل دهـــر ما علقت به　　من غيرهــا عادني من همهـا عيـدي

ولم يحدثنا ابن ابي الرجال عن عام ولادة له ولا وفاة ؛ بل ؛ واكتفى بهذا الثناء والاطراء على المترجم له ولم يتعرض للخصومة التي حدثت بينه وبين الامام عبد الله بن حمزة والتي كادت أن تؤدي بحياته ، ومن المعلوم ان شعره لا يرقى إلى جودة شعر والده نشوان بن سعيد الذي سبقت ترجمته باسهاب في السفر الثالث ومما يلفت النظر قوله :

آن الرحيل وصبري اليوم عيل فجد　　بحسن « فَسحٍ » وجود منك معهودِ

والفَسح بالفتح شبه الجواز يقال فسح الأمير له بالسفر أي اعطاه فسحاً بذلك وأهل اليمن لا يزالون يستعملون ذلك إلى اليوم وهو لا يقتصر عندهم على الأمر المكتوب الذي يشعر بالأذن بل ويعني إكرامية ومصاريف سفر أشبه بما هو معروف عند أهل نجد والحجاز عندما يقولون « سنّع » الأمير فلانا ، أي اذن له بالسفر وأكرمه بمنحة مالية .

خصومة الامام و « ابن نشوان »

والخصومة التي اشتعلت نارها ، وحمي إوارها بين الامام « ابن حمزة » ، والعالم « ابن نشوان » الفقيهين الشاعرين الزيديّين وقف منها القاضي أحمد ابن أبي الرجال في « مطلع بدوره » موقف المتجاهل ، وأعرض عن ذكرها ولم يشر إليها لا من قريب ولا من بعيد ؛ بل أعرب وهو يترجم له بما يوحي الى القارىء ان الامام كان يجلّه ويقدّره وانه كان راضياً عنه كل الرضا ، ولم يعب

عليه شيئا حين ولاه أمور مخلاف خولان صعدة لأنه قد نهض بأمر الولاية بأمانةٍ وديانة وقام بها أحسن قيام وأتمّه ، وان العالم ابن نشوان قد كان مخلصاً في ولائه للامام فهو : « قد طهّر الدنيا ونوّرها بنور وجهٍ جميل منه مسعودِ » ! « وأونقَتْ به رياض الحق » « بالعدل مفترة مخضرّة العودِ » ، وهو الامام الذي أحيى الهدى ورعى » و « أحيى الذي مات من آبائه الصيد » بل قال

« هذا الامام الذي كنا نؤمّله وكان يُروَى بتصحيح الأسانيد »

بل انه « يعد طاعته نسكاً لمعبود » ! وليس بعد ذلك ما يتطلّب من ولاء .

وهو موقف يلفت النظر وكأن المؤرخ ابن أبي الرجال قد حرص على تنزيه الإمام من انه قد أمر بقتل العالم الذي يجلّه ويقدره كما أراد تنزيه العالم عن ما يُنسَب اليه من تصرف مشين بأموال الصدقات ، ومضايقته لأبناء خولان ، وما قيل فيه من أنه قد بغى على امام الحق ! فتجاهل تلك الخصومة مع انها مشهورة معروفة تناقلها المؤرخون ، وسبق أن أشرت انها قد جنت على كتب الهمداني كالاكليل وصفة جزيرة العرب لأن محمد بن نشوان هذا قد شطب منهما ما يريد من أخبار الامام الهادي وأولاده والكثير من أشعار أنصارهم وأخبارهم ؛ وقد فصّلت ذلك في ترجمتي للهمداني وقلت ان إعادة النظر فيما نشر من كتب الهمداني أمر لازب لأنها التي اختصرها « ابن نشوان » .

غير أن مؤرخاً آخر عاصر القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال هو السيد يحيى ابن الحسين بن الامام القاسم قد ذكر تلك الخصومة وأسبابها وهو يترجم لابن نشوان في كتابه « المستطاب » أو طبقات الزيدية الصغرى فقال :

« وله مؤلفات أشهرها وأجلّها كتاب ضياء الحلوم المنتزع من شمس العلوم في اللغة مجلدان ضخمان قال السيد : وكان قد طلب الولاية من الامام المنصور بالله فولاّه على الكتاب والسنة وجعل اليه أمر القضاء والحكم في بلاد خولان في مغارب صعدة فتصرف ومعه اخوته في البلاد وملأ كلّ منهم يديه وتموّلوا بأموال الله تعالى واشتروا الأطيان لأنفسهم وكان الامام يحملهم على السلامة ويحسن فيهم الظن ، ويعاتبه بعض أصحابه في أمرهم ويذكر له ما كان والدهم عليه وادعائه للامامة فلا يقبل فيهم ، ثم لما نفذت

احكامهم في خولان وانقادوا لهم قام محمد بن نشوان في سوق من أسواقهم فتكلّم في أمر الامام وعزل نفسه من الولاية وأظهر التوبة والتعفّف واجتهد في تنفيرهم عن طاعة الامام وباين وناصب وجعل عذره في ذلك ما بلغ اليه من أنّ الولاة في « الظاهر » قد أطلقت أيديهم في أموال المسلمين يأخذون منها ما يشاءون ، وان المساكين ممنوعون من أموال الله ، وان الامام ولّى هنالك رجلاً باطنياً ، وأسند ذلك إلى ثقة ، فاختلفت خولان فمنهم من اغترّ به ومال إليه ، ومنهم من استقام على طاعة الامام ثم احتربوا ووقع بينهم قتل وكان محمد بن نشوان بعد عزله نفسه من الولاية ، وتوبته من الطاعة ، قد طمع في أن يصير إليه الأمر ، وقد أنشأ رسالة سماها « الايضاح » تضمّنت ايراد اعتراضات على الامام في سيرته وجعلها نسخاً كثيرة وبعث بكل نسخة إلى جهة ، فطارت نسخة منها إلى صعدة ، وعرضت على الامام فأجاب عليها بالرسالة الموسومة « بالافصاح » بالغة مبلغها من العلم والحجج ، ولما قضيت صلاة الجمعة أمر الامام بقراءة الرسالة التي أنشأها جواباً ، ولم يتسع الوقت لتمامها فصعد المنبر وذكر طرفاً من أمور آل نشوان بما أظهروه من السب والأذى الخ قال السيد أحمد الشرفي : وكان ممن حضر الجمعة من « زُبَيد » رجل يسمى حسين بن يحيى من قرية الهجر فسمع من الامام كلاماً في إباحة دمائهم وأموالهم فذهب ذلك الرجل الى بلده وقد وطن نفسه على قتله والتقرّب بذلك إلى الله تعالى فقعد له من تحت الليل وقد رصده أياماً في موضع بالقرب من داره فرماه بحجر فأخطأه ، ثم وثب عليه فسحبه على وجهه وانتزع الشفرة يريد ذبحه وقد وضع رجله على خدّه فالتوت العمامة على حلقه ولزم القاضي بطرفها على السكين فلم يتمكن من اجرائها على حلقه وأسرعت الغارة عليه ثم تعقّب ذلك مكاتبات ومراسلات من آل نشوان إلى الامام باظهار الطاعة » .

وقد رويت الحادثة بروايات أخرى غير ان ما ذكره يحيى بن الحسين أقربها إلى الصواب المعقول وهي تؤكد ان الخصومة كان سببها سياسياً وتنازعا على الولاية وحطام الدنيا ، وان ابن نشوان قد أغضب الامام لما كتب رسالته « الايضاح » يدعو فيها الناس إلى خلعه وربما أن قوماً قد أبلغوا « ابن نشوان » أن الامام يريد عزله فكتب ما كتب وأعلن ما أعلن من خروجه عن طاعة الامام . ولا شك ان مثل ذلك يغضب الامام ؛ ونحن نعلمه نزق

اللسان والقلم والسيف ونعرف تشدّده فيما يراه حقاً ضد ما يعتبره باطلاً فكان ما كان .

ثم يأتي مؤرخ معاصر هو العلامة محمد بن علي الأكوع فلا يقف موقف المؤرخين السابقين بل يكون همّه ابراز محمد بن نشوان في مظهر المصلح الاجتماعي ، واظهار الامام ابن حمزة في صورة الظالم المعتدي الذي أخذته العزّة بالاثم عندما نصحه ابن نشوان فيقول في ترجمته له في هامش الجزء الأول من الاكليل ما يلي :

فهم بيت فضائل وفواضل جمعت عن كمل ، ورياسة متأثلة منذ الأزل فوالده نشوان أشهر من أن يوصف وكذلك أسلافه ، وكان محمد هذا رابع أربعة أولاد أبيه ما منهم أحد إلّا وهو مبرز في كل فن ، وعلماً من أعلام العلم ، ووعاءً من أوعية العرفان وبحراً متدفقاً ، متحلياً بكل فضيلة . فمن أخلاق تزري بالنسيم لطفاً ، ومن كرم يباري الريح سبقا ، ومن شعر فصيح ، ونثر مليح ، وترسّل بديع ، وتواليف جمة الفوائد ، منها : ضياء الحلوم مختصر شمس العلوم ـ الذي لوالده نشوان ـ في مجلدين ضخمين ، وهو موجود في بعض الخزائن اليمنية وغيره من المؤلفات ، وكان مع اشتغاله بالدرس والتأليف يتولّى مخلاف خولان صعدة الذي غالب هذا الجزء يعني الاكليل ـ مخصّص في قبائله ، لأنه استوطنه ، ولما قام ودعا الامام المنصور بالله عبد الله بن حمزة سنة ٥٩٣هـ أقرّه على عمله واستمر على ذلك إلى أن بلغه ان الامام المنصور بالله قام بأعماله المعروفة ضد الطائفة المطرفية ، وان الامام أيضاً أباح لعماله الذين في ظاهر همدان بالظلم ، وأخذ أموال الناس من غير حلها ، فشدّد النكير على الامام ، ونقد أعماله ، ودعا الناس بما فيهم خولان المذكورة بشق عصا طاعة الامام ومخالفته الأمر الذي أوجد عليه قلب الامام فأباح دمه ، وعامل رجلاً على أن يقتل محمد بن نشوان فانتدب له ممتثلاً ليجري العملية المأمور بها ! وكمن له إلى أن خرج من صلاة العشاء الآخرة وطعنه ولكن لم تصب مقتلاً ، وقبضه محمد بن نشوان ؛ وظل يتعارك مع الرجل حتى جاءت الغارة فأفلت ذلك الرجل وتمكن من الفرار موليّاً الادبار ، ولما علمت خولان ان ذلك من قبل الامام قامت حرب أهلية بين شيعة الامام وأنصار محمد ابن نشوان ، وأخيراً انتهت بالموادعة وتحكيم محمد

بن نشوان والرجوع إلى قوله والمصير إلى رأيه كذا في طبقات الزيدية الصغرى للعلّامة المجتهد يحيى بن الحسين بن المنصور ومطلع البدور لابن أبي الرجال » [هامش جـ ١ ـ أكليل ـ ص ـ ٧٩ ـ ٨٠] .

تعقيب

ولا أريد أن أعلق على ما في كلام العلّامة المؤرخ من أخطاء ولا على مبالغاته في الاطراء واغراقه في المدح بما يمكن وما لا يمكن ؛ فذلك هو أسلوبه المعروف وتلك هي ملكته البيانية ، وهو معذور ؛ ولكني لا بد أن ألفت النظر إلى انه قد اختلق أحداثاً ؛ مثل الطعنة بالسكين ، وأن الرجل قد انتدبه الامام نفسه لقتل بن نشوان ، وانه قد استاء من الامام لأنّه قد قام بأعماله المعروفة ضد المطرفية ، وان الحرب الأهلية قد انتهت بالرجوع إلى قول ابن نشوان والمصير إلى رأيه وتحكيمه ، ثم قال وبكل شجاعة وإقدام « كذا في طبقات الزيدية الصغرى ومطلع البدور » ولم يشر إلى أيّ مصدر آخر ، وقد أوردنا نصّ ما قاله المؤرخان وليس فيما قالاه أي شيء مما تخيّله القاضي العلامة المؤرخ محمد بن علي الأكوع وانظر [مطلع البدور الجزء الرابع ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩ والطبقات لوحة : ١٣٦] .

ولو أنه قد قال ويخيل لي كذا وكذا ، أو قال ونظن ، أو ربما أو لعلّ ، ثم يقول ما يريد وما يختار وما يرجّح أو ما يدفعه إليه هواه لما اعترض عليه أحد إذا خالفه فيما يرجّح ، أو يظن ، أو يهوى . !

وطالما أشرت وكررت القول ولن أملّ تكراره إلى ان كتب التاريخ اليمني عبر العصور ـ ان لم أقل التاريخ الاسلامي ـ في أمسّ الحاجة إلى غربلةٍ واعادة صياغة ، بانصاف وتجرّد وانها ليست في حاجة الى اضافات مبعثها الهوى والتعصب بكل اشكاله الطائفية والعنصرية والمذهبية ، بلْه اختلاق أحداث ، ثم نسبتها إلى أناس هم منها براء .

ولا نريد أن نظلم العالم « ابن نشوان » ولا نتجنّى على الامام « ابن حمزة » في قضية ابن نشوان ، ولا نرضى أن نغمط حقاً من حقوقهما العلمية والفكرية أو السياسية ، وقد سبق أن أصحرت بكلامي وبيّنت رأيي الديني والأدبي والسياسي في مأساة المطرفية ، والأرجوزة المرعبة ، بعنف قد

لا يرضي البعض ، وباسلوب ربما اشتم منه من يرى رأي الامام ابن حمزة في طائفة المطرفية شيئاً من التحيّز إلى جانب تلك الطائفة المنكوبة لكني أزعم أن ابن نشوان لم يغضب ولم يخرج عن طاعة الامام غضباً لتلك الطائفة ، بل للأسباب التي ذكرها السيد الشرفي ونقلها عنه يحيى ابن الحسين وتحاشى عن ذكرها ابن أبي الرجال ؛ ولا أدري لماذا لم يتلق المؤرخ الأكوع كلام يحيى بن الحسين بالقبول وقد وصفه بالانصاف في بعض هوامش الكتب التي حققها وقال عنه « العلامة المجتهد » ؟

ولعل السؤال ا لأصح والأصوب أن نقول لماذا حرّف كلامه ونقل عنه وعن ابن أبي الرجال ما لم يقولاه ؟ انه وحق العلم سؤال محير ! .

جناية ابن نشوان الحقيقية :

أما رأيي في العالم الشاعر محمد بن نشوان فلا يجحد فضله ولا ينكر علمه وأدبه وكيف وهو قبس من نور والده نشوان الذي كان عبقرياً ؛ وسواء عندي قيامه بولاية خولان الشام بديانة وأمانة ، أم أنه قد أساء القيام ولم يحسنه ، فذلك تاريخ وكثيرهم الذين أحسنوا القيام في عصره ؛ وكثيرهم هم الذين أساؤا ، وعند الله حساب وثواب الجميع ، ولكن الذي أنكره عليه ، عبثه بكتب وآثار الحسن بن يعقوب الهمداني ، وقد فصّلت الخبر عندما تحدثت عن الهمداني في السفر الأول ولم يذكر أحد سنة وفاة ابن نشوان وهل قبل عام ٦١٤هـ أم بعدها .

٩٤ ـ مُسلّم بن العُلَيف

فقيه أديب شاعر عاصر الشاعر الكبير محمد بن حمير ولاحاه ، وقد سبق أن ذكرت القصيدة التي هجاه بها « ابن حمير » ومطلعها :

غيري تدلّهه الفتاة العيطلُ ... ويشوقه الغادون حيث تحمّلوا

وأشرت إلى أن « ابن العليف » قد أجابه بعدّة قصائد ومنها قوله :

بأية شيءٍ بعدكم أتعلّل ... ومن أي وجهٍ بعدكم أتجمّل ؟
وما العذر حتى لا ألام على البكا ... عليكم ولا فيما أجدّ وأهزلُ ؟

وقد جارى فيها « ابن حمير » في السبّ والفحش والاقذاع وكال له الصاع صاعين .

وقد أنشأ « مسلّم » بن العليف قصيدةَ مباهاةٍ ومفاخرة سماها « الدامغة » ومن المؤرخين من يسميها « العليفية » وقد طعن فيها على قبائل « قحطان » وافتخر بالعدنانية وأولها :

ما عبت مذ كنت للأحباب مظنونا ولا بثثتُ من الأسرار مكنونا

وأبياتها إثنان وستّون بيتاً فاخر فيها بالأنبياء والمرسلين ومنها :

وانما الصبر منا كان شيمتنا جرّا علينا السفاهين السفالينا
فلو عرجنا إلى الآفاق سيق لنا داني الأبوّة والأُمّات يؤذينا
وانما أغضبتني سبّة ظهرت من بعض أصحابنا في « الفاطميّينا »
ولم يكن ردّنا في أن نسبّهم إلّا محاذرة من أن يسبّونا
أما وقد كان ما قالوا فلا حرج على السلاطين أن تخزي الشياطينا

***

ونحن نعلم ان « ابن حمير » توفى عام ٦٥١هـ ولا ندري هل عاش بعده « ابن العُلَيف » أم توفى قبل هذا التاريخ وهو من شعراء وأعلام تهامة اليمن .

٩٥ ـ السيد يحيى بن أحمد بن حجلان

ترجمه ابن أبي الرجال وقال كان عالماً بالعربية شاعراً وأورد له قصيدة قال انه أنشدها الامام عبد الله بن حمزة سنة ٥٩٦هـ بصعدة [مطلع ج ٤ ـ لوحة ٤٤٦] .

٩٦ ـ يحيى بن أحمد الزيدي

من مشاهير العلماء المحققين الذين عاصروا الامام عبد الله بن حمزة وكان أديباً شاعراً [مطلع ج ٤ ـ لوحة ٤٤٦] .

٩٧ ـ الفقيه يحيى بن محمد بن الحسين الزيدي

من معاصري الامام عبد الله بن حمزة ترجمه ابن أبي الرجال وأورد له قصيدة وقال كان عالماً باللغة والأدوات بارعاً في الكتابة والشعر [مطلع جـ ٤ ـ لوحة ٤٥٣] .

٩٨ ـ يحيى بن منصور المفضل

من شعراء العلماء وفقهاء الشعراء السيد يحيى بن منصور بن مفضل ترجمه ابن الوزير فقال « كان سيداً عالماً متبحراً في العلوم والفنون بلغ في علم الكلام خاصة الغاية القصوى ضارباً فيه باليد البيضاء ، سالكا فيه المحجة الغراء ، اشتهر بالكلام ، وبرز فيه على سائر الأنام ، ولجج في غماره ، واحتوى على فرائد تياره ، وخاض عباب الموج من زخاره ، ولم يعلم في وقته لأحد من أهل البيت ما له في هذا العلم ، وله فيه مصنفات عديدة ومن أجودها وأنفعها « جُمل الاسلام » وهي بالغة نهاية الحسن والافادة ، وغاية الاحسان والاجادة ، وقال رحمه الله انه رأى قبل تصنيفه لهذا الكتاب كأنه يغرس نخلاً في الأرض وهي خمسة عشر جملة تحتوي على التوحيد والتعديل وغيرهما من الاصول والقواعد ، ومن طالعها عرف مهارة مصنفها ، وانها فيض علم كلّي واختصار ماهر ألمعي وشرحها رحمه الله شرحاً فائقاً ، وعلى الجمله فهذه الجمل كافلة لمن اتقنها بالكفاية في هذا الفن وصاحبها قد أحاط بالجلي من علم الكلام والدقيق وحقق فيه نهاية التحقيق وعدل إلى ترجيح الجمل دون التعمق ومثله اختار الغزالي في أحياء علوم الدين » وقد ترجمه أيضاً العلامة ابن ابي الرجال في المطلع والسيد يحيى بن الحسين في المستطاب ونقلا كلام ابن الوزير وقال يحيى بن الحسين معقباً : « وأحسن من الجمل من مصنفاته كتاب الصراط المستقيم في مجلد ضخم فيه الحجج البينة من الكتاب والسنة والمناقضة لبعض من مسائل المعتزلة وكان هو أحق بالمدح من الجمل لأن الجمل ليس فيها من الأدلة ما في هذا الكتاب وللشريف يحيى أشعار فصيحة بليغة في هذا الشأن ومن قصيدة له طويلة قوله :

ياطالب الحق ان الحق في الجمل ... وفي الوقوف عن الافراط والزلل
هي النجاة فلا ترضى بها بدلاً ... بذا اتاك حديث السادة الأول

ولم يذكر أحد سنة ولادته ولا عام وفاته لكن ابن الوزير قال انه كان في

زمن الامام أحمد بن الحسين الذي استشهد سنة ٦٥٦هـ .
[تاريخ بني الوزير لوحات ١٨٥ ـ ١٨٦ ـ ١٨٧ والمستطاب لوحة : ١٦٧ ـ ١٦٨ ومطلع البدور ج ـ ٣ ـ لوحة ٤٥٥] .

٩٩ ـ شاعر « البالْ بالْ » :
أبو حذيفة النقيب العدني

هذا شاعر لا ضريب له بين شعراء عصره فيما بين يديّ من كتب التاريخ والمؤلفات اليمنية التي تحدثت عن دول ، واعلام ، وأدباء ، القرن السادس الهجري ، وهو شاعر « شعبي » بلغة كتاب عصرنا ، أي لا يتقيّد في شعره بإعراب أواخر الكلم ، ولا يلتزم قواعد النحو والصرف المعروفة ، ويستعمل الألفاظ الدارجة على ألسن العامة ، والشعر من هذا النوع يعرف عند اليمنيين بالشعر « الحُميني » . وهو هذا الشعر الغنائي الملحون الذي يقابل عندهم الشعر المعْرب والذي يسمونه الشعر « الحِكَمي » .

ووجود مثل هذا الشعر في القرن السادس وبالأسلوب المتين الذي احتذاه الشاعر « أبو حنيفة العدني » يغيّر المفاهيم الزمنية عن تاريخ الشعر « الحميني » كما نسميه ، أي « الشعبي » ، أو « العامي » كما يريد لنا ان نسميه بعض الأدباء ، ، ؛ ويؤكد ما ذهبت إليه قديماً ؛ أولا في « قصة الأدب في اليمن » ، وثانيا في كتابي « من الأدب اليمني » عن أقدميّة هذا النوع من الشعر العربي الذي لا يلتزم قواعد الإعراب ولا يتقيّد بها ، وانه في اليمن عتيق ، ولعل أوشاج نسبه متوغّلة في أعماق جذور العصر الجاهلي . ولا أستطيع ان أتصور أن « شاعرا » يستطيع أن يختلق أو يبتدع طريقةً جديدة في الشعر العربي ويؤلّف فيها ديواناً ، ويكون مقبولاً متداولاً غير مستغرب ولا محارب ، بل متلقّى بالقبول ، وله اسم معروف وذلك ما حدثنا به « أبو مخرمة » في كتابه « ثغر عدن » عن « النقيب » وشعر « البالْ بالْ » !

ولعل أوان الحديث عن الشعر العربي الملحون قد آن ، وأن نغتنم فرصة وجود بضع قطع منه قيلت في العصر الذي نؤرخ لآدابه في اليمن فنقف معه موقف دراسة قد تكون خير ما نختتم بها هذا السفر الرابع والأخير من كتابنا .

ولكن علينا أولا أن نقدم الشاعر أبا حنيفة وشعره الملحون وننقل ما قاله عنه الشيخ « أبو مخرمة » نقلاً عن « الجندي » و « الخزرجي » .

ولعل ما سننقله عن « أبي مخرمة » لن يشبع رغبة البحث ؛ فهو لا يستطيع أن يسميه ! وهو لا يعرف إلا كنيته ولقبه ! ولا يدري متى ؟ ولا أين ولد أو مات !؟ ولكنه يشعرنا بأنه قد اطلع على ديوانه ، وعنه ، أو عن الخزرجي نقل النماذج التي اتحفنا بها . وقد وردت هذه النماذج مضبوطة ضبطاً معرباً وكأنها شعر فصيح محكم يلتزم قواعد الأعراب ، ومن شعر « حسان بن ثابت » أو « أبي العلاء المعري ! وليست من الشعر الملحون الذي سماه أبو مخرمة « شعر البالْ بالْ » ونسميّه « الحُميَنْي » أو « الشعبي » فأفسد ضبطُها بتلك الطريقة الشعر ! والسبب أن الذين تولوا نشر كتاب « ثغر عدن » لأبي مخرمة فضلاء من المستشرفين بمطبعة « بريل » في مدينة « ليدن » عام ١٩٣٦ م وهم لا يعرفون اللهجة اليمنية ، ولا يميّزون بين ضبط الشعر الحُميني كما يترنم به أو يتناشده اليمنيون ، وبين ضبط الشعر الحِكَمي المُعرب الملتزم لقواعد الاعراب نحواً وصرفاً . وحرصاً على أن يتلوها القارىء - ولا سيما من غير اليمنيين - ويقرأها قراءةً سليمة فقد ضبطتها ضبطا « حُمينيّاً » يمنيّا كما يتلوها ويقرؤها أهل اليمن .

قال أبو مخرمة : « أبو حنيفة النقيب العدني الشاعر له ديوان ، ومعظمه في مدح عبد الرحمن بن راشد صاحب الشحر ، وأشعاره مستحسنة ، غالبها في « البالْ بالْ » من ذلك قوله :

أَنـا اشهَـدْ شهـادَةْ حقّ آن ابن راشِـدْ مِن احـدى المـعـجـزاتْ
هيكل الملكْ ، حرز المملكة فارسَ الـ . . . خَيـل ، مَعْـدُومْ الـصـفـات
تعِبَت عيسْ وفّاده ، وما أتعبته الـ . . . عَـطـايا والـهـبـاتْ
أَنت قولكْ خُذُوا والغير هاتُو ؛ وأَين قَو . . . لَتْ : خذوا من قولْ هاتْ ؟
أَلف مولاي مِنّي أسمَع مديحْ لك على رغـم أنـاف الـشُـنـات !
بَلْ لسـان العُـلى والمجـد أَنْـطَقْ بأفـعـالـك المـسـتـحـسـنـات
كَمْ وكَمْ بينْ مَن يُعطي مئَهْ في هباتِهْ ومَـن يعـطـي مئـات ؟

وله من قصيدة أخرى :

أنـتَ أنـتَ الـذي لَوْ عَادَلُـوا بكْ ملوكُ الـورى ؛ لم يعـدِلُـوكْ
أنـتْ في الـبَرِّ وهّـابْ القُـرى ، أنتْ في البحـر وهّـابْ « الفلوك »
إنْ مُدِحْ بالكـرمْ مُعْـطِى الميـه ؛ فَبِـما يُمتـدحْ معـطي اللكـوك ؟
كلّ ملاّكْ قحـطان الـورى بكَـفـالَـت بنـيـهـم كفّـلوكْ

ومن جيد شعره قوله رداً على من عاتبه من عدن على اختيار الشحر :

عنّفـونيْ ، وقـالـوا أطلتَ التغـرّبْ ، وأوحَـشْـت الـوَطـن !
وتعوّضْتْ عن « صِيْره » « بصِيغَت » واعتضتَ « الاشْغا » عن « عدن »
و « بسَمعـونْ » و « الصرحَـة » تناسيتْ « حُقّـات » والـوجـه الحسـنْ
والـقـصـورْ الـتي تِبتَـدِرْ منهـا الـ . . حدود الـتي صيـغـتْ فِتَـنْ
قلت : قد غابْ عنـكـمْ أمـرْ ما يفـطَنِـهْ غيرْ أربـابْ الـفِـطنْ
ورضيـتْ « ابن راشـد عبـد رَحْمن » ، عن كلّ من هُوْ في الـيـمـنْ
من حبـاني ، وأدنـاني ، وقـرب مكاني ، ولـي مـا طـنّ طـنْ !
واصـطفـاني ، واطـلـعـني على مضـمـون سِرّه ، والـعـلنْ
وان تولـيـت بعـد الله في الخـلقْ غيره . أكـنْ عابـدْ وثـنْ !

و « الأشغا » و « سَمعون » من أسماء « الشحر » قال : وأما « صيغت » فأظنه حصن بالشحر ثم قال : ولم أقف على ترجمة لأبي حنيفة المذكور الا ان الخزرجي [ت ٨١٢هـ] تبعاً للجندي [ت ٧٣٣هـ] ذكره في ترجمة السلطان عبد الرحمن بن راشد وقالوا انه شاعره المنقطع إليه . قال الخزرجي وسأذكره في موضعـه ؛ ولم يذكـره في الكنى ؛ فلعل له اسم يعرف به ، فذكره في الاسماء ، وإلاّ فليُبحث عن ترجمته ؛ ثم رأيت منقولاً عن تاريخ الجندي ما نصه : « وقد تتطلع النفس إلى معرفة الشاعر ابي حنيفة فهو أحمد من أولاد التجار في عدن ، وكان نقيباً لفقراء زاوية جوهر ، وغالب شعره في ابن إقبال المذكـور ، وربـما مدح المظفـر وغـيره وشعره « بالْ بالْ » انتهى ما ذكره الجندي ، ولم يذكره الخزرجي فيمن اسمه أحمد ، ولا في الكنى » [ثغر عدن جـ ٢ ـ ص : ٦٥ ـ ٦٦] ذلك هو كل ما تسرب إلينا من أخبار الشاعر أبي حنيفة النقيب ، ونستطيع أن نستخلص ما يلي :

١ ـ ان اسمه أحمد وكنيته أبو حنيفة .
٢ ـ ان أباه كان أحد تجار عدن .
٣ ـ ان لقب « النقيب » اطلق عليه لأن فقـراء « زاوية جوهـر » في عدن

انتخبوه لهم نقيبا .

٤ ـ له ديوان شعر معظم قصائده من شعر « البالْ بالْ » .

٥ ـ هاجر من « عدن » الى « الشحر » أيام ولاية السلطان عبد الرحمن ابن راشد وكان شاعره المفضل وعوتب على ذلك .

٦ ـ انه بعد تلاشي أمر السلطان الراشدي قد عاد إلى « عدن » وربما « تعز » لأنه قد مدح الملك المظفر الرسولي بعد استيلائه على حضرموت ومعظم جنوب وشرق الجزيرة . .

أما متى ولد ومتى توفى فلم يخبرنا أبو مخرمة بذلك ؛ ولكني إذا رجعت إلى طريقتي التي الجأ إليها إذا أعيتني الحيل متى عاش من اتحدث عنه فلعلّي استطيع أن أحدد زمنا تقريبياً للفترة الزمنية التي عاشها شاعرنا « أبو حنيفة » « نقيب الفقراء » !

فالمؤرخون قد حدثونا ان السلطان عبد الرحمن بن راشد ابن إقبال ملك الشحر قد استولى على حضرموت جميعها بالشراء من ولاتها سنة ٦٣٣هـ ولكنها خرجت عن يده بعد ثلاث سنوات تقريباً ثم ملك ابن شمّاخ حضرموت بعد عبد الرحمن بن راشد سنة ٦٣٦هـ وقد أشار إلى ذلك المؤرخ محمد الشاطري [أدوار التاريخ الحضرمي ص : ١٧٦ جـ ـ ١ ـ] فهل نستطيع ان نقول : إن الشاعر النقيب قد اتصل ومدح السلطان عبد الرحمن وانقطع إليه ما بين عام ٦٢٥هـ و٦٣٣هـ وهي الفترة التي أمِر فيها أمر سلطان الشحر ودخلت كل حضرموت تحت سيطرته ، حتى تغلب عليها ابن شمّاخ لفترة من الزمن ثم استولى عليه الرسوليون ؟ وإذا افترضنا ان « أبا حنيفة » حين اتصل بالسلطان بن راشد كان قد جاوز الخامسة والعشرين من سني حياته وأصبح شاعراً مشهوراً فتكون ولادته حوالي سنة ٦٠٠هـ أو قبل ذلك بقليل . ثم لما تلاشى أمر « ابن راشد » ، واحتل الرسوليون حضرموت عاد الشاعر إلى وطنه عدن ، ومدح الملك المظفّر الذي نعلم انه تولى الملك بعد قتل أبيه نور الدين عمر بن علي بن رسول سنة ٦٤٧هـ ، ومن المعلوم انه قد ظل مدة طويلة في صراع مع منافسيه من آل رسول ومع الامام أحمد ابن الحسين الذي استشهد عام ٦٥٦هـ . . فصفا الجوّ وخلا للملك المظفر وملك اليمن جنوباً وشمالاً وسهلاً ووعراً وبراً وبحراً ، وفي أثناء ذلك اتصل به شاعرنا « أبو حنيفة » وحبّر فيه قصائد المدح كما يقول المؤرخون .

وكل ما اشرنا إليه وذكرناه ، لم يحدثنا به مؤرخ ، وإنما استنتجناه وافترضناه ، إفتراضاً لعله لا يبعد عن الصواب ، ولو وجد ديوان الشاعر لعرفنا الحقيقة جلواء ناصعة ، واستغنينا عن هذه الاستنتاجات والافتراضات التي قد لا يرضى عنها المنهجيون المحدثون !

ولكن أحداً لا يستطيع ان ينكر ان ما روي من شعر « البالْ بالْ » وهو فيي نظرنا ضرب من الشعر الملحون « الحميني » « لأبي حنيفة » الذي اتصل بعبد الرحمن بن راشد ملك الشحر وحضرموت قبل سنة ٦٣٣هـ ومدحه وانقطع إليه أقدم بكثير من الوقت الزمني الذي حدده المؤرخون أو بعضهم وأقرّه بعض النقاد الذين قالوا ان أحمد بن محمد بن فَليته المتوفي سنة ٧٦٢هـ هو الذي اخترعه أو « أوضح محجّته » حسب تعبير ابن شرف الدين .

البالْ بالْ

وقبل أن نتحدث عن « الشعر الحميني » واختصاص اليمنيين به ، ومن أين اشتقت التسمية وماذا تعني لديهم لا بد أن نتساءل ماذا عني « أبو مخرمة » بقوله وأشعاره مستحسنة غالبها في « البالْ بالْ » ؟

والذي أراه ـ ولعلي لا أبعد عن الصواب ـ ان اليمنيين منذ القرن السادس الهجري وربما من قبل ذلك بقرون كانوا يطلقون على الشعر الملحون الذي لا يلتزم قواعد الاعراب المعروفة عدة أسماء تميّز كل نوع منه عن الآخر . . . وأنهم قد أطلقوا اسم « البالْ بالْ » على الشعر الملحون الذي تكثر فيه الفاظ « البَلْبلة » كإضافات خاصة تعويضاً لقصور التعبير عن الموسيقى عند تلحين ذلك الشعر ؛ إذ أن المغنّى اليمني كثيراً ما يلجأ في بعض أوزان « الحميني » إذا تغنّى به كتكملة لتوقيعاته إلى « بَا » ، و« لاَ » ، و« بَلْ » و« بَالْ » و« بَلي » و« بَالي » . ويتألف من ذلك « نسق » له تفعيلة منغّمة تنسجم معَ « الصوت » أو اللحن الذي يترنم به . مثل :

بَلْ ـ بَلي ـ بَالا ـ بَالاَبَلي ـ بَلْ ـ بَلي ـ بَالْ .
أو : بَلْ ـ بَلْ ـ بَلي ـ بَالاَ .
أو : بالَهْ ـ بَلي ـ بَلْ .

ولكل ذلك أمثال معروفة في شعر الغناء اليمني .

ولعل غالب ما كان يلتزمه الشاعر « أبو حنيفة » من أوزان الشعر الملحون ـ وهي لا تُحْصى ـ مما تصلح إضافة مثل هذه « البَلْبَلة » إليه إذا غنّاه منشده ؛ علماً بأن ثمة نوع من شعر الغناء اليمني يسمى « البالة » وهو ما يبتدي ملحنه بعبارة « الباله والليله البَال » ! وله أصواتٌ وألحان وتوقيعات شتى تختلف لهجاتها ، وأنغامها باختلاف المناطق اليمنية ، وتعدد لهجات سكانها ؛ « وبَالةُ » صعدة وشام اليمن ، غير « بالة » عدن وحضرموت ، و« بالة » خُبان ووادي بنا ، غير « بالة » تهامة وهكذا ـ ولعل لِكلمة « البال » : الخاطر ، وحس القلب ووجدانه ، صلة وعلاقة بهذه البلبلة .

كما أن هناك مقاطع أو ألفاظ يدرجها الملحن أثناء انشاده ولنفس الغرض ـ غير « البَلْبَلة » مثل « يا » و « ليل » و « دَانْ » مثل لَيلْ ـ دانْ ـ يالَيلْ ـ دانْ ، ـ لَيلْ ـ دانْ ـ يالَيل ـ دانْ .

مضافاً إلى ذلك عبارة ـ « الله لطيف » متبوعة بياليلْ دَانْ ، وأحياناً تستعمل « دان » مع مقطعي « آه » و « وا » لتكون نمطاً مثل

آه ـ ودانْ ـ وَادَانْ ـ آه ؛ أو « آحْ » .

ولعلهم كانوا يسمون هذه « الدَّنْدنة » : الدّانْ ـ دانْ » .

وفي بعض الأغاني يستعملون « لا » و « لي » وفي بعضها « إي » و« هي » و« بي » و« يه » و « يِيْه » . وقد فصّل كل ذلك الدكتور الشاعر الفنان السيد محمد عبده غانم في كتابه النفيس « شعر الغناء الصنعاني » وضرب الأمثلة لكل اللوازم الغنائية ، وقال : إنها « إضافات خاصة الغرض منها التعويض عن قصور العبارة الشعرية عن العبارة الموسيقية المقابلة لها » . [ص : ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١] .

واذن فنستطيع القول : ان التسمية : « البالْ بالْ » اشتقّت من هذه الإضافات التعويضية المقابلة للتوقيعات الموسيقية ، وهناك أسماء أخرى قد لا نستطيع أن نعلّل بعضها وقد قال الخزرجي وهو يتحدث عن ديوان « ابن فَليته » أكبر شعراء الحميني أو « الشعر الملحون » في القرن الثامن « انه اشتمل على ألوان من الشعر لم تكن معهودة بين الأدباء كالدوبيت والحلاوي والموشحات والبال بال ، والساحليّات ، والحُمينيات » . وإذا كنا قد عرفنا معنى « البال بال » ، ونعرف من أين وردت لفظة « الدوبيت »

و « التوشيح » فلا أدري ما هو الشعر « الحلاوي » !؟

ولعل « أبو حنيفة » توفى حوالي عام ٦٦٠هـ وهو يزحف إلى السبعين والله أعلم .

المجلس
الأعلى
الإسلامي

الشعر الحميني

قلت ان الشعر الملحون الذي لا يتقيّد بقواعد الاعراب ولا بالمصطلحات والاشتقاقات الصرفية قديم في اليمن ، وان جذوره متوغلة في أعماق العصر الجاهلي ، وخالفت بذلك كل الذين قالوا انه ليس بقديم بل من مخترعات شعراء ما بعد القرن السابع الهجري ، وانه دخيل على ساحة الشعر العربي في اليمن ؛ وكنت قد تعرضت لهذا الموضوع في كتابي قصة الأدب في اليمن وتحدثت عن الآداب الشعبية اليمنية « كالزَّامل » ، و« القصيد » ، و« الغناوي » ؛ ثم قلت ان الشعر الحميني جماع آداب اليمن الشعبية ، وانه مما اختص به أهل اليمن ولم يعرف عند غيرهم ، وان اشكاله وبحوره كثيرة ومتعددة وكل الأغاني والأناشيد في مختلف المواضيع تصاغ غالباً في الشعر الحميني ، وقلت « ان كل الأوزان والبحور المعروفة في الشعر العربي يبتسر أعاريضها أهل اليمن في شعرهم « الحميني » ، ويبيحون لأنفسهم ان لا يتقيدوا بالحركات النحوية ، بل يسكّنون ويجزمون أواخر الكلمات تبعاً للنغم ، والتوقيع الموسيقي ، ولا يبالون ان يجمعوا بين « بحرين » في بيت واحد ، ويضيفون إلى ذلك ما يبتدعونه من « تفعيلات » موقّعة ، وان لهم أوزان وبحور أخرى لم يشر إليها « الخليل بن أحمد » ولا غيره من علماء العروض ثم قلت يومئذ سنة ١٣٨٠هـ / ١٩٦١ م » اما أصل تسمية « الحُميني » وهل هو نسبة إلى شخص أو بلد أو فن قديم لا نعلمه ، أو انه مصحّف من لفظة الحميري ؟ فلم يعرف بعد ، ونقلت ما رواه الرافعي عن صاحب « سلافة العصر » انه من اختراع أهل اليمن ، وهو « موشح » لا يراعى فيه الاعراب بخلاف « موشح » أهل المغرب . ثم أوردت ما ذكره السيد الأديب عيسى بن لطف الله شرف الدين المتوفي سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٩ م . وجامع ديوان ابن عمه محمد بن عبد الله بن الامام شرف الدين والذي قال في مقدمة الديوان ان « الحميني من النظم الذي ولع به المتأخرون ولم يسبق إليه الأولون » وإن « أول من أظهر حجته ، وأوضح

محجّته ، في الديار اليمنية الفقيه شهاب الدين أحمد بن فليتَه » ، وهي الكلمة التي جنت على تاريخ الشعر الحميني ؛ وكل من جاء بعد ابن لطف الله تأثر بها وجزم بأن هذا الفن الجميل لم يظهر الا في القرن الثامن وان الذي اخترعه « ابن فليته » ، وجاء المؤرخون من نقاد عصرنا فزعموا انه قد ورد إلى اليمن من الخارج وانه اقتبس من « الموشحات » الاندلسية ! وكل ذلك سراب أوهام .

وكان المؤرخ يحيى بن الحسين المتوفي حوالي سنة ١١٠٠هـ قد قال في كتابيه « غاية الأماني » و« أنباء الزمن » وهو يتحدث عن أحداث عام ٨٣٨هـ ان الشعر الحميني ظهر في اليمن في ذلك العام استناداً إلى كلمة السيد عيسى بن لطف الله ، وان أول ظهوره في بلاد حجة ! ولا يخفى ما في هذا القول من خلط ووهم ، إذ أننا نعلم ان « ابن فليته » توفى في منتصف القرن الثامن ؛ ولعل « إبن الحسين » حاول أن يخبرنا عن أولية تأثر سكان « إقليم حجة » بنوع جديد من شعر الغناء اليمني كان قد ظهر في إقليم « تعز » ونواحيها !

ولقد فنّدت في « قصة الأدب » دعوى « ابن لطف الله » وقلت ان أدباء اليمن قد عرفوا « الشعر الحميني » قبل الزمن الذي حدده ، واستندتُ إلى نصوص حمينية قديمة ، مثل تلك التي رواها ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦هـ عن شيخه ابن الربيع وهو يتحدث عن غيل البرمكي فقال وهو نهر يشق صنعاء اليمن وفيه يقول شاعرهم :

واعويلاه إذا غابْ الحبيبْ عن حبيبهْ إلى مَن يشتكيْ
يتشكّى إلى والي البلَدْ والدموعْ ، مثل غيلْ « البرمكي »

ثم قال مستغرباً : « وهو شعرٌ غير موزون ، وهو مع ذلك ملحون ، وأوردنا كما سمعناه من الشيخ » ! وسبب استغراب المؤرخ الأديب « ياقوت » انه لم يعرف أسلوب الشعر الحميني ولهجته اليمنية ، ولم يتمكن من قرائته الصحيحة ؛ فزعم أنه « غير موزون » ، لأنه نطق كلماته حسب قواعد الاعراب النحوية ففسد الوزن عليه . مع انه « حمينياً » موزون وعلى اللحن الصنعاني المشهور : « ياحمامي أمَانِه ما دهاكْ » ؟!

ثم قلت ان مجرد ذكر ياقوت لهذين البيتين دليل قاطع على ان « الحميني » قد وجد وعرف قبل « ابن فليته » بأكثر من قرن ولم أكن يومها [عام ١٣٨٠هـ] قد اطلعت على ما كتبه « أبو مخرمة » عن « أبي حنيفة » وشعر « البالْ بالْ » .

ثم أوردت ما نقله الاصفهاني في الجزء السادس من الأغاني وهو يترجم لأعشى همدان من شعراء القرن الأول للهجرة لما روى عن أحد المشايخ قوله : سألت الأصمعي عن أعشى همدان فقال : من الفحول وهو اسلامي كثير الشعر ؛ ثم قال العجب من ابن « داب » حين يزعم أن اعشى همدان قال :

من دعَالِيْ « غزيّلِيْ » أربحَ اللّهْ تجارتِه

ثم قال : سبحان الله ؟ أمثل هذا يجوز على الأعشى ؛ ان يجزم اسم الله عز وجل ، ورفع تجارته وهو نصب ، ثم قال قال لي « خلف » : والله لقد طمع « ابن داب » في الخلافة حين يظن ان هذا يقبل منه ، ومع ذلك ان قوله « من دعالي غزيلي » لا يجوز ، إنما هو « من دعا لِغزيّلي » ومن دعا لبعيرٍ ضال » !

وقلت : إن « الاصمعي » و « خلف » قد تحاملا على ابن داب لأنهما لم يطلعا على آداب اليمنيين الخاصة بهم كأمثالهما من علماء العراق والشام ، واليمنيون لا يزالون يجزمون هاء الجلالة ويرفعون المنصوب وينصبون المرفوع في الشعر الحميني الملحون ، والنص في حد ذاته ولو وجد من يتشكك في نسبته لشاعر يمني فحل يثبت قدمه وتغلغله في أعماق التاريخ .

ثم استطردت وأوردت نصاً ذكره الهمداني في صفة الجزيرة وهو يتحدث عن وادي « سعوان » نسبه لبعض قدماء حمير وهو

وأحلك الأرضْ « مسورْ » وأختها « ببتَوْعَرْ »
و « أحورْ » فأحور و « سعوانْ » لو تمطر

وقلت ربما قد نقص النساخ منه وحذفوا فان وزن المقطع الأخير « وسعوان لو تمطر » لا يخرج عن وزن قصيدة « شقيق القمرْ أسفرْ » المشهورة وأوردت نصاً آخر ذكره الهمداني في الجزء الثاني من الأكليل لشاعر جاهلي وهو :

ويـلْ ذي دولـة أيّ ويـلْ الـذي ليس له مالْ يبـيـعـه

وهو بيت حميني وزنا ، وطريقةً ولحنا .

ثم قلت ان أبيات امرؤ القيس : « تطاول الليل علينا دمّون » قالها على طريقة وأسلوب الشعر الحميني [قصة الأدب ص : ٢٠٣ ـ ٢٠٦ ـ ٢١٦ ـ ٢١٧ ـ ٢١٩] .

تلك هي خلاصة ما قلته عن أقدمية « الشعر الحميني » قبل ربع قرن ؛ ثم مرت أربعة عشر عاماً بعد ذلك ، فلما ألّفت كتابي « من الأدب اليمني » سنة ١٣٩٣هـ تعرضت وانا انقد كتاب الدكتور عبده غانم « شعر الغناء الصنعاني » لذكر « الشعر الحميني » تاريخه وأطواره ، وأصل الكلمة ، وأوجزت ما سبق أن ذكرته في « قصة الأدب » ، ثم أوردت ما جدّ لدي من معلومات تثبت خصوصية أهل اليمن بذلك الفن ، وانه أصيل وليس مستورداً ، وقديم وليس متأخراً ، وذكرت ما قاله المسعودي في مروج الذهب ؛ ان الاغاني اليمنية « كانت تصَنّف إلى صنفين « حميري » و « حنفي » وان « الحنفي » منها أكثر حلاوة وأقرب إلى قلوب الناس » وقلت ان النساخ قد لعبوا دوراً في تصحيف ومحق اللفظتين « حميري » و « حنفي » ، وان اصلها « حُمَيْني » و « حِكمي » ، والدليل على ذلك انه لا يوجد في أي كتاب يمني ، ولا في روايات الناس ، ما يشير إلى وجود نوع من الشعر ، أو الغناء يُدعى « حميري » ، أو آخر يسمى « حنفي » ، وإنما الموجود والمتداول هو « الحميني » و « الحكمي » ، وان « المسعودي » قد راق له « الحكمي » لأنه يفهمه ويتذوقه .

كما أوردت ما نقله « أبو الفرج الاصفهاني في الأغاني [ج ٦ ـ ص ٢١٢] عن « الخليل بن أحمد » وهو يتحدث عن « وضاح اليمن » و « روضة » التي كان يهواها ، وانه قال « لم يجد لهما خبراً يرويه إلا في كتاب مصنوع غَث الحديث والشعر لا يُذكر مثله » ، وقلت : إن ذلك الكتاب الذي رفضه الخليل قد ضمّ اشعاراً « حُمينية » ملحونة غير معربة ، نسب بعضها إلى « وضاح » ، وهو ما لا يتصوره ولا يعقله الخليل ، الذي يعد وضاحاً من الشعراء الفحول ، فكيف يروي له مثل هذا الشعر « الغث » ؟ وهو نفس

موقف « سيبويه » و « خلف الأحمر » من « إبن داب » وما نسبه إلى « أعشى همدان » .

ثم قلت : إن « مصنوع » ، « غث » ، « لا يذكر مثله » ، أبدع وصف للشعر الحميني يستطيع ان يقوله علماء بغداد والشام ؛ وهم معذورون لأنهم يجهلونه ، وليت ذلك الكتاب « المصنوع » « الغث الحديث والشعر » وصل إلى أيدينا ، إذن لوجدنا فيه بغية المراد . ولوجَدنا أمثلةً من النصوص « الحُمينية » قيلت في القرن الأول الهجري .

وتعرضت لموقف أبي العلاء المعري من قصيدة امرؤ القيس « المسمطة » في رسالة الغفران [ص : ١٦٦ - ١٦٧] .

يـاصَـحـبـنـا عرّجـوا تـقـفْ بـكـم أُسُـجَ
مـهـريـةٌ دلـجُ فـي سـيـرهـا مَـعَـجُ
طـالـت بـهـا الـرحَـلُ
فـعـرّجـوا كـلـهـم والـهـمّ يشـغـلـهـمْ
والـعـيـس تـحـمـلـهـمْ ليـسـت تـعـلّـلـهـمْ
وعـاجـت الـرمـلُ

إلى آخرها . . . وكيف انكر المعرّي ان تكون من شعر امرؤ القيس ، وقال إنها موضوعة ، وان الرّجز من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرجز ، وقلت إن موقف أبي العلاء يشبه موقف « سيبويه » و « خَلَف » و « الخليل » وأن هذا الشعر الذي سماه المعري « تسميطا » يصلح ان يكون أصلاً تاريخياً للشعر الحميني الملحون ، وان عَروضه لا يزال مستعملاً حتى يومنا هذا ومنه قول الكوكباني :

يـاقـلـب مـا رحـتْ لـكْ مـن عـشـقـتَـك للـغـوانـي
فِـوَيْـتُـراتْ الـمـقَـل !

وقول الآنسي :

يـقـرّب الله لـيْ بـالـعـافـيـة والـسـلامِـة
وصـلْ الحـبـيـبُ الأغـنْ

وأوردت بيتاً آخر من قصيدة لامرؤ القيس أولها [ص : ٨٠ ديوان امرؤ القيس] :

يابؤسْ للقلبْ بعـد اليـوم ما آبِـه ؟ ذكرى حبيبٍ ببعض الأرض قد رَابِه

وقلت : إن وزنها وطريقة تسكين الأحرف الأخيرة نهج « حُميني » معروف حتـى الـيوم ، وزعمت ان امــرؤ القيس قد سكن سين « البؤس » وميم « اليوم » وكسر باء « آبه » و « رابه » كما يفعل شعراء الحميني حين ينشدون ويلحنون ما يرد على وزن أبيات امرؤ القيس مثل قول ابن شرف الدين .

يامن سلب نوم عيني طرفِه النعاس وعذّب القلب ما بين الرّجا والياسْ

وانه بذلك يحق لنا ان ندعى ان امرؤ القيس أمير شعراء « الحمينيّين » كما كان أمير « شعراء الحكميين »!

وبعـد أن ادعيت ان الموشحات الاندلسية قد ابتدعها شعراء يمنيون متأثرون بأشعارهم وأوزانهم الحمينية ؛ قلت ان لفظة « حميني » قد اشتقت من لفظة « حَمَن » ؛ الصقع اليمني الذي ذكره ياقوت في معجم البلدان وقال الزبيدي في تاج العروس في مادة « حمن » انه ماء يمان ، وذكر عرضاً الشعر الحميني وزعمت أن النسبة قد لطَّفَتْ سكون الميم بحرف علة ، أو صغرتها للتحبب والفن ! [من الأدب اليمني ص : ٣٥٣ ـ ٣٥٥ ـ ٣٥٩ ـ ٣٦٣ ـ ٣٦٦] .

التسمية لغوية

ومـرّ أحد عشر عاماً أو أكثر ؛ منذ نشرت كتابي « من الأدب اليمني » عام : ١٣٩٣هـ /١٩٧٤ م حتى يومنا هذا ، وأنا لا أقرأ شعرا « حمينيا » ولا أسمـع لحنـاً من أغانيه ، ولا أترنم بشعره ، أو أنظمه وجداً وحنينا ، إلا تسـاءلت في قرارة نفسي : ولمـاذا سموه « حُمَينياً » ؟ ومن أين جاءت هذه التسمية ؟ غير مقتنع بذلك التعليل الذي اعتسفته وتكلفته قبل أحد عشر عاما ، وزعمت أنه نسبة إلى « الصقع أو الماء « حَمَن » و « حمنان » ، وكدت اسخر من نفسي حين قلت يومها جاداً ان الياء في « الحميني » كانت تلطيفا أو تصغيراً للتحبب والفن ! وهل يعقل هذا ؟ ولم يخفف من سخريتي إلا أن أحداً ممن بحثوا عن الشعر الحميني وألّفوا فيه لم يأت بجديد !

وقرأت وسألت ونقّبت ؛ وقال لي المؤرخ العلامة القاضي محمد الأكوع ان قريةً تسمى « حُمَين » توجد في ناحية نسيتها من نواحي لواء « آب » ! وفكرت طويلاً ؛ وقلت لنفسي إذا صحّت النسبة لغوياً فكيف يصحّ فنياً وأدبياً ، ان ينسب شعره إلى قرية ؟ وتذكرت ذلك الرجل « سماك بن مخرمة بن حُمين الأسدي الذي هرب من علي عليه السلام إلى الجزيرة وله مسجد بالكوفة معروف ؛ فارتحت وقلت إذاً فقد كانوا يسمون بهذا الأسم « حُمَين » والنسبة إليه « حُميني » ، ووجدت انهم قد سموا به المرأة ، ودعوها « حَمنة » ، ومنهن « حمنة » المعذّبة في الله تعالى التي اشتراها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فأعتقها ، و « حمنة » بنت جحش التي قتل عنها مصعب بن عمير رضي الله عنه فتزوجها طلحة رضي الله عنه ، و « حمنة » بنت أبي سفيان ، بل وسموها « حُمينة » كجهينة ؛ ومنهن « حمينة » بنت أبي طلحة ، والكلُّ صحابيات رضي الله عنهن وإذن فللفظة « حمن » معنى لغوي محبّب ويُتفاءل به وهو خفيف على اللسان ، ولا شك انه ضد لفظة أخرى فيها شدة وصعوبة وصلابة ؛ ورجعت إلى القاموس وتاج العروس ، فوجدت فيهما ان « الحوامين الأماكن الغلاظ المنقادة » الواحدة حومانة ، وقال أبو خيرة الحوامين شقائق بين الجبال وهي « أطيب الحرونة » ليس فيها « آكام ولا أبارق » واستنتجت من ذلك ان لفظة حَمَن ، يحمِنُ ، حَمناً ، وحمانة ، تدل على السهولة والطيبة ، ولكن سهولة ولطف وطيبة الشيء الصعب الغليظ أصلاً ؛ فالحوامين هي « الأماكن المنقادة في الأماكن الغلاظ ، وهي « أطيب الحرونة » ؛ لا « آكام فيها ولا أبارق » ؛ والأبارق هي الأرض الخشنة فيها حجارة ورمل وطين مختلط . ولما كان الشعر أصلاً كما قال الشاعر الراجز القديم

الشعر صعبٌ وطويلٌ سلّمُه إذا مضى فيه الذي لا يعلمُه
زلّت به إلى الحضيض قدمُه يريد أنم يعربه فيعجمُه

ولما كان المعرب منه المحكم المتقيد بقواعد الاعراب والصرف أشده صعوبة ؛ راوغ اليمنيون تلك الصعوبة ، وعالجوها بدهاء ، واخترعوا هذا الشعر الذي لا يبالي بحركات الاعراب ، والذي وان كان شعرا صعباً لا يجيده إلا أصحاب المواهب فهو أطيب وأرق وأحمن وأسهل من ذلك المعرب المحكم ، ولعل لفظة « حمن » في اللهجة الجنوبية تدل على معنى سهل

ورق ، وهناك المئات من الألفاظ العربية الفصيحة كان يتداولها أهل اليمن ولا يزالـون ولكنها لم تدوّن في المعاجم وقد اشرت إلى ذلك في كتابي قصة الأدب في اليمن ومنها في غالب الظن « حَمَنَ » .

وإذن فالكلمة مشتقة من « حمن » بمعنى سهل ورقّ ولطف ومنها أيضا اشتقّـوا أسـماء « حمنـة » و « حمينـة » للمـرأة الرقيقة السهلة وسموا الرجل « حُميناً » لنفس السبب أو تفاؤلاً ، ولما وجد اليمنيون أن في الشعر المتقيد بحـركـات الاعـراب والمحكم نحـواً وصرفاً صعوبة ولا سيما إذا أرادوا ان يصوغوا أو يوقّعوا على أوزانه وبحوره ألحانهم الخاصة سموه « حكمياً » ، واخترعوا لألحانهم وأغانيهم بحوراً وأعاريض وأوزاناً تعتمد أكثر ما تعتمد على « السكون » ولا تتقيد بحركات اعراب ولا بمقاييس الصرف والنحو ، ولا ببحور وأوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وسموا هذا النوع « الشعر الحُميني » .

هذه هي قصـة رحلتي الفكـرية واللغـوية مع « الحميني » وأظنّ أن ما توصّلت إليه ـ بتوفيق الله وعونه ـ منطقي لأن دليله نابع من نفس الكلمة ومدلولها اللفظي والمعنوي وليس تخمينا أو حدساً ؛ وسيتلاشى بهذا كل ما أثاره الدكتور عبد العزيز المقالح في كتابه النفيس « شعر العامية في اليمن » من تساؤلات ؛ وقوله ان افتراضـي بأن نسبة « الحميني » إلى « حَمَن » الصقع أو الماء يؤيد ما افترضه الدكتور غانم وزعمه ان « الحكمي » نسبه إلى منطقة « حكم » ؛ إذ اني قد أثبت الآن منطقيا ان النسبة قديمة وليست إلى مكان أو صقـع أو ماء بل إلى اللفـظة بمـدلـولها اللغوي وهو السهولة واللطف والانـطلاق التي هي من أهم خصـائص الغناء . ويتأكد مقابل ذلك ان « الحكمي » نسبه إلى « الأحكام » الذي يدل على التشدد والصعوبة والتزام القواعد النحوية والصرفية ، ومن أجل ذلك يصف النقاد من يبالغ أو يغرق في الاغـراب والتفـاصـح بالتشـدّق والتقعّـر ولا يوجد ذلك إلا في الشعر « الحكمي » ومن يمارس الشعر « الحميني » لا يستطيع أن يتشدّق أو يتقعّر .

ولعـل من واجبي أن أذكـر ان كتـابي الـدكتورين الشاعرين « غانم » و « المقـالـح » أفضل ما كتب عن « الحميني » حتى الآن وقد وقفت وقفة طويلة مع « شعـر الغناء الصنعاني » للدكتور غانم في كتابي « من الأدب

اليمني » ، وسأقف وقفة نقاش أطول مع كتاب الدكتور المقالح « شعر العامية في اليمن » في كتابي « الشعر الحميني » إن شاء الله . والهدف خدمة اللغة العربية وآدابها وإحياء المؤود منها في « اليمن » .

الشعر الحُميني والموشّحات الأندلسية

مما لا شك فيه ان أهم البواعث على اختراع العرب للشعر هو الغناء ، ولأجله « توهّموا أعاريض وعملوها موازين للكلام » ؛ وبعد أن استملحوا وأعجبوا بهذا الكلام الموزون الذي يستطيعون الترنّم به ، ويحدُون بأنغامه قوافلهم ، وتستوعب تفعيلاته تقاطيع ألحانهم ، توسّعوا في إبداع الأوزان ونوّعوها ، وصنّفوها بما ينسجم والحركات النفسية ، وتتفق حركاته اللفظية مع تفاعيلها ، ويكون هذا قالباً لذاك ؛ حماسةً أو فخراً ، أو غزلاً أو حنيناً ، أو مدحاً أو رثاء ، أو وصفاً ، أو غير ذلك ، وهو حقا ما يتميز به الشعر العربي عن سائر أشعار الأمم ، وبه لا يستطيع العربي فطرةً وطبعاً ان يسمى غيره من أنواع البيان شعراً .

وبذلك التوسع والتبحر في صياغة الأعاريض وجدت أوزان لا تصلح للغناء ، واخترعت تفاعيل ما يسمونه « الرجَز » لدوافع لاتمّت إلى الباعث الأول ، والمهم لاختراع الشعر ؛ وهو ما مهّد لهذه الكثرة الكاثرة من المنظومات العلمية في الفقه والفرائض والنحو والصرف والبلاغة والتاريخ ، وغير ذلك ، وظلت هناك ألحان وأنغام ليس لها تفاعيل لفظية ، ونغماتها وتقاطيعها الموسيقية لا يمكن تطبيق أصواتها التي تخرجها الضربات على الأوتار المختلفة على بعض أصوات الحروف المتحركة المعربَة المحكمة في بحور وأوزان الشعر العربي التقليدي .

ولما كان لكل قطر عربي أنغامه الخاصة به ، وبعض تلك النغمات لا تنسجم أصواتها وتقسيماتها الموسيقية مع أعاريض الأوزان الشعرية التقليدية كان لا بد ان يكون لكل قطر « شعر غناء » خاصٌ به لا يستطيع الالتزام بتلك الاعاريض الشعرية التقليدية التي هي ملك لكل العرب ، وجامعة لفنّهم الشعري العام ؛ وذلك في نظري هو الباعث على اختراع اليمنيين للشعر الحميني وموشحاته ، وبحورها وأوزانها وتفاعيلها الملحونة التي هي أحفل بالتلحين الموسيقى من أوزان أعاريض الشعر المعرب الموزون

المقفى ، وللسبب نفسه فان الانسان يطرب للجيد من الشعر المعرب إذا سمعه أو قرأه ، ولكن معظم التواشيح الحمينية لا يبلغ الطرب بها غايته ، ويكون وقعها حسنا إلا إذا وقّعت ألحانا .

والنقّاد مجمعون على ان سبب اختراع شعراء الأندلس لأوزان تواشيحهم هو الغنـاء لا غير ، وقد استدلوا على ذلك بأن الأندلس فتحت في القرن الأول الهجري ، ولم يُخترع « التوشيح » إلا في الربع الأخير من القرن الثالث ثم لما أقبل أدباء الأندلس وامراؤها على الأغاني والموسيقى دعتهم الحاجة إلى التفنن في تلك الأوزان وأبدعوها أنواعاً شتى . وقد قتل الدارسون والكتّاب هذا الموضوع بحثا ودرسا ؛ وقالوا : إن هذه الصناعة لا ضابط لأوزانها إلا الألحان فهي موطّأة للاختراع بمقدار ماتجرؤ عليه القرائح ، ولذلك تعددت فيها الأوزان واختلفت طرق الصنعة ، فلا سبيل إلى حصرها إلا بالتلقّي ، واتصال السند عن أهلها ، وكان اسم التوشيح عاماً لجميعها ؛ فلا تخصّص الأوزان إلا بأسـماء الحـانها فقط كما هو الشـأن في أدوار الغنـاء » وانـظر [جـ - ٣ - ص - ١٦٣ - الرافعي] .

وذلك بعينه ما نعرفه بالنسبة إلى « الشعر الحميني » الذي لا تُحصى ولا تُعد أوزانه الغنائية ، وما برحت قرائح الفنانين من شعراء اليمن تتفنّن في اختراع واستنباط أوزانه حسب قوة وجرأة تلك القرائح وانسجاماً مع التواقيع والضربـات المـوسيقية المتجددة ؛ وآخر المبدعين في ذلك الشاعر عبد الله عبد الوهاب نعمان المعافري .

نعم لقد ألّف الأدباء والنقاد قديماً وحديثاً عشرات الكتب ، وحبّروا مئات المقـالات عن « المـوشحات الاندلسية » ، وتضاربت آراؤهم وأقوالهم عن نشأتها وتطورها وأوزانها وخرجاتها ؛ وهل اخترعها العرب في المشرق العربي ثم طوّرها شعراء الأندلس أم العكس هو الذي كان ؟ وأكثر ما قيل في ذلك - ولا سيما في أبحـاث ومؤلفـات المعـاصرين - ضرب من الحـدس والـظن والتخمـين أو تقليد لما قالـه « ابن خلدون » الذي قلّد بدوره « ابن سعد المغربي » مؤلف « المقتطف » ؛ ولا أحب أن أدلي بدلوي فأزيد الطين بلّة ، ولا أعدّ نفسي من رجال هذا الفن ، وبضاعتي في الأندلسيات أدباً وتاريخاً متواضعة ، بل وليس من غرض كتابي التعرض لمثل ذلك إلا فيما له علاقة

باليمن ، وقد بذلت جهدي تأملا وبحثاً وتحقيقاً ، والذي لفت نظري ان أحداً لم ينتبه إلى أن أصل الموشحات الأندلسية ولا سيما القديمة منها هو « الشعر الحميني » وموشحاته المتنوعة هي أمها وأبوها .

وقد يعترض ناقد ويقول : ان لغة الموشحات الأندلسية القديمة فصيحة تلتزم قواعد الاعراب نحواً وصرفاً ، و« الموشحات الحمينية » من أخصّ خصائصها مجانفة حركات الاعراب ، والجواب ان الباعث لاختراع الموشحات الأندلسية المعربة هو الغناء كما سلف ، ومن المعلوم أن جيش الفتح الاسلامي الذي قاده طارق بن زياد وفتح به الاندلس كان يتكون من عدة أجناس ، وان العرب منهم كانوا ينتسبون إلى أقطار شتى وحدتها راية القرآن فمنهم المصريون ومنهم الشاميون ، والبعض من العراق ، ونجد والحجاز ، ولكل أغانيهم وأهازيجهم ، ومنها ما هو باللغة العربية الفصحى ومنها ما هو باللهجات المحلية المتباينة . وكانت الفصحى ديناً ، وشعراً حِكمياً مُعرباً ، وخطباً ونثراً فنيا ، تجمعهم ، وكان لليمنيين الذين يكوّنون أكثرية العرب بين جيش الفتح ـ لا شك ـ أغانيهم وأهازيجهم اليمنية الخاصة وبأشعارها الملحونة المتمردة على حركات الاعراب ؛ ولا شك ان اخوانهم العرب من العدنانيين وأهل العراق والشام قد استمتعوا ببعض تقاسيم والحان تلك الاشعار لكنهم كانوا يجدون صعوبة في فهم لهجاتها وطريقة النطق بها فكان لا بد لليمنيين أن يبدعوها باللغة المعربة الفصحى لتكون مشاركة اخوانهم العرب المسلمين في لذة السماع كاملةً غير منقوصة . وقد وفّقوا إلى ذلك كل التوفيق ، بل وساهم الشعراء من الأقطار الأخرى في تطوير تلك الألحان ، واختراع أنواع جديدة وابتدعوا ما يسمى بالخرجات ، وادخلوا بعض الألفاظ التي لا صلة لها باليمن ولا غيرها من أصقاع شبه جزيرة العرب وكان ما نسميه الآن « الموشحات الاندلسية » . بطابعها وخصائصها وأعاريضها .

ذلك في نظري هو السبب في أن لغة الموشحات الاندلسية بادىء ذي بدء ولطيلة قرن أو قرنين قد التزمت قواعد الاعراب وخرجت على الطريقة اليمنية « الحُمينية » التي تعتمد كثيراً على تسكين أواخر الكلم ولا تبالي بالعوامل التي تؤثر في الألفاظ ؛ ضماً وفتحاً ورفعاً ونصباً وكسراً وجراً ؛ وان كانت أصول الكلمات في أشعارها فصيحة عريقة أصيلة لأنها لغة أمة « يعرب » .

وكما سلف القول بأن صناعة التواشيح الغنائية لا ضابط لأوزانها إلا الألحان كما هو الشأن في أدوار الغناء ؛ فان أوزان وبحور « الشعر الحُمَيني » والغناء الصنعاني أيضا لا يمكن أن تحصى ، ولا أن تسمى ـ إلا ما ندر ـ ؛ لأن الباعث لها اللحن وتقسيماته ، وهو ما لا يمكن أن يحدّ ؛ بل يتجدّد بتجدّد أشواق الانسان وتموجات مشاعره وأحاسيسه ازاء مظاهر الكون والحياة ، ومن أراد أن يقيّدها « بنُوتَة » التفعيلات فعليه أن يعبث بتفعيلات الخليل بن أحمد ويكسرها كما يعبث بقواعد الاعراب ، ولا يعطى بالاً للكسائي أو سيبويه ! ومن أجل ذلك لم يستسغ الخليل بن أحمد ما سمعه من شعر لوضّاح اليمن كما سلف ، وقال سيبويه ما قال عن بيت أعشى همدان .

بعض البراهين والشواهد

أنا لا أخمّن ولا أقلّد ، ولا أريد ان أكتب بحثاً علميا عن الموشحات ؛ اندلسية كانت أو يمنية ، عراقية أو مغربية ، فقط ؛ أريد أن أثبت أن اصل « الموشحات الاندلسية » لم تنبع من فراغ ، ولا اعتُبِطَتْ إعتباطاً ، وانها وليدة فن عربي قديم اخترعه اليمنيون وطوّروه طيلة مئات السنين قبل ان ينتقل معهم إلى الأندلس ويتطور تطوراً آخر يكاد ان يفقده خصائصه الأصيلة اليمنية وأود أن أثبت أن أول من نظم تلك الموشحات من شعراء الأندلس قد تحدّروا من أصل يمني وقد قلنا ان اليمنيين كانوا يكوّنون أكبر فئةٍ من فئات الجيش الاسلامي الفاتح ، وكوّنوا فيها أمارات ودولا ، وأدلّتي على ان « الشعر اليمني الحميني » هو الأب الفني للموشحات الأندلسية تستند إلى الواقع الذي لا يجحده إلا مكابر .

١ ـ فأوزانها لم تخترع بل هي قديمة هذا أولاً .

٢ ـ وثانيا : صيغت على قوالب الأوزان التي صنعها اليمنيون لأشعار أغانيهم الحمينية الملحونة ، وظلوا يزاولونها في ألحانهم عبر العصور وحتى هذه اللحظة . إلاّ أن تلك معربة وهذه ملحونة .

٣ ـ وثالثاً ان ما ورد من قديم الموشحات الأندلسية قد نسب إلى شعراء توحي اسماؤهم والقابهم انهم من أصول يمنية .

١ ـ برهان القدم :

وبالنسبة للبرهان الأول يكفي أن نتأمل ما قاله « ابن بسام الشَّنتريني المتوفي سنة ٥٤٢هـ في كتابه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة والذي يُعد من أهم وأقدم مصادر الأدب الأندلسي فقد ذكر انه لن يتعرض في كتابه لأوزان « الموشحات » لأنها على غير أعاريض العرب المعروفة ثم يقول في مكان آخر ما فحواه ان أول من صنع هذه الموشحات واخترع طريقها محمد بن محمود القبّري وكان يصنعها على « أشطار الأشعار » غير ان أكثرها على « الأعاريض المهملة غير المستعملة » والعجب أن أحداً ـ ممن قرأت لهم ـ وكتبوا دراسات عن الأدب الأندلسي وموشحات شعره لم يتنبه إلى هذه العبارة ويفهم منها ان بحور وأوزان تلك الموشحات قد صيغت على « أعاريض مهملة غير مستعملة » اذ ان ذلك يكفي لمعرفة ان « ابن بسّام » كان يعرف ان أوزان الموشحات ليست على الأعاريض التقليدية المعربة التي قنّنها الخليل بن أحمد الفراهيدي ولكنها ليست محدثة ولا جديدة بل صيغت على « أشطار الأشعار » وأعاريضها قديمة ومن الأعاريض التي أهملها العرب وهجروا استعمالها .

« أعاريض مهملة غير مستعملة » ؛ عبارة هي في نظري أدق وصف من مثل « ابن بسام الشنتريني » في منتصف القرن السادس الهجري لأعاريض وأوزان الشعر الحُميني التي اخترعها اليمنيون لأشعار أغانيهم الملحونة ، واختصّوا بها من بين سائر الأقطار العربية ، ولما دخلوا في دين الله أفواجا وانتُدِبَ الآلاف منهم للجهاد كانت مما حمله معهم شعراؤهم إلى الأندلس ، وطوّروه مُعربين لتفعيلاته للأسباب التي ذكرناها سلفا .

٢ ـ برهان التشابه في الأوزان

وبالنسبة لدليل التشابه في الأعاريض فاضافة إلى دليل القدم ، علينا أن نتذكر ان النقاد قد اجمعوا على ان الموشحات الأندلسية من اختراع أوصنع شعراء الربع الأخير في القرن الثالث الهجري ، وان الأندلسيين ما أقبلوا على الغناء يقلدون عرب المشرق في العراق والشام إلا في القرن الرابع وكان ذلك من بواعث اختراعهم للتواشيح ؛ وليس لي اعتراض على هذا ؛ إلا ان أطالب النقاد بتعليل منطقي يفسّر سبب التشابه بين أعاريض التواشيح

الانـدلسية ولا سيما المبكرة والقديمة منها وبين تواشيح وأعاريض وتقاسيم الحان الحميني وأشعار الغناء اليمني الملحون الذي لا يلتزم قواعد الاعراب النحوية ؟

كما يحق لي أن أتساءل هل يمكن ان يظل أدباء وشعراء العرب الفاتحين للأندلس طيلة قرنين دون مزاولة فنون الغناء والرقص التي مارسوها وألّفوها في مواطنهم الأصلية : أفريقية ، ومصر ، والعراق والشام ونجد والحجاز واليمن ؟

أمـا أنـا ؛ فلا اسـتـطيع أن أتصوّر ذلك ويخيّل لي ان أعاريض الشعر التقليدية بأوزانها وبحـورها التي رتّبها ومَنْهَجَها الخليل الفراهيدي كانت هي الجـامع أو الحظ المشترك الذي يؤلف بين سائر العرب فنياً وأدبيا ؛ ولكن كان لكل عشيرة من العشائر العربية أو الافريقية فنها الغنائي والشعري الخاص بها ، تزاولـه وتمارسه في حفلاتها ومناسباتها الخاصة ، وهو ما يزال معروفا ومشاعاً حتى يوم الناس هذا في جميع الأقطار العربية والاسلامية .

ولما كان العنصر اليماني ـ أو القحطاني ـ هو الغالب بين تلك المجتمعات الاسـلامية والعـربية ، وكـان اليمنيون ألصق من غيرهم في شبـه الجزيرة العربية بفن الغناء الذي زاولوه بطرقهم الخاصة قرونا ـ جرأ أصحاب القرائح المتفوِّقة منهم على صياغة التواشيح الأندلسية وفي قوالب أشعارهم الحمينية مع مراعاة قواعد الأوزان التقليدية في الاعراب ، حِرصاً منهم على مشاركة اخوانهم من سائر الأقطار العربية للذّة الطرب والسماع لألحانهم التي كانوا ـ بلا ريب ـ يأنسون ويطربون لسماع توقيعاتها وتقسيمات نغماتها . . ولكنهم لا يستطيعون فهم لهجاتها وهي ترفع المخفوض ، وتنصب المرفوع ، وتسكن أواخـر الكلم ، وتتصرف في صياغة الأفعال والأسماء كما تريد ، وتفرض نبرات ضربات الأوتار والخرجات الموسيقية على قواعد الاعراب والاشتقاقات اللغوية والصرفية ، وتفادياً لذلك نظم الأذكياء أشعار ألحانهم بالفصحى المعـربة ، فكانت « الموشحات الأندلسية » ثم تطورت التطور المعروف . الذي جعلها فنا مستقلاً قائما بذاته يأنس إليه كل العرب .

٣ ـ برهان يمنية الأسماء

يقـول ابن خلدون : « أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح ينظمونه أسماطاً أسماطا وأغصاناً أغصاناً واستظرفه الناس جملة ؛ الخـاصة والكافة ، لسهولة تناوله ، وقرب طريقه وكان المخترع لها بجـزيرة الأنـدلس مقـدم بن معـافـر الفريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروني ، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب العقد ، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزّاز شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرّية الخ » [المقدمة ص ٥٨٧] .

والاسم « معـافـر » . . والـد « مقدم » الذي يجمع المؤرخون مع ابن خلدون على انـه صاحب أول موشحـة اندلسية ، « يمني » . . وهو كثير التـداول ومخـلاف « المعـافـر » ـ وهـو بلاد واسعة شمالي « عدن » وجنوبي « تعز » ، ويسمى حاليا « الحجَرية » ، وتتبعها نواح أخرى ، والنسبة إلى « معـافر » بن يعفر بن الحارث الحميري وقد أشار إلى ذلك « ياقوت » في « معجم البلدان » وقال ان إليها تنسب الثياب « المعافرية » وقد نُسِب إلى المعافر جملةٌ من أفاضل وأعيان الأندلس منهم الملك المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري المتوفى سنة ٣٩٩هـ وقد ترجمه صاحب « نفـح الطيب » وأثنى عليه وقال ان أول من دخل الأندلس من أجداده عبد الملك المعافري مع طارق بن زياد وانه كان عظيما في قومه وكان له أثر في الفتح وذكر انه كتب على قبر الملك المنصور ابن أبي عامر المعافري هذان البيتان

آثـاره تنـبـيـك عن أخـبـاره ... حتـى كأنـك بالـعـيـان تراه
تالله لا يأتي الـزمـان بمـثـله ... أبـداً ولا يحمـى الـثـغـور سواه

وقال انه كان شجاعاً فارساً ممدحاً أديباً ومن شعره :

رميـت بنـفسي هولَ كل عظيـمـةٍ ... وخـاطـرتُ والخـر الكـريم يخاطـرُ
ومـا صاحـبـي إلا جنـانٌ مشيـعٌ ... وأسـمـر خطيّ ، وأبـيض باتـرُ
فسُـدتُ بنفسي أهـل كل سيـادةٍ ، ... وفـاخرت حتى لم أجد من أفاخر !

وما شدت بنياناً ولكن زيادةً ... على ما بنى عبد المليك وعامرُ
رفعت العوالي بالعوالي مثلها ... وأورثناها في القديم « مُعافِرُ »

وهناك عدة فضلاء ينسبون إلى « المعافر » في مصر والمغرب ترجمهم ابن خلكان والذهبي وغيرهما ولو ذهبت أعدّد أسماء الشعراء الذين ينتسبون إلى اليمن من الاندلسيين أمثال يوسف بن هارون الكندي الذي عاصر المتنبي ، وابن زيدون وهو ينتمي إلى « قضاعة » ، وقضاة غرناطة « بني المنتصر » الكهلانيين ، و « بني سماك » و « بني عباد » أصحاب أشبيلية اللخميين ، وغيرهم لأطلت وأمللت ، ومن المعلوم ان شعراء الأندلس ظلوا لمدة نصف قرن بعد فتحها من الطارئين وليسوا من أهلها وكان معظمهم من اليمنيين .

كما أن المعتصم بن صمادح التُجيبي صاحب المرية الذي قال ابن خلدون ان شاعره عبادة بن القزّاز أول من برع في الموشحات بعد « ابن معافر » هو كما في وفيات الأعيان محمد بن معن بن محمد بن أحمد بن صمادح التُجيبي صاحب المرية وبجَابَه ، والصماد حية ، من بلاد الأندلس وكان قد تسمى بأسماء الخلفاء ولزمه جماعة من فحول الشعراء وقد كان نفسه شاعراً وهو صاحب الأبيات المشهورة .

وزهّدني في الناس معرفتي بهم ... وطول اختباري صاحباً بعد صاحب
فلم تُرني الأيام خلاً تسرّني ... بواديه ، إلّا ساءني في العواقب
ولا صرت أرجوه لدفع ملمةٍ ... من الدهر إلا كان احدى النوائب

وتوفى سنة ٤٨٤هـ وكان يمني الأصل والهوى والانتماء .

و « تُجيب » بطنٌ من كندة القبيلة اليمنية المشهورة وإلى « تُجيب » ينتسب عدة أفاضل وأعيان وشعراء وعلماء في مصر والمغرب والأندلس ومنهم الفيلسوف الشاعر أبو بكر بن الصانع الأندلسي .

وقد أحدث النساخ تصحيفات وتحريفات في أسماء الشعراء ونظن ان محمد بن محمود القبّري الذي قال ابن بسام انه أول من صنع الموشحات في « الأندلس » هو نفسه مقدم بن المعافر القبري ، [أو الفريري] الذي قال ابن سعد في المقتطف وتبعه ابن خلدون في المقدمة انه أول من اخترعها وهو

يمني الأصل والنسب كما سلف . وبعده نشأ الشاعر يوسف بن هارون الرمادي الكندي وكان أول من أكثر في الموشحات كما يقول ابن بسام وكان كما حكى المؤرخون والنقاد « كثير الشعر سريع القول » حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون : « فُتح الشعر بكندة وختم بكندة يعنون امرؤ القيس والمتنبي ويوسف ابن هارون » ؛ ولعمري ان في هذا القول لأكبر برهان على ان النقاد الأوائل لم يكونوا يجادلون ، ولا يتشككون في أن أصل الموشحات الأندلسية هو شعر الغناء اليمني وتطور إلى الفصحى لما ذكرناه من أسباب ، ثم تطور تطوراً آخر كاد أن يفقده خصائصه الأصيلة حتى هاجر بعد نكبة « الفردوس المفقود » إلى موطنه الأصلي اليمن وهذا بحث مستفيض لا علاقة له بما نحن فيه الا بمقدار ما قد أتينا عليه ، ولعلنا نعالجه بتوسع في كتابنا « الشعر الحميني » إن شاء الله .

٤ ـ حجة التشابه بين أعاريض الشعرين

كان علي الاكتفاء بما ذكرت عن النسب الفنّي للموشّحات الأندلسيّة ، وانتماء أعاريضها إلى أبيها « الشعر الحُميني » ؛ لكن القول نَهم ، وما توغّل في مجالاته قلم أو لسان إلا استَقْرم واشتهى المزيد ، ولا سيما إذَا كان صاحبه مثلي من أولئك المتأثرين بقول المتنبّي :

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

وبتأثير هذه « العقدة الفكرية » إن صحّ التعبير فما كدت أنتهي مما حبرته عن « الموشحات الأندلسية » و « الشعر الحُميني » عازماً على أن أؤجّل بقية الحديث عنه وعن تشابه أوزانه المعبرة والملحونة إلى كتابي « الشعر الحُميني » حتى وجدتني أرجع بالذاكرة إلى أيام الشباب وعهد الدراسة والطلب ؛ وإذا صماخي بلا شعور ورغم إرادتي ـ يترنّم في صمت وخشوع ببعض الألحان اليمنية وتواقيعها في أشعارها « الحمينية » وليس في ذلك فحسب بل واسترجع بعض ما سبق لي قراءته من « الموشحات الأندلسية » وأحاول توقيعها على أعاريض وتقسيمات « الأغاني الصنعانية » فأجد الكثير من الانسجام ، ويثور من جرّاء هذه العودة الفكرية سؤال كبير وهو : لماذا هذا التشابه بين الشعرين وأعاريضهما حتى يكاد ان يكون هذا قالبا لذاك ؟

وقلت لنفسي مطمئنّا إلى هذا البرهان الذاتي : لا شك انهما من أصل واحد ، والبواعث النفسية والفنيّة التي وطّأت لصنع هذا ، هي نفس البواعث التي مهدت لابداع واختراع ذاك ، و « اليمن » هي الأعرق عروبة ، وقد ثبت ان كل شعراء الأندلس الأوائل من العرب ومعظمهم قحطانيون .

وقلت لنفسي أيضاً لماذا لا أضرب أمثلة لمن يجحدون ذلك أو ينكرونه مندفعاً من حسّ فطري يمني غير متأثّر بما قاله « ابن بسام » أو « ابن خلدون » من الأولين والقدماء ، ولا بما افترضه « فلان » أو « علان » من المحدثين والمعاصرين ؛ بل بحسٍّ وانفعال اليمني الأندلسي الأول « مقدّم بن المعافر » ، و« اليمني » « المعافريّ » المعاصر عبد الله بن عبد الوهاب نعمان :

١ ـ وتذكّرت وقرأت احدى الموشحات المشهورة الجميلة للأعمى التطليلي :

ضاحكٌ عن جمانْ سافرٌ عن بدرِ
ضاق عنه الزمانْ وحواه صدري
آه مما أجدْ شفّني ما أجدُ
قام بي وقعَدْ باطشٌ متئدُ
كلّما قلت قدْ قال لي أين قَدُ ؟

وإذا بي بدون تكلّف أردّد نغم « حمينيّة » الشاعر اليمني محسن بن عبد الكريم ابن اسحاق :

يا أهيل الغرامْ هل على المستهامْ
حَقْ لاهْل الملام في شروط العشقِ
لَدى أهل المعارف
يا عذول يا جهولْ مذهبي لا يحول
الهوى للعقول مثل لمع البرقِ
لطامع وخائفْ

بل وأتذكر لحن موشحة الحسين بن موسى الخياط الصنعاني :

يا هلال الفلك   يا بديع الحمالِ
مهجتي منزلكْ   وسواك ما حلالي

لو استغنينا عن الشطر المتوسط .

٢ ـ وموشحة « ابن سهل ابراهيم الاسرائيلي :

رحّب بضيفِ الأنس قد أقبلا   واجلُ دجى الهمّ بشمس العقارْ
ولا تسلْ دهرك عمّا جنى   فما ليالي العمر إلّا قصارْ

ألخ .

ألا تذكّرنا بعدّة قصائد حمينية بلحنها الرقراق الكوكباني ومنها « حمينية » ابن شرف الدين المشهورة :

صادت فؤادي بالعيون الملاحْ   وبالخدود الزاهرات الصباحْ
نعسانة الأجفان هيفا رداحْ   في ثغرها السلسال بين الأقاحْ
فُوَيتنِهْ في خدّها وردِها ،   سويحرةْ هاروت من جندِها
في مزحها لاقَتْ وفي جدّها   أفدي بروحي جدّها والمزاحْ ؟

٣ ـ وموشحة « ابو الحسن الششتري » :

طاب نقلي وشرابي   وحبيبيّ اعْتَنى بي
فاعذروني يا صحابي   في سجودي واقترابي

ألخ .

ألا يستطيع الملحّن اليمني أن يترنم بها ويوقعها على « عُودِه » باللحن التقليدي المشهور الذي يتغنى بقصيدة أبي بكر العيدروس العدني :

ذا نسيم القرب نسنَسْ   وشفى سقم المحبّين
ودجى الديجور عَسْعسْ   وغفَتْ عين الشياطينْ

***

٤ ـ ولحن موشحة ابي حيّان الغرناطي :

ان كان ليلٌ داجٌ   وخاننا الأصباحُ
فنورها الوهّاج   يغني عن المصباح

هو نفس أعاريض اللحن الحميني في القصيدة المشهورة للسيد جحّاف :

الشوقْ أعياني يا قرّة الأعيانْ
والبينْ أوطاني مواطىء الأشجانْ
فدمع أجفاني من فرقتكْ ألوانْ
أضحي بأوجاني كالدرّ والمرجانْ

٥ ـ ولن نجد صعوبة إذا لحّنا موشحة ابن خاتمة المريني :

هذي عروس الرياضْ تجلي من رائق الزهر في حُلَلْ
والجو بالغيم قد تحلَّى ولاحتِ الشمس من خللْ

بذلك اللحن الجميل الذي تغني به قصيدة عبد الرحمن الأنسي :

يا شاري البرقْ من تهامِهْ رويدَك اللمع والخفوقْ
حَلّيتْ قتل الشجي ظلامِهْ في ذمتكْ قلبهْ المشوقْ

٦ ـ وموشحة لسان الدين بن الخطيب :

ربّ ليلٍ ظفرت بالبدر ونجوم السماء لم تدر

ألا تذكرنا بعض أشطارها بأعاريض ولحن موشحة موسى بهران :

أصبح البرق باسم الثغر من بكاء الغمامْ
واكتسى الروض حلة الزهرِ وردها والخزامْ ؟

٧ ـ وموشحة لسان الدين الأخرى :

كم لليل الفراق من غصّهْ في فؤاد العميدْ
نرفع الأمر فيه والقصّه للولي الحميدْ

هي لحناً وأداءً ووزنا على قالب حُمينية موسى بهران :

أصبح البرق باسم الثغرِ من بكاء الغَمامْ

ولو وقعها يمني بنفس اللحن المشهور لجزم السامعون انها « صنعانية » .

٨ ـ وهناك موشحة مشهورة تعد من أقدم الموشحات الأندلسية وصاحبها الشاعر « عبادة بن ماء السماء المتوفي حوالي عام ٤٢٠هـ ومطلعها:

مَـنْ وَلـي في أمـةٍ أمـراً ولم يعـدلِ
يُـعْـز لي إلّا لحاظ الـرشـأ الأكـحـلِ
جـرتَ فـيَ حكـمـك في قتـلى يامسرفُ
فانـصفِ فواجـبٌ ان ينـصـف المـنـصفُ
وارأفِ فان هذا الـشـوق لا يرأفُ
عَـلّـل . . بذلـك الـبـارد الـسـلسـلِ
يـنـجلـي ما بفـؤادي من جوى مشـعـلُ

إلى آخـرهـا وهي صنـاعة وعروضاً وتبييتاً وتقفيلاً تشبه موشحة اللحن الحميني الـرقيق الذي له عدّة قصائد حمينية ومن أشهرها وأبدعها قصيدة شعبان سليم التي مطلعها :

شفْتْ الآنْ غانيْ شبـيـه الـقَـمَـرْ
قـدّه لانَ ونـور خـدّه ظهَـرْ
لـه عينان في الـنـاس ترمـي شرر
كم قد خانْ فيـهـا قلوب الـبشرْ

بيـت

أرعنْ قـدْ ازرى بظبـي الصريـمْ
باهـي الخدْ مولى الجـمال الـوسـيـمْ
ما يـوجـد مثـله ؛ ولا يسـتـقـيـمْ
غصن البـان إذا مشـى ، أو خطرْ

إلى آخرها ، ولا سيما إذا استعان « بالْبَلْبَلَة » أو « الدندنة » ليكمّل تفعيلة عروض اللحن وتوقيع النغمة .

٩ ـ وموشحة ابن رافع :

مـن عـلـق الـقُـرطـا فـي أذُنِ الـشـعـرىَ

لا تختلف عن اللحن الحميني الذي منه :

هيجت يا قمري بصوتك الملحون
ما كان في صدري من سريّ المكنون

في قصيدة « الشوق أعياني » للسيد جحاف .

١٠ ـ ولو أن فنّاناً يمنياً غنّى موشحة ابن بقى المتوفي سنة ٥٤٥هـ والتي مطلعها :

ساعدونا مصبحينا نرتشفّها قد ظمينا
كنضارٍ في لجينٍ نعم أجر العاملينا

بلحن قصيدة محمد السودي :

بلبل الوادي اليماني لم أزل منه مُبلبلْ
كلّما غنّى شجاني قطّ لا ملّيتْ ولا مل

لجزم سامعوه من اليمنيين انه يلحّن احدى حمينيات ابن فليته أو المزّاح .

وهكذا لو ذهبت أضرب الأمثلة لوجدت العشرات بل المئات من الموشحات الأندلسية التي لا تختلف صنعة ولا أعاريض ولا تلحيناً ، عن أشعار الأغاني الحمينية اليمنية . ولو كان في متناول يدي ـ الآن ـ المزيد من مصادر الشعر الأندلسي لكان اختياري للشواهد أكثر دقةً وإجادة .

عودة الموشحات إلى الوطن الأم

وقد يقول قائل : ان تشابه الأنماط وقوالب الأعاريض الشعرية بين « الموشحات الأندلسية » و « الشعر الحميني اليمني » لن يكون برهاناً قاطعاً ودليلاً جازما إلّا إذا كانت نصوص « الحميني » لشعراء سبقوا الفترة الزمنية التي وجد فيها ما يسمّى بالموشحات الأندلسية ، أعني أواخر القرن الثالث وبداية الرابع الهجريين ، وكل ما أوردته من شواهد لِشعراء يمنيين متأخرين لا ترقى أقدمها إلى القرن السّادس الهجري . فلماذا لا يكون الواقع هو عكس ما تزعم ، وأن الموشّح الأندلسي هو الأصل والأب الشرعي والفني للشعر الحميني والغناء الصنعاني ؟

وهذا سؤال واردٌ ووجيه ، وسأجيب عليه متسائلاً أوّلاً :

هل كان للموشح الأندلسي وألحانه أعاريض باللغة الأسبانية أو تلك التي كان يتحدث بها سكان الأندلس قبل الفتح الاسلامي في القرن الأول الهجري تشبه أعاريض وتفعيلات الموشحات العربية ؟

والجواب طبعاً على هذا التساؤل بالنفي ؛ وإذاً فشعر الموشحات الأندلسية عربي اللغة والأعاريض والألحان يفهمها العرب ويتذوقونها ويطربون لها منذ كانت حتى يوم الناس هذا ، وبناءً عليه فهي من صنع وصياغة شعراء وفنّاني العرب الذي رافقوا حملة الفتح الاسلامي ، أو أولادهم وأحفادهم ، وللبواعث والأسباب التي سبق ايرادها . وقد صاغوها على « أعاريض » قديمة « مهملة غير مستعملة » كما قال « ابن بسام » وقد أثبتُ سابقاً أن جذور « الشعر الحميني » متوغلة في القدم ، وأوردتُ شواهد على ذلك قيلت في القرن الأول والثاني للهجرة بل وقلت ان « مسمّطة » أمرؤ القيس قبل الاسلام من أصوله ؛ ولا يعني إذا لم تدّون وتروى انها لم تكن منتشرة ولا معروفة وقد سبقت الاشارة إلى موقف سيبويه والخليل بن أحمد والمعرّي من الشعر الحميني الذي نسبه « ابن داب » لأعشى همدان ، ومن الديوان الذي وصفه الفراهيدي بالفساد والركة والغثاثة ، ورفض صحة نسبته إلى « وضاح اليمن » وقال انه مما لا يصح روايته ، وأنكر المعري « مسمّطة » امرؤ القيس لنفس السبب ! ونحن نعلم أن المسلمين قد تحاشوا تدوين لغاتهم العامية ولهجاتهم المحلية ، وتسجيل آدابها وأشعارها لأسباب دينية ، وحفاظاً على اللغة الفصحى لغة القرآن الكريم ، وظلّت تلك الآداب والأشعار وألحانها ضمن التقاليد والعادات التي يتوارثها الأبناء عن الآباء بالتشبّه والمزاولة اليومية وقد ضاع الكثير ، كما سبق القول ان معظم الجيش العربي الذي قاده طارق بن زياد كان من اليمنيين وأيدت ذلك بالبراهين ، وأن الأعاريض المهملة التي أشار اليها « ابن بسّام » والتي على قوالبها صاغ الأندلسيون أشعار « الموشحات » هي أعاريض « الشعر الحميني » وبهذا يزول الاشكال ومما يؤكد ما نذهب إليه ما سبق أن أوردناه من شعر « البالْ بالْ » الحميني لأبي حذيفة العدني ، وأعاريض نماذجها على نمط أعاريض الموشحات الأندلسية ، ونحن نعلم ان « أبا حنيفة » أنشأها قبل عام ٦٣٣هـ وكانت الأندلس لا تزال يحكمها العرب وملوك الطوائف . ولا نعلم بعلاقة فكرية أو سياسية يومئذٍ بين اليمن والأندلس .

ويمكن أن نقول ـ ثانياً ـ لمن يزعم ان الموشحات الأندلسية هي أصل « الشعر الحميني ـ إضافة الى الأدلة والشواهد السابقة ـ ان الطريق بين الأندلس واليمن ، وبين الحمراء وغرناطة وصنعاء وكوكبان طويلة جداً ، ولابد ان يمر قاطعها ومجتازها بالمغرب وتونس ، وليبيا ومصر » وربما كانت المواصلات الفكرية بعد القرن السّابع الهجري بين الأندلس والمغرب العربي وبين الشام والعراق وعواصمها ومعاهدها ، أقوى وأمتن مما بينها وبين « صنعاء » و « صعدة » و « عدن » ! فلماذا لم تلبد وتسكن أشعار الموشحات الأندلسية في المغرب وتونس ومصر وتؤثّر بأعاريض أشعارها التي برهنا انها صيغت على أوزان وقوالب أشعار « الحميني اليمني » في أشعار وألحان موشحاتهم ولهجاتهم المحلية ؟ لماذا لم يكن ذلك وآثرت هذه الهجرة الطويلة الشاقة إلى اليمن ؟

ألا يحق لنا أن نتساءل : لماذا سافرت « الموشحات الأندلسية هذه الرحلة الشاقة من غرناطة وسائر مدن « الفردوس المفقود » إلى صنعاء وبقية مدن « العربية السعيدة » ، وأوت إليها تؤثّر في ألحانها وأغانيها وأشعارها « الحمينية » ، ولم تعمل ذلك في مصر والشام والعراق ونجد والبحرين ولكلّ بلد من هذه الأقطار العربية أشعار ألحانه الخاصة التي لا تلتزم أيضاً بقواعد الاعراب ولا بأعاريض الشعر العربي الفصيح المعرب الموزون المقفى ؟!

لماذا لماذا ؟ لا يمكن أن نطمئن إلى جواب منطقي إلّا إذا قلنا بكل ثقة ويقين : إنها رحلة العودة إلى الوطن الأم الذي هاجرت منه بعد أن سلب منها وطنها الثاني « الأندلس »، وطغت عليها عجمة « محاكم التفيش » ولم يطب لها بعده إلّا حضن أمها الحنون « اليمن » حيث هجعت في أمان بعد عذاب طويل مرير .

ولـيس يصـحّ في الأذهـان شيء إذا احـتـاج الـنـهـار إلى دلـيـل

شعراء لا تراجم لهم :

استمرت رحلتي مع الفكر اليمني خمسة قرون ونصف وتجاوزت التاريخ الـذي كان من المفـروض الـوقوف عنده وهو عام ٦٥٦هـ لما قتل الخليفة العباسي في بغداد وهو أيضاً العام الذي استشهد فيه الامام أحمد بن الحسين

فتحدثت عن أعلام عاشوا إلى ما بعد سنة ٦٩٠هـ أمثال الملك المظفر والشاعر ابن هتيمل وغيرهما لأنهم يحسبون على العصر أو تتلمذوا له ، وكتب لهم طول العمر ، وإذاً فهذه الدراسة تشمل تاريخ الفكر اليمني من عام ١٣٢هـ / ٧٥٠ م - إلى سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠ م وهي القرون المجهولة التي لا تزال معارفنا عنها مضطربة لقلة المصادر ، ولأن آثارها والكتب التي تؤرخ لأحداثها ودولها واعلامها لا تزال موؤدة ، أو مخطوطات موزعة في خزائن المكتبات العامة ، أو الخاصة وملاّكها يبخلون بها ، أو لا يستطيعون القيام بنشرها وقد قرأت ما يمكن أن يستفيد منه باحث يريد أن يؤرخ لتلك القرون سياسياً وفكرياً وأدبياً وكانت نتيجة تلك القراءة هذا الكتاب .

وستكون الكتابة عن « تاريخ اليمن الفكري » من بعد القرن السابع الهجري ، أسهل على من سيحاول ذلك لأن مصادرها متوفرة وتراجم اعلام اليمن من مطلع القرن الثامن وحتى عامنا الذي نحبّر فيه هذه السطور ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م معروفة في كتب ابن أبي الرجال والخزرجي وابن الديبع ، والزبيدي ، وأبو مخرمة ، ويحيى بن الحسين والشوكاني وزبارة وغيرهم ومعظمها مطبوع .

لقد كانت رحلتي شاقة وطويلة ؛ ولكني علم الله لم أسأم طولها بل تمتعت بالمشاق التي اعترضتني أثناءها ؛ وبالرغم من اني قد بذلت الجهد في محاولة الاحاطة والاتقان فلا أزال أعدّ نفسي مقصّراً ولم أستطع أن أتحاشى ما حاولت تحاشيه وهو عيب نقص القادرين على التمام كما يقول المتنبي .

ولذلك فقد رأيت أن أثبت أسماء بعض الشعراء الذين وردت لهم أخبار أو أشعار في بعض كتب المؤرخين وأشرت إلى بعضها أثناء الكتاب واهملت ذكر بعضها فمن شعراء كتاب « السمط الغالي الثمن » في أخبار الملوك من الغز باليمن لابن حاتم اليامي .

١ - الشوكي ص : ١٨ -
٢ - المبارك بن منقذ ص : ٢١ -
٣ - عمرو بن بشر بن حاتم ص : ٣٥ -
٤ - سليمان بن محمد العنسي ص : ٩٩ -
٥ - العماد الشيزري ص : ١٦٦ -

٦ ـ مدرك بن بشر بن حاتم ص : ١٨٦ ـ ١٨٧
٧ ـ السرّاج بن دعاس ص : ٢٦٠ ـ ٢٦٤
٨ ـ علوان بن بشر بن محمد بن حاتم ص : ٣٠٧ ـ ٣٠٨ و ٢٣٦
٩ ـ بدر الدين محمد بن حاتم ص : ٥٥٣ ـ
١٠ ـ الكندي ص : ٥٦٤ ـ

وقد أورد الخزرجي في الجزء الأول من كتابه « العقود اللؤلؤية » أشعاراً وأخباراً لهؤلاء فللعماد الشيزري ذكر في ص : ٤٣ وشعر لمدرك بن حاتم في ص : ٤٥ وأخبار للسراج بن دعاس في ص : ٩١ ـ ١١٢ ـ ١٢٢ ـ ١٥٥ ـ ١٩٤ ـ ٢٣٧ .

ولعلوان بن بشر شعر في ص : ٤٣ ـ ولأخي كندة شعر في ص : ١٨٦ وتفرّد بذكر آخرين أمثال :
١١ ـ الفقيه أبو بكر بن عيسى المعروف بابن خنكاس المتوفى سنة ٦٦٤هـ ص ١٤١
١٢ ـ عزان بن سعيد بن بشر اليامي ص : ١٠٦
١٣ ـ الأمير علي بن عبد الله ص : ٢٠٧ ـ ٢٢٥ ـ ٢٣٠
١٤ ـ الأمير داوود بن عبد الله بن حمزة ص : ٢١٥
١٥ ـ غازي بن المعمار ص : ١٦٤ ـ

ومعظم هؤلاء وغيرهم توجد لهم أخبار وأشعار في كتاب « ثغر عدن » لأبي مخرمة فليراجعها من يودّ الاستقصاء .

حظ اليمن من كتاب الدكتور شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي

١ ـ مدخل

أشرت في المقدمة إلى النقاش الذي أثاره الدكتور شكري فيصل ليلة ألقيت محاضرتي عن الأدب اليمني في العصر العباسي واعتراضه على تسميتي لها ، وقوله ان تركيزي على اسم « اليمن » ، في المحاضرة ، بل وفي كتاباتي عن شعرائها يُشتَمّ منه رائحة اقليمية وأن آداب اليمن عربية ، ولا يمتاز شعراؤها عن شعراء سائر العرب ، وان هذا التركيز من قبلي لا ينسجم وما ندعو إليه جميعاً من وحدة عربية الخ [راجع المقدمة في السفر الأول] .

ولكي أدلّل على صدق ما قيل في تلك الليلة من أن حيفاً كبيراً وإهمالاً مشينا ، قد لحق بالأدب اليمني من قِبَل المؤرخين لآداب العرب في مطلع هذا القرن ، وأنهم لم يعتنوا به عنايتهم بآثار وأخبار شعراء وأدباء الأقطار العربية الأخرى ، وأن الكثير الجمّ منه بل جلّه ان لم يكن كله ، لا يزال مجهولاً مغموراً موؤدا ـ وان كان ما سبق ايراده في أسفار هذا الكتاب الأربعة قد نهض برهانا قاطعا ـ فقد رأيت أيضاً أن أضيف إلى هذا السفر الأخير نصيب اليمن وحظها من تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي في كتاب الدكتور شوقي ضيف العالم الأديب الناقد المشهور .

وكتاب الدكتور ضيف عن تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي بأجزائه الخمسة قد نال « جائزة الملك فيصل » التقديرية بجدارة واستحقاق ، وهو أتقن وأشمل ما كتب في هذا الموضوع ، وقد كان أكرم المؤلّفين بالنسبة لليمن اذ قد ذكر فيه ما لم يذكره غيره من أساتذة الأدب العربي في عصرنا الحاضر .

نعم رأيت ان الخّص ما ورد في كتاب الدكتور ضيف وأضيفه إلى كتابي هذا لِنَرى أنه ـ ورغم انه كما قلت كان أكرم المؤلّفين بالنسبة لليمن ، وذكر ما لم يذكره غيره ـ لم يوفّ اليمن حقها الكامل ، وبالمقارنة مع ما سبق في الأسفار الأربعة سيبرّر الدكتور شكري فيصل تركيزي على اليمن وتاريخها الأدبي والفكري ، بل وسيعلم القرّاء مدى صدق قول الدكتور شوقي ضيف في مقدمة سفره الخامس لما قال معتذراً : « واعترف بأن عقبات كثيرة صادفتني وخاصة في المصادر والحصول عليها ، وقلّتها أحيانا في بعض الجوانب . وقد حاولت جهدي أن أرسم المعالم الأساسية لتاريخ الأدب في تلك الأقاليم أثناء هذه الحقب المتطاولة ، ولا أزعم انني استطعت أن أوفّي هذا الرسم حقّه كاملاً من الدقّة والاستقصاء » [ج ـ ٥ ـ ص ـ ٨] .

وهذا اعتراف متواضع يلجأ إليه أفذاذ العلماء والباحثين عن الحقيقة ؛ ولن يضيق بنا الاستاذ الكريم إذا قلنا : إنه حقاً كما قال ؛ بالنسبة لأداب اليمن ـ بل وسائر أصقاع الجزيرة العربية ـ لأن مقدرته المكانية والزمانية بل والثقافية لا تطاوع رغبته ومحاولته ، ولكنه قد أدى واجبه ، وله على ذلك الشكر الجزيل والأجر الوافر إن شاء الله .

٢ ـ نصيبٌ ضئيل

لقد خصّص الدكتور شوقي ضيف القسم الأول من الجزء الخامس من كتابه « تاريخ الأدب العربي » للحديث عن التاريخ الثقافي والاجتماعي والأدبي في كل من الحجاز ونجد واليمن وحضرموت وظفار وعُمان والبحرين ، منذ مطلع القرن الثالث الهجري وحتى أواخر القرن الثالث عشر ، وهي حقبة طويلة تزيد على ألف وخمسين عاما . ومع ذلك فلم تستغرق فصول هذا القسم الخمسة ؛ ولكل الدول والامارات في الجزيرة العربية غير : ٢٢٦ صفحة ؛ كان حظ اليمن منها حوالي السبعين ، أو الثمانين !

وإذا لاحظنا ان القسم الثاني الذي اختص به العراق قد استغرقت فصوله الخمسة أيضاً : ٢٤٧ صفحة ؛ وان القسم الثالث المختص بإيران قد استغرقت فصوله : ١٩٤ صفحة فلا بد ان ندرك الحيف ونتصور فداحته ،

والـذي لم يكن مقصـوداً بل سببه كثرة العقبات ، وقلة المصادر ، وأدركه المؤلف نفسه فاعتذر عنه اعتذار العلماء المجتهدين .

هذا مع العلم بأن سفرين كبيرين هما الثالث والرابع من كتابه النفيس كان الدكتور شوقي قد تحدّث فيهما وبإسهاب واستقصاء عن تاريخ الأدب العربي فيما سماه العصر العباسي الأول والعصر العباسي الثاني وأورد فيهما أبحـاثـاً مسـدّدة عن شعـراء العـراق ، وفـارس وأدبـائها وعلمائها وكتابها وفـلاسفتهـا ، والمـذاهب والفرق الاسلامية فيها ، وسائر ضروب المعرفة والثقافة وكل نشاط فكري أو سياسي ؛ وليس في السفرين الكبيرين أيّ ذكر لأيّ نشـاط علمي أو فكـري أو أدبي أو سياسي في اليمن والحجاز وسائر أصقـاع الجـزيرة العربية خلال تلك الحقبة التي كانت « صنعاء » أثناءها يقصدها للدراسة والتفقّه أمثال الامام الشافعي ، والامام أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين وابن راهَوَيْه ، وابن المديني ، واضرابهم كما أوضحنا في السفر الأول من هذا الكتاب وكذلك كان الحال في مكة المكرمة والمدينة المنورة .

ولا نقول هذا مستنكرين ولا مستكثرين ؛ فقد أحسن الدكتور وأجاد ، ونفع وأفاد ، ووجد مجال القول ذا سعة ؛ ولكني أبرّر تظلّمي من الحيف الذي حلّ بالأدب العربي في اليمن ـ بل وفي سائر أقطار الجزيرة العربية ـ من قبل المؤرخين المحدثين للأدب العربي وأؤكّد ان نصيب اليمن وحظها كان ضئيلاً ، ولذلك ألّفْتُ كتابي « قصة الأدب في اليمن » ـ قبل ربع قرن ـ والذي لو أطلّع عليه الدكتور شوقي لتدارك بعض النقص ، واهتدى إلى بعض المصـادر التي شكـا قلّتهـا ! وهـا أنا اليوم ـ ولنفس الغرض وذات السبب ـ أُخـرِج للناس هذا الكتاب وكأنما هو استدراك لما أهمله الدكتور بالنسبة لليمن ، وأما سائر أقطار الجزيرة فلها أدباؤها وكتابها ، وأهل مكة أدرى بشعابها كما يقولون .

٣ ـ أخطاء وأوهام

في الفصل الأول « السياسة والمجتمع » أشار الدكتور « ضيف » عندما تحدّث عن اليمن إلى انها توزعت في هذا العصر إلى عدّة دول وامارات وذكر منهـا « بني زياد » و « آل نجـاح » و « بني مهـدي » وسماهم خوارج ! ثم

« الأيوبيين » وخلفائهم « بني رسول » ، ولم ينس « اليُعفريين » و« الصليحيين » و « الهمدانيين » و « الأئمة » وسماهم « الرسيّين » معقباً بقوله : « وقد ظل أئمة « الرسيّين » يتوالون واحداً بعد الآخر حتى العصر الحديث » ، ثم عرّج على ذكر « بني زُريع » في عدن ؛ وقد أوجز حديثه عن كل هذه الدول ومؤسسيها ، ومذاهبهم في أربع صفحات [٢١ ـ ٢٥] وباتقان وبراعة ؛ غير انه وقع في عدة أخطاء وأوهام أرى من الواجب الاشارة إلى ما يخص اليمن منها ؛ لأن منزلة الدكتور شوقي العلمية والأدبية كبيرة في العالم العربي ؛ وكتابه المذكور أصبح من أهم المراجع في موضوعه ، ويدرّس في الجامعات والمعاهد العليا .

١ ـ فمن الأخطاء أو الأوهام قوله : إن من أهم أمراء دولة بني زياد « أبو الجيش اسحاق بن ابراهيم » ، وان اليمن كلّها كانت قد خضعت له ، و« دانت له « عدن » و « صنعاء » وحكامها بنو يعفر ، و« صعدة » وحكامها الرسيون » الخ [ص : ٢٢] ؛ وهذا وهم فأن دولة « بني زياد » لم تتضعضع وتتمزّق وتنجحر في « زبيد » وما صاقبها ، إلّا في عهد اسحاق هذا وذلك ما تحكيه كل كتب التاريخ القديم منها والحديث .

٢ ـ وقوله : ان الملك « علي بن مهدي الحميري » كان يؤمن بعقيدة الخوارج ويتبرأ من « عثمان » و« علي » ، دون أن يميّز بين الأب وولديه ، ولا بين مذهبه الفروعي ، وعقيدته الأصولية ؛ وقد سبق الكلام عن ابن مهدي وخلفائه وجناية الخلط وعدم التمييز بينهم ولم أسمع ان أحداً منهم كان يتبرأ من « عثمان » أو « علي » رضي الله عنهما ولا أخال ذلك قد نقل ؛ وكيف وشاعر بن مهدي يمدحه بقوله :

لمن عسكر كاللّيل يعدو بدهْمِهِ ... ويزهو بميمون الزمان وشهْمِهِ
بأبلج إما جالدوا « فمحمّدٌ » ... بياناً ؛ وإما جادلوا « فابن عمِّهِ »

يشبّهه فصاحةً بالرسول ﷺ ؛ وفروسيةً بابن عمه الامام « علي » رضي الله عنه وقد سبق ايراد الأبيات وقلنا : هيهات هيهات ! وأين الثرى من الثريا . [راجع السفر الأول] .

٣ ـ يقول الدكتور : ان الملك علي محمد الصليحي قد نشأ فقيها ينمو في مقرّه بجبلة منذ سنة ٤٣٩هـ [ص : ٢٣] وهو خطأ فان الملك علي

الصليحي نشأ في « حراز » ؛ والذي جعل « جبلة » عاصمة له هو ابنه المكرم ثم الملكة السيدة بنت أحمد وسبق تفصيل أخبارهم .

٤ ـ ضبط مدينة « جبلة » عدة مرّار بضم الجيم [ص : ٢٣ و ٢٤ وغيرهما] وذلك خطأ ؛ فهي بكسر الجيم كما في معجم البلدان لياقوت الحموي ، وكما ينطقها اليمنيون إلى يوم الناس هذا .

٥ ـ وقع الدكتور في عدة أوهام وهو يسوق الحديث إلى « دولة الرسيّين » ـ حسب تعبيره ـ وبالرغم من أنه قال : « ومن أشهر أئمتهم المتوكل على الله (٥٣٢ ـ ٥٦٦هـ) وكان شاعراً محسنا له مكاتبات شعرية مع نشوان بن سعيد الحميري » [ص : ٢٤] . فقد ظن ان « المتوكل على الله » هو اسم الامام إذ لم يذكره ، ونحن نعرف انه يقصد الامام أحمد بن سليمان ، وكان يلقّب بالمتوكل على الله . وكذلك كان حاله مع الامام « عبد الله بن حمزة » فقد توهّم ان لقبه وهو « المنصور بالله » هو اسمه حتى قبل ان يدّعي الامامة .

٦ ـ الوهم الكبير

أما الوهم الكبير ـ ولا أدري كيف وقع فيه ـ فهو قوله وهو يتحدث عن الأئمة أيام العهد الرسولي « ومن مشهوريهم الحسن بن وهّاس و « الموطىء الرسي » الذي بويع بالامامة سنة ٦٤٥هـ وكان قوّاماً ، صوّاماً عالماً فقيها ، وظل الحكم بعده في أبنائه وتتوالى أئمتهم في عهد الدولتين : « الرسولية والطاهرية » [ص : ٢٤] .

ولم أسمع ـ وأعتقد أن أحداً لم يسمع ـ بامام اسمه أو لقبه « الموطىء الرسيّ » والذي نعلمه ان الامام الذي بويع سنة ٦٤٦هـ وكان « قواماً صوّاماً فقيها » هو الامام المهدي أحمد بن الحسين وقد كانت نهايته الاستشهاد سنة ٦٥٦هـ كما فصلنا سلفاً ، ولم يكن له خلفاء من أهله وأبنائه ولا ظلّ الحكم فيهم متوارثا !

٧ ـ مَعْن الحميري وليس الشيباني

وثمة وهم كبير آخر وقع فيه الدكتور عندما انتقل إلى الحديث عن الأسر التي حكمت أو توارثت الحكم في « عدن » إذ قد قال :

« أما عدن فكانت قديماً داراً لبني معن بن زائدة منذ ولايته عليها في عهد

المأمون الخ » [ص : ٢٤] وهي شطحةُ وهمٍ مُغْرِقة ومركّبة أيضاً : أولاً لأن معن بن زايدة الشيباني قد وصل إلى اليمن والياً من قبل الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور سنة ١٤٠هـ قبل ولادة المأمون ابن الرشيد بحوالي خمسة وعشرين عاما ! وظل فيها « عاملا » للمنصور حتى سنة ١٤٦هـ وفعل بأهلها الأفاعيل كما سبق في السفر الأول .

ثانياً : لأن عدن لم تكن داراً لبني معن بن زايدة الشيباني ، بل كانت خلال العصر العباسي تابعةً لبني زياد ، وهم الذين ولّوا علي بن معن الحميري عليها فلما ضعف الحكم الزيادي وتخطّف الطامحون أجزاء دولتهم ، استبدّ علي بن معن الحميري بالحكم في عدن وما صاقبها وخلفه ابنه معن بن علي حتى فتحها الصليحي سنة ٤٥٥هـ وقد هادن الملك الصليحي بني معن ، وسلم إليهم بلادهم لما بذلوا له من السلم كما يقول مؤرخ الصليحيين الدكتور الهمداني [ص : ٨٦ الصليحيون] ولما قُتِل الملك الصليحي عام ٤٥٩هـ أراد سلاطين بني معن ان يستبدوا بالسلطة من جديد ، ورفضوا تسليم الاتاوة السنوية إلى الملك المكرم الصليحي ، فغزاهم وطردهم وولى على عدن العباس ومسعود اليامّيين وتأسست دولة « بني زُريع » وهذا ما تحدثت به كل كتب التاريخ للقدامى والمحدثين من اليمنيين ، ولعلّ الوهم قد تسرّب إلى الدكتور ضيف من خطأ وقع فيه العلامة ابن خلدون في تاريخه إذ قد قال وهو يتحدث عن دولة بني زُريع في عدن : « وكانت صدر الاسلام دار ملكٍ لبني معن قال البيهقي ينتسبون إلى معن بن زائدة ملكوها من أيام المأمون وامتنعوا على بني زياد » الخ [ص ١٤٤ تاريخ اليمن سليمان محمود] وكلّ من ابن خلدون والبيهقي لا يعرف عن اليمن وأخبارها ما يعرفه المؤرخون من أبنائها ، وهما يتناوشان الأحداث من بعد سحيق ، وقد قال الجندي والخزرجي وهما يتحدثان عن تغلّب بني معن على عدن ولحج وحضرموت « وليسوا من ولد معن بن زايدة الشيباني » [ص ٢١٠ المصدر السابق] والمؤرخان المعاصران محمد الأكوع وعبد الله الشماحي أكدّا في كتبهما ان « ابن معن » الذي تغلب على عدن في العهد الزيادي حميريّ النسب ولا علاقة له بشيبان .

٨ ـ **يضبط اسم أبي بكر العَنَدِي بالياء والذال « العيذي »** وهو خطأ بسيط

وقد سبق الحديث باسهاب عن العندي بين شعراء الحقبة « الصليحية » وقد تكـرر هذا الخطأ ووقع فيه آخرون فنسبه البعض إلى « عيد » بالياء المثناة وآخرون إلى بني « عبد » بالباء والصواب ما أثبتناه .

٤ ـ الشعر الحميني والغناء اليمني

حين تحدّث الدكتور ضيف عن « المجتمع اليمني » تعرّض لذكر الغناء فقال : « والغناء قديم في اليمن ، وأشار المسعودي إلى أنه كان باليمن لعصره صنفان من الغناء « حميري » و « حنفي » ، ولعله يريد صنفاً قديما يرجع إلى عهد الدولة الحميرية قبل الاسلام ، وصنفا اسلامياً حنفيا أو حنيفيا » [ص : ٣٦] وهذا تعليل متكلّف لخطأ كتابي وقع فيه نسّاخ كتاب المسعودي وكنت قد ناقشت الموضوع قبل أن يكتب الدكتور كتابه ببضع سنوات في كتابي « من الأدب اليمني » فقلت : « فكلام المسعودي في مروج الذهب جزء ٤ صفحة ١٣٤ في سياق حديثه عن الأغاني اليمنية : « إنها كانت تصنّف إلى صنفين « حميري » و « حنفي » ، وان الحنفي منها كان أكثر حلاوة ، وأقرب إلى قلوب الناس الخ » . يخول لنا « القول ان النساخ بعد « المسعودي » قد لعبوا دورا كبيرا في محق وتصحيف اللفظتين : « حميري » و « حنفي » فمسخوهما ، وحرّفوهما ، وان أصلهما : « حميني » و « حكمي » ونظراً لجهل أبناء الأقطار غير اليمنية بالألفاظ اليمنية الخاصة اجتهدوا وكتبوهما بالصورة التي تستسيغها أفهامهم وأمزجتهم » .

« يحق لنا دون تردّد أن نفترض ذلك ـ بل أن نجزم به ـ ولو وجدت نسخة خطية أصيلة من أيام « المسعودي » لاستطعنا أن نجد الدليل ، ويؤكد صحة ما أذهب إليه انه لا يوجد في أي كتاب يمني ، ولا في روايات الناس المتداولة ما يشير إلى انه قد وجد في اليمن نوع من الشعر أو الغناء يدعى « حميري » أو آخر يسمى « حنفي » ! ولكن الكتب والروايات تتحدث كثيرا عن هذا الذي يسمى « حِكمي » وذلك الذي يدعى «حُميني » وتكثر الروايات المتداولة بين الناس عن قصائدهما وصنوف الحانهما ، وتفيض ما شاء لها الابداع والخيال في سرد الأقاصيص عنهما » . .

ثم ان تقارب مخارج الحروف وأشكال الرسم بين « حميني » و « حميري » ليست متفاوتة ، وكذلك بين لفظتي « حكمي » و « حنفي » وقد يصحّفون

« حنفي » في بعض الكتب إلى « حَبَقي » وذلك يؤكد ما ذهبنا إليه ، وغلطات النساخ كثيرة وأمثلتها معروفة ، وتفضيل المسعودي للحنفي ـ أيّ الحكمي ـ يحمل دليلا ذاتيا يؤيد صدق ما ذهبنا إليه ، لأنه يعني انهم كانوا يفهمونه ويتذوّقونه . . إذ أن ألفاظه ولهجته الفصيحة المعربة هي لهجة « سوق عكاظ » وهي لغة كل العرب ، وشعر غنائه ليس مقصوراً على القصائد اليمنية بل يلحنون ما هو على شاكلتها وأوزانها وأعاريضها لشعراء الجاهلية والاسلام منذ « أعشى قيس » وحتى « أحمد شوقي » [من الأدب اليمني ص : ٣٥٩ ـ ٣٦٠] .

وقد عاود الدكتور ضيف الكلام عن الحميني في الفصل الثالث « نشاط الشعر والشعراء » وبالرغم من أنه قال : « ولا نعرف متى ظهرت بواكير هذه الأشعار بالضبط » ويأليته وقف عند هذا القول ولم يزد عليه شيئاً ثم يفضي بما وصل إليه علمه الجم عن لهجة الحميني وعلاقتها بالفصحى والعامية ؛ لكنه قد اندفع مع محاولته في ايفاء الرسم حقه من « الدقة والاستقصاء » فأخذ برأي الدكتور محمد عبده غانم في كتابه النفيس « شعر الغناء الصنعاني » الذي حاول ان يحدّد تاريخ ظهور الشعر الحميني بما زعمه بعض القدامى وانه القرن الثامن الهجري وان مسمّطاته وموشحاته ليست إلاّ محاكاة للموشحات والأزجال الاندلسية ؛ بل ان الدكتور شوقي قد تجاوز ما ذهب إليه الدكتور غانم وقرّر ان « الحميني » يعد فرعاً كبيراً من شجرة « الشعر النبطي » الذي أخذ يشيع في الجزيرة العربية منذ القرن الثامن الهجري الخ [ص : ٩٠ ـ ٩١] وكل ذلك أوهام وقد ناقشت كتاب الدكتور محمد عبده غانم « شعر الغناء الصنعاني » مناقشة طويلة في كتابي « من الأدب اليمني » فليرجع إليه من يود الاستقصاء ؛ وأما صلة الشعر « الحميني » اليمني بالموشحات الأندلسية فقد سبق مناقشة الموضوع في فصل طويل من فصول هذا السفر ؛ وأثبت بالأدلة والبراهين والشواهد ان « الحميني » هو أصل وأب الموشحات الأندلسية وتحدثت باسهاب ـ ولأول مرة في تاريخ الأدب العربي في اليمن ـ عن تاريخه ، ومعنى الكلمة ، وأسباب التسمية وتوغّله في أعماق تاريخ الجزيرة العربية وانتشاره في اليمن قبل ان يسمع أبناؤها بما يسمى شعرا نبطيا أو موشحات أندلسية .

[راجع البحث من ص : ١٢٥ إلى ص : ١٥٩] .

وأما بالنسبة إلى ما نقله عن الدكتور غانم حول شعر الغناء الصنعاني وحداثته أيضاً ، وانه ربما بدأ في أواسط العصر الرسولي أو أواخره القرنين الثامن والتاسع الهجريين ثم تعقيبه على ذلك بقوله : « وفي رأيي أنه على الرغم من محاربة الأئمة الزيدية له كانت هناك نهضة غنائية في صنعاء وغيرها من مدن اليمن على الأقل منذ العهد الرسولي » [ص : ٣٧] وهذا الرأي لا يضيف شيئاً إلى ما زعمه الدكتور غانم من حداثة الغناء اليمني وشعره وكنت قد فندت هذا الرأي باسهاب في كتابي « من الأدب اليمني » وأرى اثبات ذلك اكمالاً للبحث قلت : [ص : ٣٠٧ ـ ٣٢٢] .

شعر الغناء الصنعاني قديم

لن أفتعل فذلكات ، فخير الكلام ما قلّ ودلّ ، ولست في حَاجَةٍ إلى الحديث عن الغناء اليمني ، وشعره وضروبه ، وفنونه وأوزانه ودوائره ، فقد أشبع الموضوع الدكتور الشاعر محمد عبده غانم ، ولأنه ـ كما سبق أن قلنا ـ قد أهمل أشياء كثيرة ، وأوهم في كتابه أن الغناء اليمني وشعره غير قديم ، وأنه مجلوبٌ فسأَستَدْرِك ما أهمله ، وأذكر ما يثبت أصالة وقدم الفن اليمني ، ولن آتي بجديد من عندي ، بل سأنقل ما أثبته العلماء قديماً وحديثاً ، غير متقيد بترتيب زمني للوقائع ، والروايات والرواة .

نعم ، لقد كان على الدكتور غانم أن يتعمّق في بحثه ؛ بالنسبة لشعر الغناء الصنعاني قبل القرن السابع ، وأن يذكر ذلك ، ولا أدري إذا كان قد اطلع على كتاب الدكتور الأديب ناصر الدين الأسد « القيان والغناء في الشعر الجاهلي ؟ » وهو كتاب قيِّم نشر عام ١٩٦٠ أي قبل أربعة عشر عاماً ؟ ولعلَّه من المفيد ، أن أنقل ما ورد فيه عن الغناء في اليمن ، وفي العصر الجاهلي فقط .

١ ـ قيان في عهد عاد :

يقول الدكتور الأسد تحت عنوان « اليمن وحضرموت » من صفحة ٥٨ إلى صفحة ٦٢ :

« ونتابع سيرنا ، حتى نصل إلى اليمن وحضرموت ، فنجد أن النصوص التي عثرنا عليها لم تبخل على هذه البلاد ـ كما لم تبخل على سابقاتها ـ فأشارت إلى وجود قيان في عَهد عاد ، فقد ذكر الهَمداني « الاكليل ـ٨ ـ ١٦٠ ـ ١٦٥ » عند حديثه عن مغارة متقادمة عاديّة فيها قبر

« ورعة » بنت عاد ، « ومنسك » بن نعيم خازن عاد ، أن في تلك المغارة تمثالين عظيمين « قد مسخهما الله جلّ ذكره حجرين وهما في صورة قينتين في حجْر إحداهما « عرطبة » ـ أي طنبورة ـ قد مسخت ، وفي اليد الشمال مزمار ممسوخ » ثم يذكر لنا « الاكليل ٨٦ ـ ٢٦٣ ـ ٢٦٦ » أن عمر بن عامر « مزيقيا » أعظم ملكٍ بمأرب وكان له تحت السد من الجنان ما لا يحاط به ، وفي زمنه خرب السد ـ خرج إلى بعض حدائقه ومعه قينتان له » . .

٢ ـ قوانين أسقف ظفار

« ثم ننتقل إلى نوعٍ آخر من النصوص ، ربما كان له من القيمة التاريخية ، ما يبعث شيئاً من الطمأنينة ، ذلك النص هو القوانين والشرائع التي سنّها أسقف ظفار « عاصمة حمير » ، زمن « أبرهة » ففي هذه القوانين أحكام تتعلّق بالزنا والبغاء وحدّ المحصّن وغير المحصّن ، وهي تحظّر على المغنّين والعازفين والممثلين والراقصين مزاولة فنونهم ، وتعاقب من يمارسها بالجلد والحبس سنة مع العمل الشاق » .

فالغناء والقيان في اليمن ـ على ما تزعم روايتا الاكليل ـ قديمة قدم عاد ثم أن لها من الذيوع والانتشار ـ في أوائل القرن السادس الميلادي ـ ما يضطر ذوي السلطان إلى سن القوانين للحدّ منها والقضاء عليها .

٣ ـ ذو جدن وامرؤ القيس :

ونعود إلى نصوصنا الشعرية ، فنرى « ذا جدن » الحميري ، يذكر حمير وما دخل عليها من الذل بعد العزّ الذي كانوا فيه ، وما هدم من حصون اليمن (زمن إرياط ـ الحبشة) .

فيقول (السيرة ١ / ١٤ وتاريخ الطبري٢ ـ ٩٢٨) .

دعيني ، لا أبالك لن تطيقي ... لحاك الله قد أنزفت ريقي ،
لدى عزف « القيان » إذا انتشينا ... وإذ نُسقى من الخمر الرحيق
وشرب الخمر ليس عليّ عاراً ... إذا لم يشكني فيها رفيقي

وكان أمرؤ القيس بعدما طرده أبوه يسير في أحياء العرب ، ومعه أخلاط من شذّاذ العرب ، فإذا صادف غديراً ، أو موضع صيد ، أقام فذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيّد ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه ،

وشرب الخمر ، وغنّته قيانه (الأغاني ـ ساسي : ٨ ـ ٦٥) وهو القائل :

وإن أمس مكروباً فيا ربّ « قينةٍ » منعّمة ، أعملتها بكُران
لها « مزهر » يعلو الخميس بصوته أجش إذا ما حرّكته يدان

وكان امرؤ القيس يأمرهنّ أن يغنين بشعر مرّة بن الرّواع ـ وكان من قدماء شعراء بني أسد ـ وكان قيان الملوك أيضاً يغنين به « الآمدي ، المؤتلف والمختلف : ١٢٧ رقم ٣٩٥ ، وكذلك المرزباني معجم الشعراء صفحة ٣٨٢ » :

أنّ الخليط ، أجدّ البين ، فادّلجوا وهم كذلك ، في آثارهم لُجُج
عصر الشباب يغنيني مصلصلة جَيْداء ، لا صَحَل فيها ولا رتج

٤ ـ الأعشى ، والغناء ، والقيان في اليمن :

ونعود إلى الأعشى ، فنراه يشير إلى إحدى قيان حضرموت ، في قصيدة يذكر فيها بعض ممدوحيه ، ومطارح ترحاله ، (الصبح المنيرق : ٦٣) .

وصَحِبْنا من آل جفنة أملاكا كراماً بالشام ، ذات الرفيفِ
وبني المنذر الأشاهب بالحيرة يمشون غدوةً كالسيوف
« وجلنداء » في « عمان » مُقيماً ، ثم قيساً في حضرموت المنيف
قاعداً حوله النّدامى ، فما ينفك يُؤتى بمُوكرٍ مجدوف ،
وصَدوح إذا يهيجها الشرب ، ترقّت في مزهر مندوف .

وكان الأعشى يزور أساقفة نجران ، ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيِّد ، وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهما ما شاء ليسقونه الخمر ، ويسمعونه الغناء الرومي ، فإذا انصرف أجزلوا صلته (الأغاني ـ ساسي : ٦ : ٦٩ ـ ٧٠) وهو القائل في قصيدة يمدح بها رهط قيس بن معدي كرب ويزيد بن عبد المدان بن الديّان ، (الصبح المنيرق : ٢٢) .

وشاهدنا الورد ، والياسمين والمسمعات ، بقصابها
ومزمرنا معمل دائم فأي الثلاثة أزْرَى بها
ترى « الصنج » يبكي له شجوه مخافة أن سوف يُدعى بها

ويمدح في قصيدة أخرى بني الحارث ، وهم رهط يزيد بن عبد المدان ، فيقول يصف ناقته (الصبح المنيرص : ٢١٩)

قاصدٌ وجهها ، تزور بني الحارث أهـل الغِنـاء ، عنـد الشروب .

وهذه الأبيات جميعها صريحة الدلالة على انتشار الغناء والقيان في هذه البلاد في هذه الفترة التي ندرسها ، بل لقد بلغ من كثرة هؤلاء القيان أنهنّ كنّ يوهبن .

قال الأعشى يمـدح مسروق بن وائـل ، وهـو حضرمي كان يسكن « بعبانه » ، وهو أحد أمراء واشراف اليمن (الصبح المنير ص : ٧٠) .

الـواهـب القيـنـات ؛ كـالـغـزلان . . . فـي عقـد الخـمـائـل ،

وقال يمدح قيس بن معدي كرب الكندي (الصبح المنير ص : ١٩) .

هو الـواهب المسمعـات الشروب بيـن الحـرير وبـيـن الـكـتـن

وهو القائل أيضاً (المصدر السابق : ٥٥) .

هو الـواهب الكـوم الصفـايا لجاره يُشبَّهْنَ دَومـاً ؛ أو نخيـلاً مَكَمَّـمَا
وكـلِّ ذمُـولٍ كالـفـتيق ، وقَيْنـةٍ تَجُرّ إلى الحـانـات بُرداً مُسَـهَّـمَا

٥ ـ عامل أبي بكر والمغنيتين :

ونجـد اليمن وحضرمـوت ـ حتى في صدر الاسـلام ـ تزخـران بهؤلاء القِيَان ـ فقد وقع إلى المهاجر ـ وهو قائد أبي بكر في حروب الردّة ، وعامله على اليمن ، إمـرأتـان مغنيتـان ، غنّت إحـداهمـا وزمـرت بشتم رسـول الله ﷺ ، فقطع يدها ونزع ثنّيتها ، وكذلك فَعَل بالثانية التي غنّت بهجاء المسلمين ، (تاريخ الطبري ٤ : ١٤ ـ ٢٠) . ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربِّـه كان باليمن نسـوة يتمنّين موته عليه السلام ، فَخَضبْنَ أيديهنّ بالحنّاء ، وضربن بالدفوف ، وتأشّب إليهن قيانٌ لكندة وعواهر لحضرموت (المحبر ١٨٤ ـ ١٨٨) .

٦ ـ جرادتا عاد ، وأول من غنى :

وقـد ذكـر الـدكتـور ناصر الدين أيضاً قصة جرادتي عَادٍ ، وإنشادهما للوفد ، الذي تلهَّى عن أداء مهمة الغوث وقوله :

أَلا يا قيـل ويحـك قمّ فهيـنـم ، لعـل الله يسـقـيـنـا غمـامـا

وقوله :

ألا يا قيل من عوض ، ومن عاد ومن سام

فليرجع إليه ص ٧٦ .

وعند أن يصل به البحث إلى أول من غنى من الرجال ينقل لنا (ص ١٠٣) نصاً عن ابن الطحّان ، صاحب « حادي الفنون » يقول « وقد اتّفقت الروايات على أن أول من غنى في الجاهلية ، جنجور » ؟ وقيل « عَلَس ذو جدن » وبعدهما علقمة الفَحل الخ . . .

وأمّا أول من غنّى من النساء فلا نجد عليها اختلافاً ، فالمسعودي وابن عبد ربّه ، وابن الطحّان ، وغيرهم يقررون أن أول من غنى من النساء هما الجرادتان على عهد عاد (ص ١٠٣) .

٧ ـ أنواع الغناء اليمني في الجاهلية

وفي صفحة (١٣٣) يذكر الدكتور ناصر الدين ، أن النظرية الغنائية الجاهلية ذات الايقاع ، كان لها طرائق ومراتب ذات مصطلحات فنية ، ويقول في الحاشية « وينبغي أن أشير هنا إلى أن « اليمن » كانت تعرف من طرق الغناء وإيقاعه ضرباً آخر ذكره ابن خرداذبة (مروج الذهب ٨ ـ ٨٨) » وذلك قوله « وكان غناء أهل اليمن بالمعازف وإيقاعها جنس واحد ، وغناؤهم جنسان حنفي ، وحميري ، والحنفي أحسنهما » وقد ذكر المفضّل بن سلمى في كتابه « العود والملاهي » (مخطوط دار الكتب ـ ورقة رقم ٤٤) أن غناء أهل اليمن كان يدعى الحبقي . (والكلمات مصحّفة عن حميني وحِكمي) كما بينا في فصل « الشعر الحميني » . .

ونص آخر في كتاب الدكتور الأسد عند حديثه عن الغناء الديني ، له علاقة بالشعر اليمني وهو قوله صفحة ١٥١ :

وأطرف هذه التلبيات ، هي تلبية علّك ، فقد ذكر إبن حبيب النسابة (المحبر ٣١١) أن علك كانت إذا بلغوا مكة ، يبعثون غلامين أسودين ، أمامهم يسيران على جمل ، مملوكين قد جرّدا ، فهما عريانان ، فلا يزيدان

على أن يقـولا « نحنُ غَرابا عكّ » ، وإذا نادى الغلامان بذلك صاح من خلفهما من عكّ :

عـكّ إلـيـك عـانـيـه عبـادك الـيـمـانـيـه
كـيـمـا نحـجّ الـثـانـيـة علـى الشِـداد الـنـاجيـه

٨ ـ الغناء في عهد عمارة

وقد ذكر الشاعر المؤرخ عمارة اليمني ، المتوفى قتلاً سنة ٥٦٩ في تاريخه ، قصصاً ظريفة توحي بأن عصره كان مزدهراً بالغناء . . . وخصّ بالذكر مغنيتين هما « أم أبي الجيش » و« وردة » ، وأشاد بالأديب حمير بن أسعد مربي القيان وأستاذهنّ ، وبائع السموم وجليس الأمراء ، قال في صفحة ١٠٢ وما بعدها بعد أن حدثنا عن مغنية اسمها « علم » كانت لمنصور بن فاتك ، اصطفاها بعد أن اغتال مولاها أنيس الفاتكي : [وأورد ما سبق ايراده ونحن نتحدث عن الحياة الاجتماعية في زبيد وعبث الأمراء في السفر الأول] .

٩ ـ مهنة الغناء والأشراف

وما كان لنا أن نستطرد ، لولا أن الحادثة لها علاقة باليمن ، من جهة ، ومن أخرى لندلّل على أنَّ غياب ذكر أسماء المغنيين ، والمطربين من الكتب لا يدل على عدم وجودهم ، إذ قد كان الناس قديماً ، يستنكفون أن يُعرف عنهم أنهم يزاولون مهنة الغناء ، ويتركون ذلك للقيان ، والموالي ، وقد توسع في شرح ذلك الدكتور الأسد في « القيان والغناء » . كما أن قول الهمداني « وللرجال من الموالي لحون غير ذلك ، عجيبة التراجيع » ، فيه إشارة تؤكد ذلك ، ولقد روى صاحب الأغاني عن اسحق الموصلي أنه كان يقول ؛ إنّه يود أن يضرب على رأسه ولا أن يقال غنّى ، أو يلقب المغنّي .

وروى صاحب الأغاني في الجزء الرابع ، أن الأمراء كانوا يأمرون بأن يُخصى المغنون ، وأنهم كانوا يدعون بالمخنّثين مثل « طويس » ، والدلال الخ ص : ٢٢٣ .

بل أن الأشراف كانوا يكرهون أن يلقبوا بالشعراء ، ولا يريدون لأحد من أسرهم أن يكون شاعراً ، كما حدث للحارث مع أخيه عمر بن أبي ربيعة ،

وكما حصل لامرؤ القيس مع أبيه والقصة مشهورة .

١٠ ـ الغريض ، إستوطن اليمن ، ومات بها

والغـريض ؛ وهـو من هو منـزلة في الغناء ، والضرب بالعود ، يقول صاحب الأغاني ص ٣٩٩ ـ جزء ٣ ـ انه استوطن اليمن مدة ثم مات فيها ، على يد بعض المتزمتين ، ولا شك أنه لم يترك الغناء ، وأن قوماً من اليمنيين قد تأثـروا به ، وآخـرين قد حاربـوه ، ولقد أشار إلى ذلك أبو الفرج عن إسحق ، عن أحـد بني مخزوم ، أنـه قال : أن الغريض . . لما صار إلى اليمن ، وأقام به ، اجتزنا به في بعض أسفارنا ، قال فلما رآني بكى ، فقلت له ما يبكيك ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، وكيف يطيب لي أن أعيش بين قوم يروني أحمل عودي ، فيقولون لي يا هناه أتبيع آخرة الرحل ؟ فقلت له فارجع إلى مكـة ، ففيهـا أهلك فقـال : يا ابن أخي إنما أنا كنت استلذ مكة ، وأعيش بها ، مع أبيك ونحـوه ، وقـد أوطنت هذا المكان ، ولست تاركه ما عشت ، قلنـا له : فغننـا بشيء من غنـاءك فتـأبّى ، ثم أقسمنا عليه فأجاب ، وعمدنا إلى شاة فذبحناها وخرطنا من مصرانها أوتاراً ، فشدّها على عوده ، واندفع فغنّى في شعر زهير :

جرى دمـعي فهيّـج لي شجـونـا ... فقـلبـي يسـتـجنّ به جنـونـا

فما سمعنـا شيئـاً أحسن منه ، فقلنا له ارجع إلى مكة ، فكل من بها يشتاقك ، ولم نزل نرغبه في ذلك حتى أجاب له ومضينا لحاجتنا ، ثم عدنا فوجدناه عليلاً ، فقلنا ما قصتك ؟ قال : جاءني منذ ليالٍ قوم ، وقد كنت أغني في الليل ، فقالوا غنّنا فأنكرتهم وخِفتهم فقال لي بعضهم غنني :

لقد حثّوا الجمال ليهربوا منّا ، فلم يئلوا

ففعلت ، فقام إليّ هن منهم أزَب ، فقال لي أحسنت والله ، ودقّ رأسي حتى سقطت لا أدري أين أنا ؟ فأفقت بعد ثالثة وأنا عليل كما ترى ، ولا أراني إلا سأموت ، قال فأقمنا عنده بقية يومنا ، ومات من غد فدفناه وانصرفنا .

ويقول بعد ذلك في رواية أخرى .

زعم المكّيون أن الغريض خرج إلى بلاد عكّ (بخلاف باليمن) فغنّى ليلاً :

هُمو ركب لقوا ركباً كما تتجمع السبل

فصاح به صائح ، أكفف يا أبا مروان ، فقد سفهت حلماءنا ، وأصبيت سفهاءنا ، فأصبح ميتاً ص : ٤٠١ .

ويتضح من هذا أن بعضاً من أهل اليمن قد فتن بالغريض وألحانه ، وأن قوماً آخرين من قساة القلوب والمتعصبين قد نقموا عليه فنّه ، وخافوا من فتنته على حلمائهم وعلى سفهائهم أيضاً ، فعملوا على التخلص منه ، بالطريقة التي ذكرها الرواة .

١١ ـ طويس وذو جدن :

وأبو الفرج أيضاً يحدثنا في الجزء الرابع ص : ٢١٧ عن ذي جدن الحميري وأخباره ، وعن الشعر الذي ينسب إليه ويغنّى به :

ما بال أهلك يا رباب خُزراً كأنهمو غضابُ
ان زرت أهلك أو عدوا وتهر دونهمو الكلابُ

ويقول : أن طويس المغني قد لحنه ثم يقول :

« وهو ملك من ملوك حمير ولقب « ذو جدن » لحسن صوته ، والجدن الصوت بلغتهم ، ويقال أنه أول من تغنّى باليمن » .

ومن أخباره التي تدل على أنه غنى مما رواه ابراهيم بن ذي المشعار عن حيان بن هانىء الأرحبي عن أبيه قال :

« أخبرني رجل من أهل صنعاء أنهم حفروا حفيراً من زمن مروان ، (القرن الأول الهجري) فوقعوا على أزج ـ ضرب من الأبنية ـ له باب ، فإذا برجل على سرير كأعظم ما يكون من الرجال ، عليه خاتم من ذهب ، وعصابة من ذهب ، وعند رأسه لوح من ذهب ، مكتوب فيه « أنا علس ذو جدن القيل ، لخليلي منّي النّيل ، ولعدوي منّي الويل ، طُلبت فأُدركت ، وأنا إبن مائة سنة من عمري ، وكانت الوحوش تأذن لصوتي (يشير بذلك إلى جمال صوته) وهذا سيفي ذو الكف عندي ، ودرعي ذات الفروج ، ورمحي الهزبري ، وقوسي الفجواء وقرني ذات الشر فيها ثلاثمائة جشر ، من صنع ذي نمر ، أعددت ذلك لدفع الموت عني فخانني » . وعن بن الكلبي

أنه كان مكتوباً على سيفه بالمسند .
بأست امرىء كنتَ في يده فلم ينتصر . . ص ٢١٨ ـ أغاني جزء ٤ .

١٢ ـ وضاح والهزج اليمني :

بل ولماذا نذهب بعيداً وقصيدة وضّاح اليمن صاحب القصة المحزنة مع « روضة » وأم البنين ، وهو من شعراء اليمن في العصر الأموي ، وتُغني بأشعاره في اليمن وغيرها ، وفي كتاب الأغاني جزء ٦ صفحة ٢١٦ ـ صوت :

يا روضِ جيرانكم الباكرُ فالقلب لا ناهٍ ولا آمرُ
قالت ألا لا تلجنْ دارنا إنّ أبانا رجل غائرُ

قال أبو الفرج الغناء في هذه الأبيات « هزج يمني » وفي بعض النسخ كما في الحاشية « هزج يمني قديم » ولذلك دلالته التي لا تخفى على مثل الدكتور ، وبقية القصيدة معروف ومتداول ، ويتغنى بها بنفس ألحان قصيدة بكر بن مرداس وغيرها .

أما كانت الفرصة سانحة للفنان عبده غانم ، أن يجعلها من أقدم نصوص شعر الغناء الصنعاني ، مستنداً إلى كلام أبي الفرج الأصفهاني ، أولاً ، وثانياً إلى الواقع إذ أن الفنانين اليمنيين ، وهواة الغناء من الأدباء ، ظلوا وما زالوا يترنمون بلحنها الجميل ؟

وكثيراً ما ذكر أبو الفرج الأصفهاني الأهازيج اليمنية مثل قوله (ص ٢٣٤ جزء ٦) .

صوت :

أتعرف أطلالا بميسرة اللوى إلى « أرحب » قد حالفتك به الصبا
فأهلاً وسهلاً بالَتي حل حبّها فؤادي وحلت دار شحط من النوى

قال : الغناء فيه هزج يمني بالبنصر عن إبن المكي .
وفي صفحة ٢٣٩ صوت :

ألا يا لقومي اطلقوا غلّ مُرتهن ومنّوا على مستشعر الهم والحزن

الخ .

وبعد أن قال أن الغناء لابن سريج ، وله فيه لحنان الخ . . .
قال : وفي هذه الأبيات هزج يمني بالبنصر .

كل هذه الأمثلة والشواهد تؤكد أقدميّة الغناء وشعره في اليمن سواء بالعربية الفصحى المعربة ، لغة « سوق عكاظ » ، أو باللهجة « الحُمينية » الملحونة ، وأهازيج اعاريضها الخاصة بأهل اليمن .

ولم ننقل عن كتابنا « من الأدب اليمني » الا ما يتعلق بالجاهلية وصدر الاسلام والعصر العباسي إلى مطلع العهد الرسولي وهي القرون التي نؤرخ لآدابها وآثارها الفكرية والبيانية والفنية وأمّا أدوار الأدب بعد القرن السابع وإلى قرننا الخامس عشر الهجري فذلك ما نأمل التحدث عنه في الأسفار التالية وسيكون لنا مع الدكتورين الجليلين شوقي وغانم وغيرهما ممن كتبوا عن اليمن وتاريخها الفكري والثقافي حديث طويل إن شاء الله .

٥ ـ رأي الامام زيد بن علي في الامامة

ولما تحدث الدكتور ضيف عن « التشيع » والزيدية قال إن زيد بن علي « الذي ثار بالكوفة على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ وقتل وصلب وكان يرى ان الامامة مقصورة على أبناء السيدة فاطمة ولا مانع من أن يكونوا من أبناء الحسن أو الحسين ، وكان يجوز امامة المفضول مع وجود الأفضل ؛ وبذلك جوّز امامة أبي بكر وعمر مع وجود علي بن أبي طالب لمصلحة رآها الصحابة وقاعدة دينية اتبعوها » الخ . [ص : ٤٠] .

ولم يبيّن الدكتور المصدر الذي استقى منه وأخذ عنه ان الامام زيد نفسه رضي الله عنه كان يرى قصر الامامة وحصرها في الحسن والحسين عليهما السلام مع ان المعروف والمنقول عنه غير ذلك وفي مجموع الامام زيد نصوص صريحة بذلك ومنها : قال سألت زيد بن علي عليه السلام عن الامامة ، فقال هي في جميع قريش ، ولا تنعقد الامامة إلا ببيعة المسلمين ، فإذا بايع المسلمون وكان الامام براً تقيّاً عالماً بالحلال والحرام فقد وجبت طاعته على المسلمين [ص : ١٧ ـ ١٨ ج ـ ٥ ـ مجموع طبعه المؤيد] .

وهو بهذا لا يخرج عن ما قاله غيره من أئمة المسلمين ، وما رووه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أحاديث كثيرة ان « الأئمة من قريش » و « الأمر في قريش » و « الأمراء من قريش » و « الناس تبع لقريش » و « لا يزال هذا الأمر في قريش » رواه البخاري ، وفي الباب ما رواه الترمذي والنسأي ومسلم وغيرهم . وقد احتج بهذا أبو بكر الصديق على الأنصار يوم السقيفة فتركوا ما توهموه ، رواه البخاري .

فمن أين استقى الدكتور ان الامام زيد رضي الله عنه « كان يرى ان الامامة مقصورة على أبناء السيدة فاطمة » ؟

ثم ألم يدرك انه قد ناقض نفسه حين قال ان الامام زيداً « كان يجوّز امامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك جوّز امامة أبي بكر وعمر مع وجود علي ؟ » والشيخان الصديقان رضي الله عنهما ليسا فاطميّين طبعا ! أليس

في هذا وحده الدليل القطعي بان زيداً كان لا يرى ان الامامة مقصورة على الفاطميين ؟

أما ما نراه ونطمئن إليه فقد سبق أن أسهبت في شرحه وأنا أتحدث عن « الامـام الهادي » يحيى بن الحسين في السفر الأول ثم في غضون بعض الفصول ؛ وقد اخرج الامام البخاري من حديث أنس عن النبي ﷺ قوله : « اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي رأسه كرأس الزبيبة ما أقـام فيكم كتـاب الله » فالأصل هو إقامة كتاب الله والحكم بما أنزل ؛ ولا يهم بعد ذلك لا حسب ولا نسب وهو ما يذهب إليه الفقهاء الاعلام من أهل البيت وغيرهم قديماً وحديثاً ويؤيّده ما رواه الامام أحمد والخطيب عن ثوبـان والـطبراني في الكبـير « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فان لم يستـقـيمـوا لكـم فضعـوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا خضراءهم [المجموع ـ جـ ـ ٥ ـ ص ١٥] .

٦ ـ الشعر والشعراء ، واللغة الحميرية

تلك هي بعض الأخطاء والأوهام التي وقع فيها الدكتور وهو يتحدّث عن السياسة والمجتمع والتشيع . وقد تحدّث بعد ذلك عن الخوارج والأباضية ، والزهد والتصوّف ثم انتقل إلى الفصل الثاني وتكلّم عن الثقافة ، ونشاط الحركة العلمية ، واللغة والنحو والبلاغة ، والفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام والتاريخ بايجاز غير مخلّ ، ومحاولة جادة تستهدف « الدقّة » و « الاستقصاء » ، وما إن وصل إلى الفصل الثالث « نشاط الشعر والشعراء » حتى جهر بما لا يمكن التغاضي عنه ، والردّ عليه إذ قد قال :

« ظل الشعر حيّاً يجري على الألسنة في الجزيرة العربية طوال هذا العصر ، ومعروف أنه منها نبع قديماً ، وان ينابيعه كانت تمتد في شمال الجزيرة وشرقيها وغربيها ، أو قل في الجزيرة جميعها باستثناء اليمن في العصر الجاهلي ، أو بعبارة أدق باستثناء أعماقها ، إذ كانت اليمن الشمالية [هكذا] ! قد أخذت في التعرّب واستخدام الفصحى ، ولم تبق إلا أنحاء قليلة تتكلّم الحميرية ، بينما كانت العربية تنتشر في اليمن بازاء الحجاز وفي نجران ، وفي حضرموت وبين أزد عمان ، وتم تعرّبُ اليمن سريعاً بعد الاسلام ، أو قل ثم تعرّب ما كان قد بقي منه يتحدث الحميرية » [ص : ٨٨] .

وهذه الأغلوطة ـ لغة حِميَر ـ ما فتئت مجالاً لِلّغَطِ والتخمينات من قبل « المستشرقين » وتلامذتهم « المستغربين » منذ مطلع القرن العشرين الميلادي ؛ وكان أجهر صوت هزّ مشاعر العرب والمسلمين ، وفاجأهم بما لم يتوقعوه ، ولا تخيلوه هو أستاذ الدكتور شوقي ضيف . . وأعنى به عميد أدب جامعة فؤاد بالقاهرة الاستاذ الدكتور طه حسين في محاضراته التي كان يلقيها على تلاميذه والتي اخرجها فيما بعد في كتاب سماه « في الأدب الجاهلي » ؛ وكنت قد ناقشته باسهاب وبما يمكن أن نناقش به تلميذه الدكتور ضيف وفيه الكفاية . اذ قد قلت يومئذ ما يلي :

والآن لعله قد آن لنا أن نتساءل ، هل كان لذلك الشعب العريق المتحضر أدب وبيان بمعناهما المفهوم لدينا اليوم ؟ وهل كان لهم حقاً حضارة

فكرية ولسانية إلى جانب تلك الحضارة المادية ؟ وهل كانت لغتهم عربية لها صلة بلغة القرآن الكريم والأدب العربي . . هذا الأدب الذي بين أيدينا وتوارثناه عن آبائنا ؟

قد يثير تساؤلي الاستغراب والدهشة . . إذ ليس من المعقول أن يكون شعب بلغ المستوى الحضاري العالي الذي بلغه الشعب العربي في اليمن أيام معين وسبأ وحمير ثم لا يكون له أدب ولا فنٌ ولا بيان . ثم لماذا هذا التساؤل : « هل يعتبر أدبهم عربياً أم لا ؟ وهل كانت لغتهم عربية أم لا ؟ » وكيف لا وهم كانوا أصل العرب ، ومن أرضهم انتشرت العروبة في سائر آفاق الجزيرة وغيرها ؟ ولكن الذي حدا بي إلى أن اتساءل وأفترض هذه الاحتمالات هو أن الدكتور « طه حسين » يقرر في كتابه « في الأدب الجاهلي » أن اليمن لم يكن لها أدب في الجاهلية ، وأن لغتها لم تكن لغة عربية ، بل ويقرر أيضاً أن نصيبها من الأدب العربي حتى في القرنين الأول والثاني للهجرة لم يكن ذا بال إذ كانوا لا يزالون يجهلون اللغة العربية ولا يجيدون النطق بها !

قرر الدكتور « طه حسين » ذلك في كتابه « في الأدب الجاهلي » وأشار إليه أكثر من مرة ، وتحدث عنه في عدة مواضع ، وكرّره أشكالاً وألواناً من التكرير ، ونستطيع أن نلخص مزاعم الدكتور طه في شيئين ، فقد ادعى أولاً : أن لغة أهل اليمن لم تكن لغة عربية ، وزعم ثانياً : أنه لم يكن لليمنيين شعر ولا أدب ، لا في الجاهلية ولا في صدر الاسلام ، وأوضح وأكد دعواه الأولى بقوله : « وفي الحق أن البحث الحديث قد أثبت خلافاً جوهرياً بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية ، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من اثبات هذا الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضاً » .

ويستمر الدكتور مدللاً على رأيه يكرر من الجمل والألفاظ والمعاني ما يحاول أن يثبت به الفرق الجوهري بين لغة حمير ولغة عدنان ويناقش من سمّاهم بالمُمارين الذين يأبون دائماً الا ان يطالبوا بالحجة ممن يخالفونه الرأي . . نقاش المتثبت مما يقول ، الذي يسوق الدليل ويُفضي بالقول وهو ضيّق بالجهد المراق ، ضنين بالوقت المضاع قائلا :

« وهم يجهلون انا لو نضع بين أيديهم هذه النصوص « الحميرية » كما تركها أصحابها مكتوبة بخطها الحميري فلن يجدوا سبيلاً إلى أن يتقدموا في قراءتها خطوة ، ولو نضعها بين أيديهم منقولة إلى الخط العربي فقد يقرأون من غير فهم فضلا عن استنباط الفروق المتصلة بالنحو والصرف ، وهم يجهلون انا لو نترجم لهم ونضع أيديهم على هذه الفروق فقد نضيع كثيراً من الزمان والمكان في غير حاجة ولا غناء » .

ثم يورد نصاً بخط « المسند » أورده الاستاذ « جويدي » لتلاميذه في « الجامعة القديمة » ويقول الدكتور ان الاستاذ « جويدي » قد أورد النص المذكور كنموذج لما بين اللغة العربية والحميرية من القرب ، . . ويذكر أيضاً تفسير الاستاذ « جويدي » لكلمات النص ونصاً آخر مفسرة كلماته ، ثم يقرر بعد ذلك أنه « إزاء لغتين مختلفتين لا لغة واحدة ، وان القحطانية شيء والعدنانية شيء آخر والحميرية شيء والعربية شيء آخر واننا إزاء لغتين احداهما كانت قائمة في الشمال وهي التي نريد أن نؤرخ آدابها ، والأخرى كانت قائمة في الجنوب وهي التي تمثلها النصوص الحميرية والسبئية والمعينية ونحن لا نسرف ولا نشتط حين ننكر ما يضاف إلى أهل الجنوب من شعر وسجع ونثر قيل بلغة أهل الشمال قبل الاسلام » .

ترى هل كان هذا الحكم القاسي الذي أصدره « الدكتور طه » وليد تفكير وبحث ودراسة ، أم هو مجرد خاطر عابر وجد فيه تفسيراً للغامض ، واكتناهاً للمجهول ، وتخلص به من عناء البحث والتحقيق والتنقيب ؟ وكان أسهل عليه أن يشطب بجرة قلم أو على الأصح « بنفثة لسان » تاريخ شعب ومعالم حضارة عريقة من أن يجهد نفسه ووقته وتفكيره ليصل إلى عين الصواب ، أم هو حقاً كما يقول بعض ناقديه قد نقل ذلك دون تمحيص عن بعض أساتذته من المستشرقين وانه كثيراً ما ينقل عنهم ما يقولونه عن العرب والأدب العربي مهما كانت أقوالهم مجانفة للصواب ؟

ولكن ، هلا علم الدكتور ان الثلاثين عاماً الأخيرة شهدت تقدماً في دراسة اللغة المعينية والسبأية جعلها معروفة لنا أضعاف ما كانت عليه من قبل فإذا كان قد اعتمد على ما قاله بعض الباحثين من الأجانب قبل ثلاثين عاماً أو تزيد ، فان ذلك قد تغير تماماً بعد أن تمت دراسة آلاف النقوش

الأخرى ، وجمعت النصوص ، وقورنت ببعضها ، ولا شك انه لو قدر لأي باحث أن يكتب اليوم لوجد في نتائج دراسات المستشرفين المحدثين أنفسهم غير ما كتبه أساتذتهم القدامى ، وإذن فيكون من الاسراف والشطط ارسال الكلام على عواهنه دون تقدير لما قد تتكشف عنه الأيام .

ولكي ننصف الدكتور طه نرى انه قد استند أيضاً إلى عبارة « لأبي عمرو ابن العلاء » المتوفي سنة ١٥٤هـ (٧٧١ م) يقول فيها كما رواها الدكتور في كتابه : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » واستنتج من ذلك ان الأوائل أنفسهم قد فطنوا إلى الفرق الجوهري بين لغة أهل الشمال ولغة أهل اليمن ، وقد جنت هذه العبارة جناية كبرى على الأدب اليمني وكانت عند الدكتور أصدق مما رواه الثقاة من شعر ونثر لأبناء اليمن في الجاهلية ثم في القرن الأول والثاني للهجرة ، وكل ما روي « لعلقمة بن ذي جدن » ، « وعمرو بن براقة » ، « ومالك بن حريم » ، « وعمرو بن يزيد العوفي » ، « وعمرو بن معد يكرب الزبيدي » ، ثم عن أدباء وشعراء اليمن في صدر الاسلام ، ولا بد لنا قبل أن نقف مع تلك الأشعار ونتساءل كيف كان يتفاهم أبناء العرب في الشمال والجنوب عندما يلتقون في أسواق العرب المشهورة ، وفي الحيرة بالعراق ، وعلى ضفاف بردى بالشام ؟ وبأي لغة خاطب وفد قريش الملك « سيف بن ذي يزن » حين قصدوه للتهنئة إلى قصر « غمدان » بصنعاء أثر انتصاره على الحبشة واسترداده ملك أجداده ؟ وكيف كان يتفاهم النبي ﷺ مع المهاجرين الوافدين من اليمن وشتى قبائلها لو لم يكونوا عرباً اقحاحاً يجيدون العربية الفصحى ويصطنعُونها لهم لغة ؟ وبأي تفسير نفسر الخطب والقصائد التي كان ينشدها شعراؤهم ويرتجلها خطباؤهم عندما يقفون بين يدي الرسول الكريم وتلك الكتب التي كان يتبادلها صلى الله عليه وسلم مع ملوك حمير وأقيالها وزعماء القبائل اليمنية والكثير من ذلك رواه الثقاة ومذكورة في الصحاح .

قبل هذا وذاك لا بد أن نقف قليلاً عند كلمة « أبي عمرو بن العلاء » لنعرف ما هو القصد الصحيح منها وهل تصلح ان تكون متكأ لانكار عروبة اليمن ؟

نعود إلى « طبقات فحول الشعراء » لنراجع المصدر الذي استقى منه

الدكتور هذه العبارة فنرى أن النص قد حرّف وحذف منه وأخرج في قالب جديد .

أما النص الذي رواه ابن سلام في طبقاته عن أبي عمرو بن العلاء فهو كما يلي : « قال أبو عمرو بن العلاء في ذلك : ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » فالذي حذف قوله « وأقاصي اليمن اليوم » في النص الذي نقل عنه الدكتور قد حذفه حتى لا تنصرف الأذهان إلى ان هناك فرقاً بين لسان من يقطنون في أقاصي اليمن ومن يجاورون القبائل المُضرية فتنصرف بالتالي إلى قصد أبي عمرو بن العلاء وغرضه ، وهو التعبير عن اختلاف اللهجات وتباينها في زمنه وليؤكد هذا الانصراف غيّر عبارة « ولا عربيتهم بعربيتنا » وابدلها بقوله « ولا لغتهم بلغتنا » وهي صريحة واضحة تحمل نفس الدليل على ان أبي عمرو لم يرد إلا الكلام عن اختلاف اللهجات عند كل قبيلة من القبائل العربية كما هو معروف .

ويؤكد ذلك بل ويجعله يقيناً ما رواه عبد الله بن مسلّم بن قتيبة عن أبي حاتم عن الاصمعي عن أبي عمرو بن العلاء نفسه أنه قال : « تسع قبائل قديمة ، طسم وجديس ، وجهينة ، وحجم ، والخثعم ، والعماليق ، وقحطان ، وجرهم ، وثمود ، فهؤلاء قدماء العرب الذين فتق الله ألسنتهم بهذا اللسان وكانت أنبياؤهم عرباً ، هود وصالح وشعيب عليهم السلام . فليس من المعقول أن يقول أبو عمرو بن العلاء أن قدماء العرب هؤلاء قد تفتقت ألسنتهم بالعربية ثم يأتي مرة أخرى فينفي عنهم التكلم بالعربية كما أراد الدكتور طه أن يفهم من كلمة أبي عمرو بن العلاء المحرفة .

وقد سبقنا إلى مناقشة الدكتور في هذا الموضوع بعض من تصدى لنقد كتابه ، غير أن الكثير منهم قد جاروه في القول باختلاف اللغتين وتباينهما أو على الأقل لم يهمهم الدفاع عن عروبة اليمن وعربية آدابها ، بقدر ما اهتموا بنواح أدبية ودينية وتاريخية أخرى .

فالسيد محمد الخضر حسين بعد أن يؤكد أن الدكتور طه قد تابع في رأيه الاستاذ مرجوليوت يرى أن الاختلاف بين اللغتين قد خف وان التقارب بينهما قد تم في عهد يتقدم ظهور الاسلام ويسرد أدلة وبراهين تؤيد ما ذهب إليه وحين يتطرق إلى كلمة أبي عمرو بن العلاء يؤكد ما ذهبنا إليه ويستغرب

تحريفها ويقول انه قصد بذلك المبالغة في الفصل بين اللغتين وليصرف ذهن القارىء عن أن يفهم من قول أبي عمرو بن العلاء ان تلك اللغة عربية وإنما تختلف عن العدنانية في اللهجة وما هو من قبلها ، وأكد وجود لغة أدبية واحدة كان يحتذيها الشعراء على اختلاف قبائلهم منذ عهد الجاهلية .

وأما الاستاذ محمد لطفي جمعة فقد ناقشه من ناحية منطقية صرفة ، فقال : « اعتمد المؤلف على أقوال الرواة ، ثم يؤكد لنا أن الرواة يضيفون شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلي إلى قوم ينتسبون إلى عرب اليمن . . . ويؤيد مخالفة اللغة القحطانية للغة العرب برواية أحد الرواة وهو أبو عمرو بن العلاء ، فكأن الرواة الذين كانوا يعلمون اختلاف اللغتين من أقدم الأزمنة رووا على الرغم من علمهم هذا شعراً كثيراً بالعربية العدنانية وحملوه على شعراء اليمن . . . وهذا كلام ظاهر البطلان والتلفيق لا يحتاج إلى برهان لأن الراوية الذي يعرف اختلاف الأمتين واختلاف اللغتين ، إذا أراد الوضع والاختلاق ، لا يقع في مثل هذا الخطأ المفضوح » .

ثم يقول الاستاذ جمعة أن أبا عمرو بن العلاء قد قصد ان اللهجة العربية الحميرية التي كانت شائعة في زمنه في بقايا حمير في بلاد اليمن تخالف اللهجة العربية الفصحى .

ولم يتعد غير هذين الناقدين من الذين نقضوا أو نقدوا كتاب الدكتور طه حسين عند تعرضهم لمناقشة موضوعنا ، هذه المعاني إيجازاً أو اسهاباً . وحقاً ان تاريخ الأدب الحديث لم يشهد معركة أحفل ولا أمجد من المعركة الكلامية التي أثارها كتاب الدكتور طه حسين سواء حين كان اسمه « في الشعر الجاهلي » أو بعد أن حذف منه فصلا وأثبت مكانه فصلا وأضاف إليه فصولا وسماه « في الأدب الجاهلي » .

لقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة وانبرى له العلماء والأدباء ورجال الدين فحللوه وشرحوه وناقضوه ، وجادلوا مؤلفه جدالاً عنيفاً تارة ، وهادئاً تارة أخرى ؛ ناقشوا أحكامه وافتراضاته وأساليبه ، ونقضوا أدلته وبراهينه بالأسلوب العلمي تارة ، وبالنقد التحليلي طوراً ، وبالتهجم والتجريح ، والسخرية اللاذعة ، مرات ، وفي مقدمتهم الاستاذ مصطفى صادق

الرافعي والاستاذ محمد فريد وجدي والاستاذ محمد الخضر حسين والاستاذ محمد أحمد الغمراوي والاستاذ محمد لطفي جمعة وغيرهم كثيرون ، بيدان واحداً من أولئك الاساتذة الكبار لم يذُد عن الأدب اليمني في الجاهلية أو الاسلام ولم يحاول ان يرفع عنه الحيف الكبير والظلم الشديد اللذين كالهما له كتاب الدكتور طه حسين دون رحمة ولا اشفاق ، وحتى أدباء اليمن لم نسمع حتى الآن ان واحداً منهم قد نشر أو كتب شيئاً في هذا الموضوع اللهم إلا حكايات يتناقلونها في مجالسهم أو أحاديث يتبادلونها في اسمارهم .

ورغم ان الكتاب باستثنائه كموضوع انشائي رائع البيان ، أخاذ التعبير ، يأخذ بمجامع قلوب الناشئين وينسيهم أنهم يتيهون في مفازات من الأخطاء التاريخية والأدبية فإنه قد أصبح في نظري غير ذات أهمية لأن العلماء والنقاد من شرقيين وغربيين قد خطأوه ونقضوه أدبياً وعلمياً وتاريخياً . . فان الأدب اليمني ما زال ينتظر دوره ليرفع عقيرته صارخاً في وجه ظالمه محتجاً على من تجني عليه وهي اليمن الخالدة بحضارتها ، الخالدة بآدابها ، وكثيرون يعلمون أنها كانت المنبع الدافق للعروبة وأمجادها وللعربية وآدابها .

وهذه المشكلة العويصة التي جعلت الدكتور طه يظن أن لغة اليمن لم تكن في الجاهلية وصدر الاسلام لغة عربية قد وقف عندها غيره ممن لم يتعمقوا في الدراسات اليمنية ولا في معرفة أسرار اللغة العربية واختلاف لهجاتها ، وممن يلجأون دائماً إلى الحدس والتخمين والافتراض لكي يقال انهم قد اكتشفوا سراً وأتوا بجديد ، . . ولكن الذين بحثوا ونقبوا وتأملوا ودرسوا كثيراً والذين جاسوا خلال القبائل اليمنية والشعوب العربية في كل أقطارها لا يعجزهم معرفة القول الفصل فيفرون قلب المشكلة ، ويعلمون علم اليقين أن كل ما ورد من مثل كلمة أبي عمرو بن العلاء إنما ينصب على اللهجات وتباينها واختلافها في اللغة الواحدة . ثم يعرفون أيضاً ان اطلاق « اللغة الحميرية » على انها لغة أو « لهجة » اليمنيين جميعاً ، أو انها لغة أو لهجة القبائل اليمنية جمعاء . . فيه شيء من التجاوز ويشبه اطلاق الجزء على الكل . . . إذ لم يكن « الحميريون » هم أول من كتب بهذا القلم المعروف « بالمسند » بل سبقهم إلى استعماله السبأيون والمعينيون وغيرهم ، هذا من جهة ، ومن أخرى ، فإن من يعرف انساب القبائل اليمنية يرى ان « حمير »

تطلق عند اليمنيين على ثلاثة : « حمير الأكبر » و « حمير سبأ » و « حمير بن الغوث » وان الأخيرة هي المشهورة عند العرب وعند أبناء اليمن باللُكنة والغُتمة وقد ذكر ذلك الهمداني في الجزء الثاني من الاكليل قال : « حمير بن الغوث وهو حمير الأدنى ومنزلهم باليمن بموضع يقال له حمير من غربي صنعاء وهم أهل غتمة ولكنة في الكلام الحميري . قال أبو محمد : ولذلك تقول أهل صنعاء إذا رأوا غتمياً من أغتام بادية صنعاء : هو « حميري » ، يريدون « حمير بن الغوث » لا أنهم يريدون « حمير الأكبر » ولا حمير « سبأ » الأصغر وهم يعلمون ان فيهم الفصاحة والشعر ، وإلى « حمير بن الغوث » تنسب أكثر هذه اللغة الحميرية » .

فالهمداني ـ كما ترى ـ لا يكاد يصدق ان أهل صنعاء يقصدون بلفظة حميري كل من يمكن ان ينتمي إلى حمير ، ويؤكد ان أهل « صنعاء » يعلمون ان في قبائل « حمير سبأ » و « حمير الأكبر » الفصاحة والشعر وتأمل قوله : « وهم أهل غتمة ولكنه في الكلام الحميري » لتعرف ان اللغة الحميرية هذه من العربية الفصحى كما نجد اليوم اغتاماً ولكناء يلوون ألسنتهم بالعربية ويحرّفون في نطقهم مخارج حروفها ونبراتها وفصاحتها وذلك مألوف معروف وخاصة في مصر وأفريقيا .

وقد ذكر العلماء ان اللغات السامية وهي العربية ، والسريانية ، والعبرية ، والفينيقية ، والآشورية ، والبابلية ، وغيرها قد تفرعت عن لغة أصلية واحدة ، وسواء تفرعت عن بعضها البعض أو من لغة طوتها يد الأيام ، وذكروا أيضاً ان اختلافها وتباينها ، وتنوعها قد تطور شيئاً فشيئاً بعد تشتت شمل القبائل وتبعثرها في جهات آسيا . . كل قوم حسب بيئاتهم وطرق معايشهم .

وتنوع اللغات وتباين اللهجات أمر ضروري وحيوي نشاهده في كل أمة وفي كل لغة من أمم ولغات العالم في كل العصور وكثيراً ما نرى أمة واحدة تختلف لهجات قبائلها وشعوبها اختلافاً كثيراً أو قليلا ثم يبقى لهم في الوقت نفسه لغة أدبية واحدة لا يختلف في فهمها اثنان كما هو الحال مع أبناء الأمة العربية في العهد الحاضر ، فالبون الشاسع بين لهجات أبناء اليمن ومصر وسوريا والعراق والحجاز وليبيا والمغرب العربي والسودان والجزائر كل ذلك لم

يمنع ان يكون هنالك لغة أدبية واحدة يجمعهم فهمها وتذوقها والكتابة بها .

ولا شك انـه لولا القـرآن لظلت هذه اللهجـات تزداد مع الزمن بُعداً واختـلافاً حتى يضطر أبناء كل لهجة إلى تدوينها وتقييدها وبذلك تستقل لهجة كل شعب وتصير لغة أخرى . ولكن محافظة الناطقين بالضاد على لغة القرآن والرجوع إليها فيما يكتبونه ويخطبون فيه ساعد ولا شك مساعدة كبيرة على حفظ لغتنا العربية واستمرار النطق بها كما كان ينطق بها العرب الأولون يوم أنزل بها القرآن الكريم .

ومن المعلوم قطعـاً ان العـرب في العصر الذي أنزل فيه القرآن كانت لهجاتهم المحلية مختلفة ومتباينة وكان لكل قبيلة لغتها ـ أي لهجتها الخاصة ـ وتتبـاين هذه اللهجـات قوة وضعفـاً وفصـاحة ولكنه وقد وصف الهمداني لهجات قبائل العرب وصفاً دقيقاً رائعاً وحصر ما كان يعد منها فصيحاً عند العرب وما كان يحسب غير فصيح بين القبائل العربية وفي ذلك دليل واضح على ان اللغة الأدبية لغة الشعر والخطابة كانت لغة الجميع . قال أبو محمد الهمداني في صفة جزيرة العرب :

« أهل الشِحر والأسعاء ليسوا بفصحاء ، مهرة غتمٌ يشاكلون العجم ، حضرموت ليسوا بفصحاء وربما كان فيهم الفصيح وأفصحهم كندة وهمدان وبعض الصـدف ، سرو مذحج ومأرب ، وبيحان ، وحريب فصحاء ، وردى اللغة منهم قليل ، سرو حمير وجعده ليسوا بفصحاء وفي كلامهم شيء من التحمير ويجرون في كلامهم ويحذفون فيقولون « يابن معم » في يا ابن العمّ و « سمع » في اسمع ، لحج وأبين ودثينه افصح ، والعامريون من كندة والاوديون أفصحهم ، عدن لغتهم مولدة رديئة وفي بعضهم نَوْكٌ وحماقة إلا من تأدب ، بنو مجيد وبنو واقد والأشعر لا بأس بلغتهم ، سافلة « المعافر » غُتم وعاليتها أمثل ، والسكاسك وسط ، بلد الكلاع نجديه مِثَيلٌ مع عسرة من اللسان الحميري سراتهم فيهم تعقد ، سحلان وجيشان وَوَراخ وخضِر والصُهيب ، وبـدر قريب من لغة سرو حمير ، ويحصب ورُعين أفصح من جُبـلان ، وجُبـلان في لغتهم تعقد حقل قتاب فالى ذمار الحميرية القحة المتعقدة ، سراة مذحج مثل ردمان وقرن ونجدها مثل رداع وإسبيل وكرمان

والحدا وقائفة ودقرار فصحاء ، خولان العالية قريب من ذلك ، سحمر وقرد والجبلة وملح ولحج وحمض وعُتمة ووتيح وسمح وآنس والهان وسط وإلى اللكنة أقرب ، حراز والأخروج وشم وما طرح والاحبوب والجحادب وشرف أقيان ، والطرف وواضع والمعلل خليطي من متوسط بين الفصاحة واللكنة وبينها ما هو ادخل في الحميرية المتعقدة لا سيما الحضورية من هذه القبائل ، بلدة الأشعر وبلدعك وحكم ابن سعد من بطن تهامة وحوازها لا بأس بلغتهم إلا من سكن منهم القرى ، همدان من كان في سراتها من حاشد خليطي من فصيح مثل عذر وهِنوم وحجور ، وغتم مثل بعض قدم وبعض الجبر ، نجدي بلد همدان البون منهم المشرق والخشب عربي يخلط حميرية ظاهر همدان النجدي من فصيح ودون ذلك ، خيوان فصحاء وفيهم حميرية كثيرة إلى صعدة وبلد سفيان بن ارحب فصحاء إلا في مثل قولهم « إمر جُل » و« قيد بعيراك » و« رأيت اخواك » ويشركهم في إبدال الميم من اللام من الرجل والبعير وما أشبهه الأشعر وعك وبعض حكم من أهل تهامة وعذر عطره ونهم ومرهبة وديبان ، وسكن الرحبة من بلحارث فصحاء ، سفيان بالجوف الأعلى دون ذلك خِرفان وأتافث لا بأس بفصاحتهم ، سكن الجوف فصحاء إلا من خلطهم من جيرة لهم تهاميين ، قابل نهم الشمالي ونعمان مرهبة فظاهر بني عليان وظاهر سفيان وشاكر فصحاء ، بلد وادعة بنو حرب أهل امالة في جميع كلامهم ، وبنو سعد افصح . من ذمار إلى صنعاء متوسط وهو بلد ذي جرة ، صنعاء في أهلها بقايا من العربية المحضة ونبذ من كلام حمير ، ومدينة صنعاء مختلفة اللغات واللهجات لكل بقعة منها لغة ، ومن يصاقب شعوب يخالف الجميع ، شبام أتيان والمصانع ، وتُخلى حميرية محضة ، خولان صعدة نجديها فصحاء وأهل قدَّها وغورها غُتمٌ ، ثم الفصاحة من العرض في وادعة فجنب فيام فزبيد فبني الحارث فما اتصل ببلد شاكر في نجران إلى أرض يام فأرض سنحان فأرض نهد وبني أسامة فعنز فخثعم فهلال فعامر ابن ربيعة فسراة الحجر فدوس فغامد فَيشكرُ ففهم فثقيف فبجيله فبنو على غير ان اسافل سروات هذه القبائل ما بين سراة خولان والطايف دون أعاليها في الفصاحة ، أما العروض ففيه الفصاحة ما خلا قراها وكذلك الحجاز ونجد السفلى فإلى الشام فإلى ديار مُضر وديار ربيعة فيها الفصاحة إلا في قراها ، فهذه لغات الجزيرة على الجملة دون التبعيض والتفنين » .

هذا الوصف الدقيق الذي يحدثنا عن لغات ولهجات القبائل اليمنية وغيرها ووجود الفصيح منها والأفصح والأغتم منها والمستعجم لا شك أنه كان وليد تجربة شخصية ، ومعرفة عملية ، وأن الهمداني ما قال ذلك وسجله في كتابه الا بعد ما طاف أرجاء الجزيرة العربية ، وخالط أهلها ، وأخذ عن علمائها ، وروى عن شعرائها . وأنت تراه دائماً حين يروي شعراً فصيحاً أو نثراً بليغاً لشاعر أو خطيب ينتمي إلى احدى هذه القبائل التي وصفها باللكنة أو الغتمة لا يتشكك ولا يحتاط ولا يرى ذلك مناقضاً لما حكاه وسجله لأنه كان يعرف جيداً أن اختلاف اللهجات ، وتباين اللغات القبلية ، لا يؤثر بحال من الأحوال تأثيراً جوهرياً على لغة الشعر والنثر الفني .

ولعل تلك الصفات والسمات التي وصفها الهمداني لا تزال متوارثة حتى يومنا مع أن لغة الشعر التقليدية بأوزانها وبحورها وعروضها وقوافيها هي هي لم تتغير ولم تتحور ولم يطرأ عليها من التطور إلا ما يستلزم الحياة وتطورها من شدة ورخاء ، وسعادة وشقاء . وبداوة وحضارة ، دون مساس جوهري بالرّس واللباب وكيان الشعر العربي الخالد .

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ومما يلحق بقبيل بحثنا ويؤكدُ أن المقصود باللسانِ واللغة ، اللهجة ما ذكره الهمداني أيضاً في سياق قصة « الصَّدف » والتحاقهم بحضرموت واقامتهم بشبوه وفيهم امرأة « مرتع » ومعها ابنها مالك ، صغير فنشأ في اخواله وتزوج فيهم فلما انقطع عن أبيه قال لابنه « ثور » اني أظُن أخاك مالكاً قد صدف عنّا أي مال ، فسمى الصدف من يومئذ قال الهمداني وهذا كان سبب دخول الصدف في حضرموت حتى تكلموا بلسانهم وتسموا بأسمائهم . . . الخ .

وقال شاعر الصدف في ذلك

وآلفت ما بيني وبين بني أبي ... وقد خولفت منا شمالٌ وألسن
إلى مرتع نسمُو ويسمو عَديُدنا ... ونحن إليها نستنيم ونذعن

وكثيراً ما نرى الهمداني يشير في ثنايا كتبه إلى كلمات يقول انها حميرية ويُنبّه إلى اللهجة أو النبرة الفارقة بينها وبين الفصحى مثل قوله :

« وحدثني الاوساني انه قرأ في مسندٍ ، « عمران هشوع بن افرع وبينهما مروة بصيحم » . . مروة منزل في القصر واسم القصر صيح وحمير تزيد الميم .

وقوله :

« وأولد أيضاً افرع بن الهميسع هشوع باني عمران والاصل اشوع لان حمير تبدل الهاء من الهمزة » .

وقال في مكان آخر :

« ان حمير تطرح الألف من كلامها فتقول إذا أرادت ان تقول اسمع واذهب سمَع وذهب » .

وقال أيضاً :

« بعض حمير تبدل الألف إذا كان في ذوات الواو ـ واوا فتقول في ملهو ملها ومسنو مسنا ـ وهو النضّاحة إلى غير ذلك مما تجده منشوراً في كل كتبه مما لو ذهبنا في تتبعه لطال البيان وخرجنا عن الموضوع .

والآن وقد كدنا أن نفرغ من مناقشة الدكتور « طه » حول اللغة واختلاف اللهجات أرى لزاماً علينا أن نتساءل هل تعبر دائماً « لغة النقوش » عن لغة التفاهم عند من تؤثر عنهم هذه النقوش ؟

لنفترض أن ما قاله الدكتور طه ومن قبله الاستاذ « مرجليوث » عين الحق ونفس الصواب ، وأن النقوش اليمنية القديمة قد دُونت بلغة لا صلة لها بالعربية لا اشتقاقاً ولا إعراباً . . . فهلا يجوز لنا أن نفترض في نفس الوقت أن لغة هذه النقوش لم تكن لغة تخاطب القوم ، ولا لسان آدابهم وأشعارهم ان كانت لهم آداب وأشعار ؟

والذي يبدو بعد التأمل والبحث وبعد أن رجعت إلى أهل العلم . . أن لغة النقوش والآثار لا يمكن في كل حال أن تمثل لغة التخاطب والتفاهم عند الشعوب ، وانها كثيراً ـ أن لم تكن دائماً ـ ما تكون مغايرة لما يتداوله الناس من مصطلحات وقواعد لسانية في لغتهم التي يتفاهمون بها ويعبرون عن

مشاعرهم وأحاسيسهم إزاء الحياة .

وإذن فلو افترضنا وهو افتراض مُغرقٌ ان لغة « المسند » كانت خاصة بالحميريين ، وأنها تباين وتغاير اللغة العربية بل لغة أخرى لا تتفق مع العربية إلا بالأخوة السامية كما يريد الدكتور « طه » أن نفهم .

وإذن فما ورد في نقوش « المسند » لا يمكن أن يصور لغة التفاهم التي كانت متداولة بين القبائل اليمنية وفي نفس الوقت لا يمكن أن تمثل لغة الشعر والقصيد التي كانت توحد بين القبائل العربية جمعاء في الشمال والجنوب رغم اختلاف لهجاتهم وتباين ألسنتهم وخصوصاً في القرنين السابقين لظهور الاسلام ونزول القرآن الكريم بعد ان تقاربت وتآلفت تلك اللهجات وأصبح ما نسميه الآن العربية الفصحى أو لغة القرآن . . لغة أشعارهم وخطبهم في أسواقهم وحروبهم ومنتدياتهم .

وعلماء الآثار يعرفون هذه الحقيقة ويقررونها وقد أشار إليها الدكتور مراد كامل فقال :

« من الغريب أن هذه النقوش اليمنية دوّنت لهجاتها المختلفة بأسلوب واحد في الفترة ما بين القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد وبين القرن الرابع أو الثالث الميلادي وهذا يوضح أن اللغة التي استخدمت في النقوش كانت لا تعبر عن لغة التخاطب .

وقد سألت الدكتور أحمد « فخري » مستأنساً برأيه في الموضوع فأكد لي ذلك وضرب له الأمثلة قائلاً :

« أننا في مصر القديمة مثلا نرى نقوشاً تكتب في المقابر والمعابد ولا تكاد هذه النقوش تتغير في أشكالها أو في نحوها وأجروميتها إلا قليلاً ، بينما نعرف من دراسة هذه النقوش المصرية أنه كانت للشعب لغة أخرى ، ولها صيغ نحوية أخرى بل وأختلفت كتابتها اختلافاً كبيراً جداً عن لغة النقوش التي كانت تكتب في العصر ذاته على واجهات المعابد ، وجدران المقابر » .

« فالديموطيقية »التي كان يتكلم بها الشعب ويتحادث بها الناس في حياتهم اليومية ، بل وينظمون بها الأشعار أيضاً بعيدة كل البعد عن اللغة التي كانت تدون في الوقت نفسه على المعابد » .

وأكد لنا الدكتور أحمد فخري أيضاً أن « الديموطيقية » التي كانت مستخدمة بين الشعب لا يمكن أن يفهمها الا من تخصص فيها بل أن لها معاجمها الخاصة وأجرومُيتها الخاصة ، وأن أي شخص متخصص في اللغة « الهيروغليفية » القديمة وهي لغة النقوش لا يستطيع أن يفهم أو يقرأ اللغة أو الكتابة « الديموطيقية » إلا إذا درسها دراسة خاصة مستقلة .

هذا إذا سلمنا جدلاً لمن يزعم أن لغة نقوش المسند لم تكن عربية وأنها مغايرة للغة الشمال ، ولا نجد دليلا يسوغ للدكتور طه أن يقرر ذلك ، أو يجعله يتبع رأي « مارجليوث » دون تَؤدة أو تبصر مع أننا نعلم جميعاً أن لغة هذه النقوش التي نقلت إلينا خالية من كل علامة تشير إلى كيفية نطق الكلمات والاعراب ، وأن ذلك يجعلنا غير عارفين بكيفية النطق التي كانت تلهج بها ألسنة من نقشوا تلك النقوش وسجلوها ، ولا كيف كانوا ينطقون بمفرادتها وتراكيبها ، ولا كيف كانوا يُعربُون كلامهم . لذلك فمن التسرع ولا شك الجزمُ بأنهم كانوا لا ينطقون بألفاظ النقوش المأثورة وهي في أصل اشتقافها ومادتها عربية كما كان ينطق العرب في شمال جزيرة العرب وأواسطها ولقد أصبح لدينا ما يشبه اليقين بعد أن تأملنا الأمثلة التي أوردها الدكتور طه ليؤكد لنا هذا الخلاف المزعوم بين لغة قحطان وعدنان وبعد أن درسنا الكثير من النصوص المنقولة عن النقوش الحميرية وخاصةً نقوش خَربة « براقش » التي نقلها إلى العربية الدكتور خليل يحيى نامي بأن هذا الخلاَف المزعوم لا يتعدى التباين في المصطلحات الكتابية وقواعدها وأشكالها بين تلك الكتابة القديمة « المُسند » وبين ما صارت إليه الكتابة العربية بعد تطورها على مر القرون .

فقط مجرد قواعد كتابية ومصطلحات في الاعراب ، إلى ألفاظ غريبة مهملة خوَّلت لمن يريد أن يتخيل الخلاف ويبالغ فيه ويغرق في تصوره . . . ما أراده من وهم ، وما تصوره من صعاب ، ونحن لو تخيلنا أن الدعوة التي ندب إليها بعض الأدباء والمجددين في مستهل هذا القرن ولا يزال يجهر بها البعض ، من ضرورة تغيير الأحرف العربية الحاضرة وابدالها بحروف وأشكال أخرى قد لاقت نجاحاً ثم مضى جيلٌ أو جيلان عليها فسيوجد حينذاك من أحفادنا الذين لم يتعلموا الاشارات والعلامات التي تبين كيفية

النطق وضبط الكلمات واعرابها كما نتعلمه اليوم . . . سيوجد حينذاك من تخول لهم تقديراتهم وتخميناتهم الدعوى بأن لغتنا الحالية بعيدة عن لغتهم العربية وسيجدون من المشقة والجهد في ترجمة ما نكتبه الآن إلى عربيتهم مثلما وجد الدكتور طه حسين حين قرأ ترجمة النصوص والنقوش العربية القديمة وهناك يحكمون أو على الأقل سيوجد من يقول أن عربيتنا لا تمت إلى اللغة العربية إلا بصلة الأخوة السامية لانهم سيقرؤنها دون أن يعرفوا مصطلحاتها التي نمضي وقتاً طويلاً ونصرف جهداً غير يسير في دراستها وتعلمها فلا يكادون ينطقون بأي لفظة نطقاً صحياً ويكونون قد جهلوا كل ما يتصل بعربيتنا من نحو وصرف واشارات وسكنات وحركات وقواعد اعراب ولو ذهبت أُدلِّل على هذا وأضرب الأمثال ، لاستغرقت وقتاً طويلاً في تبيين ما هو واضح وجلي ومعقول .

فالأمر إذن لا يتعدى الاختلاف في رسم الكلمة لا في النطق بها ، ولا يستطيع أحد أن يجزم بإن ما ورد في نقش المسند من كلمات كان عربُ اليمن ينطقون بها كما هو مرسوم بقواعدنا الحاضرة وأنهم قد تلفظوا بكلمة « وَهبُم » كما ترجمت إلى قاعدة كتابتنا الحديثة دون ان ينطقوها ـ كما ننطقها الآن « وَهابُ » وكذلك بقية ما ورد في النقش من كلمات ونحن أنفسنا نجد في لغتنا وبقواعدها الكتابية الحاضرة كثيراً من الكلمات التي نتلفظها بطريقة لا تتفق ورسمها لما فيها من زيادة أو حذف مثل « طه » و « يس » و « الرحمن » وغيرها .

وليس معنى هذا انني أنكر أن هناك ألفاظاً غريبة وغير معروفة بَلى ولكن ليس لانها غير عربية أصلا واشتقاقاً ؛ بل لانها مما قد بعد عنه العهد فأصبح غريباً ونافراً ومهملاً تفتقر معرفته إلى قواميس اللغة وهو كثير يوجد حتى في اللهجة المكتوبة بحروفنا ، وكثيراً من كلمات الشعر الجاهلي وشعر صدر الاسلام والقرآن الكريم ، لا نعرفها إلا بعد الرجوع إلى كتب اللغة وقواميسها فهي من قبيله ، وهو أمر بديهي لا يعوزه الدليل أو الاستشهاد .

فاختلاف لهجات القبائل العربية واختصاص كلٍ منها بألفاظ أو بمعنى من المعاني المشتركة للفظٍ واحدٍ لا يعني أنه لم تكن لهم جميعاً لغة فنية قائمة فوق اللهجات وتغذيها جميع اللهجات .

ولم نعثر حتى الآن على نصوص يمنية قديمة تثبت أن شعراء اليمن القدامى كانوا يستعملون في شعرهم ونثرهم الفني ألفاظاً خاصة بهم لم يكن يستعملها شعراء الشمال ، ونظن انه قد وجد ذلك ، وسوف نرى حين نتحدث عن الشعر « الحميني » « الشعر الشعبي اليمني » بأن أصله متوارث من قبل أن تفسد العربية ، ومن قبل الحدود الزمنية التي وضعها المتأخرون زاعمين انها مبدأ نشأته . ثم اننا نؤمن بأن اختلاف اللهجات ، وتباين البيئات يستدعي دائماً ان يكون لكل بيئة ولهجة فن مستقل الملامح به يتميزون عن سواهم ضمن اطار ملامح الشخصية العامة للجنس أو القومية أو العقيدة الكبرى ويظل ذلك الفن خاصاً بها يتوارثونه مع الأجيال وأن تشكل بشتى الأشكال بمرور الزمن وتطور الأحداث . وهذا ما نشاهده الآن في الأقطار العربية وتباين آدابها الخاصة شكلا وموضوعاً وأداءً ، واختلافاً ، في الأوزان والانغام والأساليب رغم أنها كلها مطبوعة بالصبغة العربية الخالدة . . بل ان ذلك ليظهر بين قبائل القطر الواحد ؛ وعلى الأقل هذا ما أعرفه وأفهمه وأنا على يقين منه بالنسبة لليمن وقبائلها واشعارهم وفنونهم وأساليب ممارستهم لها ، وذلك ما نرجو أن يلقى حظه من الدراسة والاهتمام في المستقبل . ولعله من المفيد ان نذكر بعض ما نقله إلينا الرواة والمؤرخون من شواهد على اختلاف اللهجات ومدلولات الألفاظ فقد ذكروا انه وفد بعض بني دارم إلى ملك اليمن في عصره فقصده بظفار فصادفه دونها في تصيّد له وهو مُشفٍ على عرفة جبلٍ ، فلما واجهه علم أنه وافد فقال له : ثب على الفناء ، أي اقعد على الأرضِ ـ والأرض الفناء ـ فظن انه يقول له ثب في الحيد ، فوثب فتردى فمات ، فقال الملك ، من دخل ظفار حَمَّر ، أي لا يقصد ظفار إلا من عرف لغة أهلها .

ورووا أيضاً أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر لقي النبي ﷺ وقد وقعت من يده السكين فقال له : ناولني السكين ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل كذلك ، ثم قال المُدية تريد ؟ وأشار إليها ، فقيل له نعم ، فقال ، أو تسمى عندكم سكيناً ؟ ثم قال : والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ .

كما أن العلماء قد عدوا عيوباً في النطق نسبوها إلى بعض القبائل أمثلة عن

اختلاف اللغات ونسبوا إلى القبائل اليمنية أشياء من ذلك وقالوا في صفة قريش : ليس فيهم طمطمانية حمير ، وليس فيهم غمغمة قضاعة ، الغَمغمة والتغمغم : كلام غير بَيِنٍ ، قاله رجل من العرب لمعاوية قال : من هم ؟ قال : قومك من قريش . والطمطمانية ابدال لام التعريف ميماً وعليها جاء الحديث في مخاطبة بعضهم « ليس من أمبرا مصِيَام في امسَفَر » : أي ليس من البر الصيام في السفر .

وعدوا أيضاً من لغات اليمن المخالفة لغيرها : الشنشنة وهي أن يجعلوا الكاف شيناً مطلقاً فيقول في لبيك اللهم لبيك ، لبيشْ اللهم لبيش ، والوتمُ يجعلون السين تاء فيقولون في الناس النات وهكذا .

واللخلخَانِية ، وهي حذف بعض الحروف اللينة فيقولون في نحو ما شاء الله : مشا الله ، وقالوا أن في لغة خثعم وزُبيد يحذفون نون « من » الجارَّة إذا وليها ساكن قال شاعرهم :

لقد ظفر الزوار أقفية العدا بما جاوزا الآمال م الأسرِ والقَتلِ

وفي لغة بلحرث وخثعم يقلبون الياء بعد الفتحة الفا فيقولون في إليك وعليك ، ولديه إلاكَ وعلاكَ ، ولداه ومنه قول الشاعر :

طاروا علاهنَّ فطِرْ عَلَاها

وعدوا من لغتهم أيضاً اعراب المثنى بالألف مطلقاً رفعاً ونصباً وجراً . ولم تنفرد القبائل اليمنية بذلك فقد نسبوا لمختلف قبائل نجد والحجاز وغيرهما أشياء كثيرة من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ وقد استخرج الاستاذ مصطفى صادق الرافعي من كتب العربية والأدب أمثلة كثيرة ، وذكر معنى اختلاف اللغات واللهجات وقسم أنواع الاختلاف في الجزء الأول من تاريخ آداب العرب .

ولما كان علماء اللغة وأهل العربية كما قال الاستاذ الرافعي : قد طرحوا أمثلة اختلاف اللغات في كتبهم فلا قيمة لها عندهم إلا حيث يطلبها الشاهد وتقتضيها النادرة في عرض كلامهم ، لأنهم لم يعتبروها اعتباراً تاريخياً ، فقد عاصروا أهلها ، واستغنوا بهذه المعاصرة عن توريث تاريخهم لمن بعدهم ، الخ . فلا يُنتظر منا أن نتحدَّث عن آداب اللهجات اليمنية القديمة إذ لم

يصل إلينا نصوص يمكن أن نجعل منها بحثا له فصول وذيول وإنما هي شذرات وردت لتفسير لفظ أو لاثبات قصة أو كشاهد على اختلاف اللهجات فصاحب الامالي يروي لخُنَافر بن التّوم الحميري في قصة اسلامه هذه الأبيات :

ألم تر ان الله عاد بفضله ... فأنقذ من لفح الزَّخيخ خنافرا
وكشف لي عن جحمتي عماها ... وأوضح لي نهجي وقد كان داثرا
دعاني شصارٌ للتي لو رفضتها ... لأصليت جمراً من لظى الهوب واهرا
فأصبحت والاسلام حشو جوانحي ... وجانبت من أمسى عن الحق ثائرا
وكان مضلى من هديت برشده ... فللّه مغو عاد بالرشد آمرا
نَجوتُ بحمد الله من كل قُحمة ... تَؤرث هلكاً يوم شايعت شاصرا
وقد أمنتني بعد ذاك يُحابر ... بما كنت أغشى المُنديات يحابرا
فمن مبلغ فتيان قومي ألوكة ... بأني من اقتال من كان كافرا
عليكم سواء القصد لا فلّ حدكم ... فقد أصبح الاسلام للكفر قاهرا

ثم فسر « الزخيخ » بأنه النار بلغة أهل اليمن . والجحمتان : العينان بلغتهم ، والهوب : النار بلغتهم ، والواهر : الساكن من شدة الحر وكل هذه الأحرف من لغتهم .

ومما استطيع أن أؤكده أن هذه الألفاظ التي قد يعتبرها كثير من المتأدبين من الغريب . . . لا تزال مستعملة عند بعض اليمنيين لنفس المعاني أو لما يقاربها .

« فالزخيخ » اسم لصوت لهب النار المضطرمة . « والجَحمة » اسم لوعاء صغير مكون من طوب تُجحم به النار إذا ما أريد غرفها من التنور إلى « الموقد » لحفظها تحت الرماد ، والهوب حر النار ، وفي الامالي أيضاً عند شرح هذا البيت :

ثم زادوني عذاباً ... نزعوا عني طساسي

قال أبو علي : قال أبو العباس . قال لي أبو الميَّاس : الطساس : الأظفار

ولم أر أحداً من أصحابنا يعرفه ثم أخبرني رجل من أهل اليمن قال : يقال عندنا طسهُ إذا تناوله بأطراف أصابعه . وحتى الآن لا يزالون يستعملون

نفس المعنى لتحسس الأعمى أي شيء بأطراف أصابعه .

« ولا بد من التنبيه على أن الرواة لم يدونوا اللهجات على مناطق العرب على انها أصل من أصول الدلالة التاريخية في اللغة وذلك لان أكبر غرضهم من جمع اللغة وتدوينها يرجع إلى علوم القرآن والحديث ولكنهم تناقلوا أشياء كانت لعهد الاسلام وأشياء أصابوها في أشعار العرب مما صحت روايته » .

ولو أن منهم من نصب نفسه لجمع هذه الاختلافات وافرادها بالتدوين بعد استقصائها من لهجات العرب وتمييز أنواعها بحسب المقارنة والمباعدة والنظر في انساب القبائل التي تتقارب في لهجتها والتي تتباعد ، وتعيين منازل كل طائفة من جزيرة العرب والرجوع مع تاريخها إلى عهدها الأول الذي يتوارث علمه شيوخ القبيلة وأهل انسابها ، لخرج من ذلك علم صحيح في تاريخ اللغة وأدوار نشأتها الاجتماعية يُرجع إليه على تطاول الأيام وتقادم الأزمنة ولكان هذا يعد أصلاً فيما يمكن ان يسمى تاريخ آداب العرب يفرّعون منه ويحتذون مثاله في الشعر وغيره من ضروب الأدب » كما قال مصطفى الرافعي .

ولا نستطيع الا أن نترقب اليوم الذي يتم فيه الكشف عن مقابر وآثار اليمن القديمة فعسى أن نعثر على ثروات لغوية ان كان اليمانيون القدامى قد دونوا أشعارهم وآدابهم . أما ما نقله الرواة من آدابهم وأشعارهم فهو لا يغاير ما نقلوه من آداب وأشعار اخوانهم في سائر أصقاع الجزيرة لغة وموضوعاً وقوة وضعفاً .

وروى الهمداني في الأكليل عن أبي الغطريف سلمه بن يوسف الخيواني انه قرأ على قبرين جاهليين بالجَنَدِ عليهما هذه الأبيات بالمسند :

هذان قبرا سيدي حمير ... قد بليا في التراب كل البلى
أفناهما الموت بكرّاته ... والموت مُفني كل سفح الذرى
كانا من الترب بَدِّيا ، فقد ... عادا إلى الترب ، وسكنى الثرى

وروى صاحب الأمالي عن أبي عبيدة حديثاً طويلاً شيقاً دار بين عامر بن الظرب العدواني وابن رافع الدوسي بين يدي ملك من ملوك حمير الأقدمين ولو ذهبنا نتقصى الأخبار ونستكثر منها لأطلنا وأمللنا وأرى أننا قد

أسهبنا في نقاش الشطر الأول من مزاعم الدكتور طه حسين وهو دعواه أن اليمنيين كانوا لا يعرفون العربية ولا يتكلمونها . وأنه قد أصبح واضحاً أنه لم يستند إلى دليل منطقي ولا برهان تاريخي ، وقد اتخذنا المناقشة وسيلة للكلام عن كل ما يجب أن نبحثه ونتحدث عنه في موضوعنا . . والا فقد كان يكفي ان نسوق هذا الدليل القاطع والبرهان الساطع في مطلع الفصل « وتقطع جهيزة قول كل خطيب » .

ومن هذا البرهان التاريخي اللغوي يعرف من يُحب أن يعرف أن لغة القبائل اليمنية في الجاهلية وصدر الاسلام كانت هي العربية الفصحى وأنه لا يمارى في ذلك ذو علم .

جاء في تاريخ اليمن للشاعر عمارة اليمني ما يلي :

« ومن أخبار السلطان علي بن محمد الصليحي أنه في سنة خمسين وأربعمائة بلغه أن ابن طرف قد اجتمع إليه ملوك الحبشة وأخلاط السودان « يعني من كانوا يحكمون زبيد من الموالي والعبيد » فسار إليهم الصليحي في ألفي فارس فالتقوا بالزرائب من أعمال بن طرف وهو الوطن الذي ولدتُ فيه وبها أهلي إلى اليوم فاستحر القتال أول يوم بالعرب ثم كانت الدوائر على السودان فلم يبق منهم إلا ألف احتازهم جدّي أحمد بن محمد في حصنيه بعكوه . والعكوتان جبلان منيعان لا يطمع أحد في حصارهما وفيهما يقول راجز الحاج إذا نفروا يُخاطب عينه :

إذا رأيت جبلي عُكَاد وعكوتين من مكان باد
فأبشري يا عين بالرقاد

وجبلا عكاد فوق مدينة الزرائب وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير بحكم أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة في مناكحتهم ولا مساكنهم وهم أولى قرار لا يظنعون ولا يخرجون منه . . ولقد أذكر أني دخلت زبيد في سنة ٥٣٠هـ . اطلب الفقه دون العشرين فكان الفقهاء في جميع المدارس يتعجبون من كوني لا ألحن في شيء من الكلام ، فأقسم الفقيه نصر الله بن سالم الحضرمي . . بالله تعالى لقد قرأ هذا الصبي في النحو قراءة كثيرة فلما طالت المدة والخلطة بيني وبينه صرت

إذا لقيته يقول ، مرحباً بمن حنثت في يميني لأجله . ولما زارني والدي وسبعة من اخواني إلى زبيد أحضرت الفقهاء فتحدثوا معهم فلا والله ما لحن أحدٌ منهم إلا لحنة واحدة نقموها عليه .

وحين نتحدث عن شعر وشعراء اليمن لا بد أن نقف أيضاً وقفة قصيرة مع الدكتور طه حسين فقد زعم بأنه لم يكن لليمن شعر ولا شعراء في الجاهلية ولم يكن لها أيضاً لا شعر ولا شعراء في صدر الاسلام . وعقد لهذه الدعوى الغريبة فصلاً طويلاً تحت عنوان « شعراء اليمن » استهله بقوله :

« وهل لليمن في الجاهلية شعراء ؟ اما القدماء فلا يشكون في ذلك ، وهم يحصون شعراء يمنيين يروون لبعضهم قصائد ويروون لهم أخباراً تختلف طولاً وقصراً ، وتتفاوت قوة وضعفاً ، ولكنا نقف من هؤلاء الشعراء جميعاً لا نقول موقف الحيطة والشك بل موقف الرفض والانكار . . فأمر هؤلاء الشعراء قائم كله على خطأ أساسي أو قائم كله على تكلف قصد به التضليل ذلك لأن القدماء زعموا أو خيل إليهم أن أهل اليمن عرب كغيرهم من العرب فيجب ان يكون حظهم من الشعر والشعراء كحظ غيرهم من أهل الحجاز ونجد إلى آخر هذا الكلام المكرر المعاد الذي نعرف منه أنه لم يكن لليمن في الجاهلية شعراء وما كان ينبغي ان يكون لها شعراء وليس لها في الاسلام شاعر فحل وانما شعراء اليمانية في الاسلام مخترعون اختراعاً كوضاح اليمن أو هم ضعاف في الطبقة ، ثم يقول مدللاً « وذلك ملائم لطبيعة الأشياء فلم تكن اللغة العربية لغة اليمن في الجاهلية فلما جاء الاسلام أخذ بعض اليمنيين يتعلم العربية ويتكلف الشعر بها فكان حظهم في هذا كحظ الموالي من الفرس الذين تعلموا العربية وتكلفوا الشعر بها » .

ترى هل سيكون رحباً صدر الدكتور طه حسين فيسمح لنا بمناقشة كلامه بمزيد من الحرية وكثير من التمحيص ؟ أما صدر الأدب فرحب جداً وكما سمح للدكتور ان يقول عن اليمن وأدبها ولغتها بل وجنسها ما لا يتفق مع منطق ولا علم ولا تاريخ . . فأظن أدب الدكتور سيبيح لنا ولا شك ان نخالفه الرأي وان نجادله ، وان نقف من آرائه ، لا موقف الحيطة والشك فحسب بل موقف الاستغراب والانكار أيضاً مجيزين لأنفسنا ما أجازه لنفسه من قبل ، وهو أننا لا نسرف ولا نشتط حين ننكر هذا الكلام الذي كان

مسرفاً وكان مشتطاً حين انكر ما يضاف أو ينسب إلى أهل اليمن من شعر ونثر في الجاهلية وصدر الاسلام .

للدكتور طه ولغيره من الباحثين والأدباء ان يتشكك في الكثير مما نسب إلى الاقدمين ، وان ينكر بعضه ويفنده وله مجال ومندوحه . ولن يأتي ببدع من القول فكثيراً ما سمعنا وقرأنا للعلماء والرواة من القدامى والمحدثين تفنيد الروايات وتزييفها وتوثيق الرواة وتضعيفهم ، وكثيرة هي تلك الأحاديث التي اسندت إلى النبي ﷺ وهو منها براء ، وكثير من الخطب والوصايا قد نسبت إلى الصحابة والتابعين وهم لم يقولوها وانما وضعها الرواة والمتزيدون ، والقصاص ، وكثيراً ما نحلوا ما لزيد منها عمراً وما لعمر منها بكراً حسب الميول والأهواء والمواقف . . . وكثيراً أيضاً ما نحلوا لشعراء الجاهلية ما لم يقولوه ونسبوا إليهم ما لا يصلح ان ينسب إليهم ولا يجوز على ذي الذوق السليم والناقد الخبير . وكتب الأدب العربي القديم منها والحديث تذكر هذا وتَعُلل أسبابه وقد ذكر الدكتور طه بعض هذه الأسباب في كتابه « في الشعر الجاهلي » وفصل معظمها قبله الاستاذ مصطفى صادق الرافعي في تاريخ آداب العرب .

فنحن إذن لا ننكر أن الأدب اليمني قد دس فيه ما ليس منه وان المحدثين من أبناء اليمن قد تزيدوا في الأخبار والأشعار عن آبائهم القدامى لأغراض قومية وسياسية ، وان كثيراً من غير أبناء اليمن من الرواة قد اتخذوا من أمجاد الماضي في حياة التبابعة والاقيال وقبائلهم مرتعاً خصباً لخيالاتهم ليتوسعوا في رواياتهم بما لا يفهمه غيرهم ، وليدللوا على تفردهم وسعة علمهم وتفوقهم على منافسيهم من أبناء زمنهم . وقد سبق أن أعلنا إنكارنا لكثير من القصائد والأشعار المنسوبة إلى الأنبياء هود وشعيب وصالح عليهم السلام والقصائد والوصايا التي تنسب إلى ملوك واقيال معين وسبأ وحمير الأقدمين وألحقناها بالأخبار الباطلة .

ونحن نشك أيضاً في كثير مما ينسب إلى شعراء اليمن في الجاهلية الأخيرة وفي صدر الاسلام مما يمت إلى العصبية بوشيجةٍ ما ، ولكننا لا ننكر كل ما قيل في هذا الباب ، فقد كانت هناك نعرات تثار بين الحين والآخر ، وتهيج أسباب التفاخر والتناحر بالألفاظ والمعاني ، فتنشب معارك كلامية

ويضطرم صراع بياني رهيب يعد من ذخائر الأدب العربي وعلى الناقد البصير بالأدب ، الخبير بالانساب ، العارف بالتاريخ أن يسبر كل ذلك بمقاييسه الفنية والبيانية حتى يستطيع أن يميز بين الجيد والرديء ، والصحيح والفاسد ، والحقيقة والخيال . وشأن الأدب اليمني في ذلك شأن الأدب العربي في سائر البلدان وفي كل زمان .

وأظن اننا لن نطيل الكلام في تفنيد دعوى الدكتور طه وانكاره ورفضه للشعر اليمني إذ قد بناها على أساس واحد ، وهو ان اليمنيين لم يكونوا عرباً يصطنعون اللغة العربية في أشعارهم ، وقد بيّنا بطلان ذلك وفصلناه في الفصول السابقة ، ولسنا في حاجة إلى التكرار وإلى التأكيد من جديد أن أهل اليمن كانوا عرباً منذ خلقهم الله وسيظلون عرباً حتى تطوى صفحة الوجود وان أهل اليمن كانوا يصطنعون العربية بل هم أصلها ، ومنهم تعلمها غيرهم كما قال الشاعر حسان ابن ثابت رضي الله عنه يخاطب عرب الشمال :

تعلّمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا فصرتم معربين ذوي نفر

لسنا في حاجة إلى تأكيد هذا . . فقط نريد أن ندلل بأن الشعر اليمني في الجاهلية وصدر الاسلام وفي كل أطواره لم يكن متأخر الطبقة ولا ضعيفاً ولا ضئيلاً . وان حظهم منه لم يكن « كحظ الموالي من الفرس الذين تعلموا العربية وتكلّفوا الشعر فيها » كما يقول الدكتور طه ، ولكنه كسائر الشعر العربي يتفاوت ضعفاً وقوة ، وفخامة ورونقا .

ذلك ما سبق أن حاورت به وناقشت الدكتور طه حسين ؛ ولقد زرته إلى بيته عام ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥ م عدة مرات وكان صدره رحباً وأنا اعرض عليه تظلّم الأدب العربي في اليمن من قسوة حكمه الجائر ، بل وقال لي إنه قد رجع عن معظم ما قاله في كتابه « في الأدب الجاهلي » ؛ وانه لم يكن موفقاً فيما قاله عن لغة حمير ، وقد رجوته أن يكتب هذا وأن ينشره في الصحف حتى لا يظلّ أحد من تلاميذه متأثراً بما سبق أن حاضرَ به ، ونشره في كتاب ، فوعد ولكنه لم يفعل ؛! ولذلك أقبل أحدهم وهو الاستاذ الجليل الدكتور شوقي ضيف وبعد أكثر من خمسين عاماً متأثراً بما سمعه من أستاذه مكرراً نفس الخطأ الذي وقع فيه ، زاعماً ان اليمن لم تتعرّب إلا بعد الاسلام وان

« حميريتها » لا علاقة لها باللغة العربية وآدابها . وذلك ما دعاني إلى إثارة النقاش من جديد .

ومما يدعو إلى العجب ان الدكتور وهو يحكي ما قاله عمارة عن قرية « الزرائب » وجبلَي « عكاد » « وان أهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ولم تتغيّر لغتهم ، وكيف ان والده وسبعة من اخوته لما زاروه في زبيد سنة ٥٣٠هـ وتحدّثوا مع الفقهاء لم يلحن واحد منهم لحنة واحدة أثبتوها عليه » لم ينتبه انه قد ناقض نفسه وان كلام « عمارة » ينفي ما زعمه متأثراً بمزاعم استاذه الدكتور طه وأساتذته من المستشرقين ، ويؤكد ان اللغة اليمنية لم تكن إلا هذه العربية الفصحى المتداولة في الحجاز وسائر أصقاع الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلي وحتى يومنا هذا . غير أن لهم ألفاظ خاصة بهم لا يفهمها ولا يستعملها سكان شمال الجزيرة العربية ، ولم يهتم بتدوينها كتاب المعاجم العربية والعالم اللغوي الشاعر القاضي مطهر ابن علي الارياني منكبّ منذ سنوات على تتبّع الألفاظ اليمنية الخاصة وتدوينها وتخريجها تصريفا واشتقاقاً على أسس ومنهاج علماء اللغة والمعاجم العربية ، وقد ألف في ذلك كتاباً نفيساً يعده للنشر ، وسيسدّ به فراغاً في تاريخ الأدب العربي . وهو ـ مع انه ذو خبرة بخط « المسند » ، والقلم الحميري ولهجات اليمن قبل الاسلام ـ يقرر وهمَ من قال أو يدعى ان لغة اليمن قديماً ليست عربية ، أو أنها لم تكن الرسّ الأصيل للغة ولهجات الشمال والقرآن المجيد ..ذلك ما اخبرني به لما التقينا في دمشق قبل بضع سنوات .

طوائف من الشعراء والنثر وأنواعه

وقد اعتمد الدكتور شوقي ضيف وهو يتحدث عن الشعر والشعراء في الفصلين الثالث والرابع على كتاب « الخريدة » للعماد الاصفهاني وعلى « العقود اللؤلؤية » للخزرجي وتعرّض لذكر مجموعة من شعراء اليمن مستشهدا بمختارات من أشعارهم أمثال ابن القم والصليحي وجياش وحاتم بن أحمد وابن مهدي وعمارة اليمني والهيثمي وأبو بكر العندي وابن شكيل وابن البوقا وابن أبي عقامة وابن مكرمان والهُبيني ونشوان الحميري ومحمد بن حمير والقاسم بن هتيمل وابي اسحاق الحضرمي وابن دعاس ثم اختص الشاعر « ابن هتيمل » بترجمة قائلاً : انه أكبر شعراء اليمن في القرن السابع الهجري ، ونسيجه اللفظي متين قوي ، وكلماته تروق السمع بجرسها ، وبحسن انتقائها ، إذ كان يعرف كيف يصطفى لفظه ، وكيف يلائم بين كلماته ملاءمات تلذ الأذن حين تصيخ إليها ، وتلذ اللسان حين ينطق بها وهو بحق صائغ ماهر » . وافرد أخرى لنشوان الحميري ولكنه وقع في وهم وقع فيه غيره حين قال : « انه من أهل جبل شامخ مطل على تعز اسمه « صبر » وانه « قد استقل بجبل صبر موطنه وقلاعه وحصونه وانه ظل ممسكا بصولجان الحكم فيه حتى وفاته سنة ٥٧٣هـ للهجرة » وقد سبق ان تحدثنا عن نشوان العالم والشاعر والمفسر والمؤرخ وموطنه الأصلي مدينة

« حوث » وقد عاش بقية حياته في خولان الشام بعد صراع مرير وحياة صاخبة ، وحين تحدث الدكتور ضيف عن عصبيّة نشوان لقحطانيته واعتزازه بها قال : « ولم يكتف بهذه العصبية الجامحة لقومه ضد مضر والعالم جميعه فقد اندفع في نقائض مع الأشراف الرسيّين أصحاب صعدة وشاع انه قال :

اما الحسين فقد حواه الملحدُ واغتاله الزمن الخئون الأنكدُ
فتبصروا ياغافلين فانّه في « ذي عَرارٍ » ويحكم مستشهدُ

وتوهم ان نشوان قد عنى الامام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال معلقاً « العرار : زهر بدوي ويقصد بذي العرار ان الحسين استشهد بالفلاة قرب الكوفة مكان النجف الحالية » فخبط العشواء ! ونشوان انما عنى الامام المهدي الحسين بن القاسم العياني وقد قتل في « ذي عرار » وهي بلدة من ناحية رَيدة البون ، وقد سبقت ترجمته ومزاعم من زعم من قومه انه المهدي المنتظر وانه لم يمت وتفاصيل المعارك الشعرية والنقائض التي دارت بين نشوان والعيانيين ؛ ولم يكتف الدكتور بهذا الوهم بل ما إن وصل إلى أبيات نشوان التي يقول فيها :

مُوتي قريشُ فكل حيّ ميتٌ للموت منا كل حيّ يولدُ
قلتم لكم أرث النبوة دوننا أزعمتم ان النبوة سرمد
منكم نبي قد مضى لسبيله قدماً فهل منكم نبيّ يعبد

حتى صبّ جام غضبه على الشاعر نشوان وبعد ان قال انه قد وصم جبينه وصمة لا تمحى بهذه الأبيات . قال أيضاً : « وهذه سفاهة وخرق وحماقة » ، ويقول العماد الاصبهاني : « قاتله الله ولعنه واخزاه ما أشد افتراءه على الله واجراه » الخ ص : ١٤٠ .

وفي الفصل الرابع « طوائف من الشعراء » تحدّث أولاً عن « شعراء الدعوة الاسماعيلية » في اليمن فذكر علي بن الفضل وتلك القصيدة التي ينسبها البعض إليه وينسبها آخرون إلى شاعره

خذى الدف ياهذه واضربي نقيم شرائع هذا النبي

وأتى على ذكر المنصور ، ثم الزواحي ، وتلميذه علي محمد الصليحي وشاعره عمرو بن يحيى الهيثمي ثم ذكر السيدة أروى وزواجها بالداعي سبأ

بن أحمد الصليحي وقال انه بوفاة السيدة تزعّم الدعوة في اليمن آل زريع أصحاب عدن وانهم كانوا يجزلون العطايا للشعراء وان أكبر شعرائهم غير منازع أبو بكر العندي وقد أصرّ على ان يسميه العيذي بالياء المثناة والذال المعجمة ! وأورد شعرا له في الداعي عمران وقد سبق الحديث عن العندي . ولم يكن الدكتور ضيف حصيفاً حين لم يشر إلى ان العندي وان كان قد مدح الداعي عمران لم يكن اسماعيليّ العقيدة بل كان سنياً شافعي المذهب ثم قال ، « وحري بنا أن نقف عند ثلاثة من الشعراء الاسماعيليين اليمنيين في العصر وهم « ابن القم » و « السلطان الخطاب » و « عمارة اليمني » .

وقد أخطأ الدكتور أيضاً حين ظن ان ابن القم وأباه كانا يعتنقان المذهب الباطني أو ان عمارة كان كذلك وأصاب بقوله ان الخطاب الحجوري كان اسماعيلياً والساعد الأيمن للداعي الذؤيب وقد فصلنا ذلك ونحن نتحدث عنه وعن أخيه سليمان وان كان قد قال بعض المؤرخين انه لم يكن مخلصاً للدعوة أكثر مما هو حريص على السلطة والجاه .

ثم تحدّث عن شعراء الدعوة الزيدية بايجاز وذكر الامام الهادي يحيى بن الحسين ومصنفاته وشعره والامام أحمد بن سليمان والامام عبد الله بن حمزة ثم قفز إلى القرن العاشر فتحدث عن موسى بهران وغيره مما لا صلة له بموضوع دراستنا ؛ وقد نتحدث عن ما وقع فيه من أوهام حول العلامة محمد بن اسماعيل الأمير وغيره عند ان نتحدث عن تاريخ اليمن الفكري في العصر القاسمي بعد القرن العاشر الهجري إن شاء الله .

وعندما تحدث عن شعراء الخوارج في اليمن ذكر أبا اسحق الحضرمي وابن الهُبيني واستشهد بمختارات من أشعارهما وانتقل إلى « الفصل الخامس » « النثر وأنواعه » فقال عن « اليمن » : « ولعل قطراً في الجزيرة العربية لم تزدهر به الكتابة كما ازدهرت في اليمن ؛ ونلاحظ هذا الازدهار منذ عهد الدولة الصليحية الاسماعيلية (٤٣٩ ـ ٥٣٢) إذ كانت تتخذ لنفسها ديوانا للانشاء ومن كبار الكتاب فيه الحسين بن علي بن القم الشاعر النابه الذي ترجمنا له بين الشعراء وله ديوان رسائل لم تنشر (ص ٢٠٣) . والدكتور بهذا التحديد الزمني واهم وقد سبق الحديث باسهاب عن الكاتب المترسل بشر البلوي (١١٠ ـ ١٩٢ هـ) ووقفنا وقفة طويلة مع بعض رسائله ونقلنا

كلمة الهمداني وهو يتحدث عن صنعاء وكتابها لما قال :

« ولم يزل فيها من كتبة الديوان بلغاء غير مولّدي الكلام ولا مستخفي المعاني ومبعدي الاستعارات » وذكر اسماء بعض من تولوا الكتابة في « ديوان الانشاء » بصنعاء (٨٧ ـ ٨٨ صفة الجزيرة) ؛ وإذن فاليمن قد ازدهرت فيها الكتابة ؛ وعرفت دواوين الانشاء قبل العهد الصليحي بعدّة قرون .

وعلى كل فقد أحسن الدكتور الحديث عن اليمن في هذا الفصل وذكر إلى جانب « ابن القم » جيّاش بن نجاح وكتابه المفيد ورسائله التي تقع في عدة مجلدات ، والخطب العقامية ورسائل أبي بكر العندي وقال « إن الكتابة كانت نشطة في بيئة الأئمة الزيدية ثم استشهد برسالة كتبها ابن القم إلى الخليفة الفاطمي المستنصر على لسان الملك المكرم الصليحي سنة ٤٦٠هـ (ص : ٢٠٨) وأورد أيضاً العهد الذي فوض به الملك المظفر الرسولي الحكم من بعده لابنه السلطان الأشرف (ص : ٢٠٩) وشواهد أخرى متأخرة بعد انتهاء الحقبة التي نؤرخ لأدابها ولو اطلع على رسائل الامام الهادي لما اهمل الاشارة إليها . وعندما تحدث عن الرسائل الشخصية « أورد رسالة بديعة وجهها الحسين بن القم إلى السلطان سبأ بن أحمد يستعطفه وقال معلقاً : « وكل من يقرأ رسائل أبي العلاء المعري يحسّ بوضوح صلة هذه الرسالة بها » (ص ٢١٦ ـ ٢١٧) ولم يهمل اليمن وهو يتحدث عن « المواعظ والخطب الدينية » وأورد قسماً من وصية الملكة السيدة ابنة أحمد ، وكلمات لأبي الغيث بن جميل وأحمد بن علوان (ص ٢٢٣) .

ذلك هو كل حظ اليمن من كتاب الدكتور شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي ورغم الهفوات والأخطاء والأوهام التي وقع فيها وأشرت إليها فهو أتقن وأشمل ما كتبه كاتب مصري في هذا الموضوع كما قلت في مطلع الحديث وقد كان الدكتور به أكرم المؤلفين بالنسبة لليمن إذ قد ذكر فيه ما لم يذكره غيره من أساتذة الأدب العربي في عصرنا الحاضر ومع ذلك كان لا بد من تأليف هذا الكتاب ؛ وآمل أني بالملاحظات التي أبديتها قد قمت بواجب أدبي ينال رضى الاستاذ الجليل ويحاول في الطبعة القادمة تجنّب تلك الأخطاء والهفوات .

جدول بالأعوام الهجرية وما يقابلها من الأعوام الميلادية

المجلس
الأعلى
الإسلامي

اعتمدتُ في الكتاب التاريخ الهجري ، وقد سادت عادة اعتماد التاريخ الميلادي بين المقلدين للأفرنج ، ورغم الأنف حاولت الجمع بين التاريخين ، ولأني لم أحافظ على ذلك رأيت أن أثبت جدولاً للأعوام الهجرية وما يقابلها من الأعوام الميلادية من سنة ١٢١هـ العام الذي ثار فيه الامام زيد بن علي وحتى وفاة الملك المظفر سنة ٦٩٤هـ .

العام الهجري	الميلادي	العام الهجري	الميلادي
١٢١	٧٣٩	١٤٤	٧٦٢
١٢٢	٧٤٠	١٤٥	٧٦٣
١٢٣	٧٤١	١٤٦	٧٦٤
١٢٤	٧٤٢	١٤٧	٧٦٥
١٢٥	٧٤٣	١٤٨	٧٦٦
١٢٦	٧٤٤	١٤٩	٧٦٧
١٢٧	٧٤٥	١٥٠	٧٦٨
١٢٨	٧٤٦	١٥١	٧٦٩
١٢٩	٧٤٧	١٥٢	٧٠٠
١٣٠	٧٤٨	١٥٣	٠٠٠
١٣١	٧٤٩	١٥٤	٧٧١
١٣٢	٧٥٠	١٥٥	٧٧٢
١٣٣	٧٥١	١٥٦	٧٧٣
١٣٤	٧٥٢	١٥٧	٧٧٤
١٣٥	٧٥٣	١٥٨	٧٧٥
١٣٦	٧٥٤	١٥٩	٧٧٦
١٣٧	٧٥٥	١٦٠	٧٧٧
١٣٨	٧٥٦	١٦١	٧٧٨
١٣٩	٧٥٧	١٦٢	٧٧٩
١٤٠	٧٥٨	١٦٣	٧٨٠
١٤١	٧٥٩	١٦٤	٧٨١
١٤٢	٧٦٠	١٦٥	٧٨٢
١٤٣	٧٦١	١٦٦	٧٨٣

العام الهجري	الميلادي	العام الهجري	الميلادي
١٦٧	٧٨٤	١٩٥	٨١١
١٦٨	٧٨٥	١٩٦	٨١٢
١٦٩	٧٨٦	١٩٧	٨١٣
١٧٠	٧٨٧	١٩٨	٨١٤
١٧١	٧٨٨	١٩٩	٨١٥
١٧٢	٧٨٩	٢٠٠	٨١٦
١٧٣	٧٩٠	٢٠١	٨١٧
١٧٤	٧٩١	٢٠٢	٨١٨
١٧٥	٧٩٢	٢٠٣	٨١٩
١٧٦	٧٩٣	٢٠٤	٨٢٠
١٧٧	٧٩٤	٢٠٥	٨٢١
١٧٨	٧٩٥	٢٠٦	٨٢٢
١٧٩	٧٩٦	٢٠٧	٨٢٣
١٨٠	٧٩٧	٢٠٨	٨٢٤
١٨١	٧٩٨	٢٠٩	٨٢٥
١٨٢	٧٩٩	٢١٠	٨٢٦
١٨٣	٨٠٠	٢١١	٨٢٧
١٨٤	٨٠١	٢١٢	٨٢٨
١٨٥	٨٠٢	٢١٣	٨٢٩
١٨٦	٨٠٣	٢١٤	٨٣٠
١٨٧	٠٠٠	٢١٥	٨٣١
١٨٨	٨٠٤	٢١٦	٨٣٢
١٨٩	٨٠٥	٢١٧	٨٣٣
١٩٠	٨٠٦	٢١٨	٨٣٤
١٩١	٨٠٧	٢١٩	٨٣٥
١٩٢	٨٠٨	٢٢٠	٠٠٠
١٩٣	٨٠٩	٢٢١	٨٣٦
١٩٤	٨١٠	٢٢٢	٨٣٧

العام الهجري	الميلادي	العام الهجري	الميلادي
٢٢٣	٨٣٨	٢٥١	٨٦٦
٢٢٤	٨٣٩	٢٥٢	٨٦٧
٢٢٥	٨٤٠	٢٥٣	٨٦٨
٢٢٦	٨٤١	٢٥٤	٠٠٠
٢٢٧	٨٤٢	٢٥٥	٨٦٩
٢٢٨	٨٤٣	٢٥٦	٨٧٠
٢٢٩	٨٤٤	٢٥٧	٨٧١
٢٣٠	٨٤٥	٢٥٨	٨٧٢
٢٣١	٨٤٦	٢٥٩	٨٧٣
٢٣٢	٨٤٧	٢٦٠	٨٧٤
٢٣٣	٨٤٨	٢٦١	٨٧٥
٢٣٤	٨٤٩	٢٦٢	٨٧٦
٢٣٥	٨٥٠	٢٦٣	٨٧٧
٢٣٦	٨٥١	٢٦٤	٨٧٨
٢٣٧	٨٥٢	٢٦٥	٨٧٩
٢٣٨	٨٥٣	٢٦٦	٨٨٠
٢٣٩	٨٥٤	٢٦٧	٨٨١
٢٤٠	٨٥٥	٢٦٨	٨٨٢
٢٤١	٨٥٦	٢٦٩	٨٨٣
٢٤٢	٨٥٧	٢٧٠	٨٨٤
٢٤٣	٨٥٨	٢٧١	٨٨٥
٢٤٤	٨٥٩	٢٧٢	٨٨٦
٢٤٥	٨٦٠	٢٧٣	٨٨٧
٢٤٦	٨٦١	٢٧٤	٨٨٨
٢٤٧	٨٦٢	٢٧٥	٨٨٩
٢٤٨	٨٦٣	٢٧٦	٨٩٠
٢٤٩	٨٦٤	٢٧٧	٨٩١
٢٥٠	٨٦٥	٢٧٨	٨٩٢

العام الهجري	الميلادي	العام الهجري	الميلادي
٢٧٩	٨٩٣	٣٠٧	٩٢٠
٢٨٠	٨٩٤	٣٠٨	٩٢١
٢٨١	٨٩٥	٣٠٩	٩٢٢
٢٨٢	٨٩٦	٣١٠	٩٢٣
٢٨٣	٨٩٧	٣١١	٩٢٤
٢٨٤	٨٩٨	٣١٢	٩٢٥
٢٨٥	٨٩٩	٣١٣	٩٢٦
٢٨٦	٩٠٠	٣١٤	٩٢٧
٢٨٧	٠٠٠	٣١٥	٩٢٨
٢٨٨	٩٠١	٣١٦	٩٢٩
٢٨٩	٩٠٢	٣١٧	٩٣٠
٢٩٠	٩٠٣	٣١٨	٩٣١
٢٩١	٩٠٤	٣١٩	٩٣٢
٢٩٢	٩٠٥	٣٢٠	٩٣٣
٢٩٣	٩٠٦	٣٢١	٠٠٠
٢٩٤	٩٠٧	٣٢٢	٩٣٤
٢٩٥	٩٠٨	٣٢٣	٩٣٥
٢٩٦	٩٠٩	٣٢٤	٩٣٦
٢٩٧	٩١٠	٣٢٥	٩٣٧
٢٩٨	٩١١	٣٢٦	٩٣٨
٢٩٩	٩١٢	٣٢٧	٩٣٩
٣٠٠	٩١٣	٣٢٨	٩٤٠
٣٠١	٩١٤	٣٢٩	٩٤١
٣٠٢	٩١٥	٣٣٠	٩٤٢
٣٠٣	٩١٦	٣٣١	٩٤٣
٣٠٤	٩١٧	٣٣٢	٩٤٤
٣٠٥	٩١٨	٣٣٣	٩٤٥
٣٠٦	٩١٩	٣٣٤	٩٤٦

العام الهجري	الميلادي	العام الهجري	الميلادي
٣٣٥	٩٤٧	٣٦٣	٩٧٤
٣٣٦	٩٤٨	٣٦٤	٩٧٥
٣٣٧	٩٤٩	٣٦٥	٩٧٦
٣٣٨	٩٥٠	٣٦٦	٩٧٧
٣٣٩	٩٥١	٣٦٧	٩٧٨
٣٤٠	٩٥٢	٣٦٨	٩٧٩
٣٤١	٩٥٣	٣٦٩	٩٨٠
٣٤٢	٩٥٤	٣٧٠	٩٨١
٣٤٣	٩٥٥	٣٧١	٩٨٢
٣٤٤	٩٥٦	٣٧٢	٩٨٣
٣٤٥	٩٥٧	٣٧٣	٩٨٤
٣٤٦	٩٥٨	٣٧٤	٩٨٥
٣٤٧	٩٥٩	٣٧٥	٩٨٦
٣٤٨	٩٦٠	٣٧٦	٩٨٧
٣٤٩	٩٦١	٣٧٧	٩٨٨
٣٥٠	٩٦٢	٣٧٨	٩٨٩
٣٥١	٩٦٣	٣٧٩	٩٩٠
٣٥٢	٩٦٤	٣٨٠	٩٩١
٣٥٣	٩٦٥	٣٨١	٩٩٢
٣٥٤	٠٠٠	٣٨٢	٩٩٣
٣٥٥	٩٦٦	٣٨٣	٩٩٤
٣٥٦	٩٦٧	٣٨٤	٩٩٥
٣٥٧	٩٦٨	٣٨٥	٩٩٦
٣٥٨	٩٦٩	٣٨٦	٩٩٧
٣٥٩	٩٧٠	٣٨٧	٩٩٨
٣٦٠	٩٧١	٣٨٨	٠٠٠
٣٦١	٩٧٢	٣٨٩	٩٩٩
٣٦٢	٩٧٣	٣٩٠	١٠٠٠

العام الهجري	الميلادي	العام الهجري	الميلادي
٣٩١	١٠٠١	٤١٩	١٠٢٩
٣٩٢	١٠٠٢	٤٢٠	١٠٣٠
٣٩٣	١٠٠٣	٤٢١	١٠٣١
٣٩٤	١٠٠٤	٤٢٢	٠٠٠٠
٣٩٥	١٠٠٥	٤٢٣	١٠٣٢
٣٩٦	١٠٠٦	٤٢٤	١٠٣٣
٣٩٧	١٠٠٧	٤٢٥	١٠٣٤
٣٩٨	١٠٠٨	٤٢٦	١٠٣٥
٣٩٩	١٠٠٩	٤٢٧	١٠٣٦
٤٠٠	١٠١٠	٤٢٨	١٠٣٧
٤٠١	١٠١١	٤٢٩	١٠٣٨
٤٠٢	١٠١٢	٤٣٠	١٠٣٩
٤٠٣	١٠١٣	٤٣١	١٠٤٠
٤٠٤	١٠١٤	٤٣٢	١٠٤١
٤٠٥	١٠١٥	٤٣٣	١٠٤٢
٤٠٦	١٠١٦	٤٣٤	١٠٤٣
٤٠٧	١٠١٧	٤٣٥	١٠٤٤
٤٠٨	١٠١٨	٤٣٦	١٠٤٥
٤٠٩	١٠١٩	٤٣٧	١٠٤٦
٤١٠	١٠٢٠	٤٣٨	١٠٤٧
٤١١	١٠٢١	٤٣٩	١٠٤٨
٤١٢	١٠٢٢	٤٤٠	١٠٤٩
٤١٣	١٠٢٣	٤٤١	١٠٥٠
٤١٤	١٠٢٤	٤٤٢	١٠٥١
٤١٥	١٠٢٥	٤٤٣	١٠٥٢
٤١٦	١٠٢٦	٤٤٤	١٠٥٣
٤١٧	١٠٢٧	٤٤٥	١٠٥٤
٤١٨	١٠٢٨	٤٤٦	١٠٥٥

العام الهجري	الميلادي	العام الهجري	الميلادي
٤٤٧	١٠٥٦	٤٧٥	١٠٨٣
٤٤٨	١٠٥٧	٤٧٦	١٠٨٤
٤٤٩	١٠٥٨	٤٧٧	١٠٨٥
٤٥٠	١٠٥٩	٤٧٨	١٠٨٦
٤٥١	١٠٦٠	٤٧٩	١٠٨٧
٤٥٢	١٠٦١	٤٨٠	١٠٨٨
٤٥٣	١٠٦٢	٤٨١	١٠٨٩
٤٥٤	١٠٦٣	٤٨٢	١٠٩٠
٤٥٥	٠٠٠٠	٤٨٣	١٠٩١
٤٥٦	١٠٦٤	٤٨٤	١٠٩٢
٤٥٧	١٠٦٥	٤٨٥	١٠٩٣
٤٥٨	١٠٦٦	٤٨٦	١٠٩٤
٤٥٩	١٠٦٧	٤٨٧	١٠٩٥
٤٦٠	١٠٦٨	٤٨٨	١٠٩٦
٤٦١	١٠٦٩	٤٨٩	٠٠٠٠
٤٦٢	١٠٧٠	٤٩٠	١٠٩٧
٤٦٣	١٠٧١	٤٩١	١٠٩٨
٤٦٤	١٠٧٢	٤٩٢	١٠٩٩
٤٦٥	١٠٧٣	٤٩٣	١١٠٠
٤٦٦	١٠٧٤	٤٩٤	١١٠١
٤٦٧	١٠٧٥	٤٩٥	١١٠٢
٤٦٨	١٠٧٦	٤٩٦	١١٠٣
٤٦٩	١٠٧٧	٤٩٧	١١٠٤
٤٧٠	١٠٧٨	٤٩٨	١١٠٥
٤٧١	١٠٧٩	٤٩٩	١١٠٦
٤٧٢	١٠٨٠	٥٠٠	١١٠٧
٤٧٣	١٠٨١	٥٠١	١١٠٨
٤٧٤	١٠٨٢	٥٠٢	١١٠٩

العام الهجري	الميلادي	العام الهجري	الميلادي
٥٠٣	١١١٠	٥٣١	١١٣٧
٥٠٤	١١١١	٥٣٢	١١٣٨
٥٠٥	١١١٢	٥٣٣	١١٣٩
٥٠٦	١١١٣	٥٣٤	١١٤٠
٥٠٧	١١١٤	٥٣٥	١١٤١
٥٠٨	١١١٥	٥٣٦	١١٤٢
٥٠٩	١١١٦	٥٣٧	١١٤٣
٥١٠	١١١٧	٥٣٨	١١٤٤
٥١١	١١١٨	٥٣٩	١١٤٥
٥١٢	١١١٩	٥٤٠	١١٤٦
٥١٣	١١٢٠	٥٤١	١١٤٧
٥١٤	١١٢١	٥٤٢	١١٤٨
٥١٥	١١٢٢	٥٤٣	١١٤٩
٥١٦	١١٢٣	٥٤٤	١١٥٠
٥١٧	١١٢٤	٥٤٥	١١٥١
٥١٨	١١٢٥	٥٤٦	١١٥٢
٥١٩	١١٢٦	٥٤٧	١١٥٣
٥٢٠	١١٢٧	٥٤٨	١١٥٤
٥٢١	١١٢٨	٥٤٩	١١٥٥
٥٢٢	٠٠٠٠	٥٥٠	١١٥٦
٥٢٣	١١٢٩	٥٥١	١١٥٧
٥٢٤	١١٣٠	٥٥٢	١١٥٨
٥٢٥	١١٣١	٥٥٣	١١٥٩
٥٢٦	١١٣٢	٥٥٤	١١٦٠
٥٢٧	١١٣٣	٥٥٥	١١٦١
٥٢٨	١١٣٤	٥٥٦	٠٠٠٠
٥٢٩	١١٣٥	٥٥٧	١١٦٢
٥٣٠	١١٣٦	٥٥٨	١١٦٣

العام الهجري	الميلادي	العام الهجري	الميلادي
٥٥٩	١١٦٤	٥٨٧	١١٩٢
٥٦٠	١١٦٥	٥٨٨	١١٩٣
٥٦١	١١٦٦	٥٨٩	١١٩٤
٥٦٢	١١٦٧	٥٩٠	٠٠٠٠
٥٦٣	١١٦٨	٥٩١	١١٩٥
٥٦٤	١١٦٩	٥٩٢	١١٩٦
٥٦٥	١١٧٠	٥٩٣	١١٩٧
٥٦٦	١١٧١	٥٩٤	١١٩٨
٥٦٧	١١٧٢	٥٩٥	١١٩٩
٥٦٨	١١٧٣	٥٩٦	١٢٠٠
٥٦٩	١١٧٤	٥٩٧	١٢٠١
٥٧٠	١١٧٥	٥٩٨	١٢٠٢
٥٧١	١١٧٦	٥٩٩	١٢٠٣
٥٧٢	١١٧٧	٦٠٠	١٢٠٤
٥٧٣	١١٧٨	٦٠١	١٢٠٥
٥٧٤	١١٧٩	٦٠٢	١٢٠٦
٥٧٥	١١٨٠	٦٠٣	١٢٠٧
٥٧٦	١١٨١	٦٠٤	١٢٠٨
٥٧٧	١١٨٢	٦٠٥	١٢٠٩
٥٧٨	١١٨٣	٦٠٦	١٢١٠
٥٧٩	١١٨٤	٦٠٧	١٢١١
٥٨٠	١١٨٥	٦٠٨	١٢١٢
٥٨١	١١٨٦	٦٠٩	١٢١٣
٥٨٢	١١٨٧	٦١٠	١٢١٤
٥٨٣	١١٨٨	٦١١	١٢١٥
٥٨٤	١١٨٩	٦١٢	١٢١٦
٥٨٥	١١٩٠	٦١٣	١٢١٧
٥٨٦	١١٩١	٦١٤	١٢١٨

العام الهجري	الميلادي	العام الهجري	الميلادي
٦١٥	١٢١٩	٦٤٣	١٢٤٦
٦١٦	١٢٢٠	٦٤٤	١٢٤٧
٦١٧	١٢٢١	٦٤٥	١٢٤٨
٦١٨	١٢٢٢	٦٤٦	١٢٤٩
٦١٩	١٢٢٣	٦٤٧	١٢٥٠
٦٢٠	١٢٢٤	٦٤٨	١٢٥١
٦٢١	١٢٢٥	٦٤٩	١٢٥٢
٦٢٢	١٢٢٦	٦٥٠	١٢٥٣
٦٢٣	٠٠٠٠	٦٥١	١٢٥٤
٦٢٤	١٢٢٧	٦٥٢	١٢٥٥
٦٢٥	١٢٢٨	٦٥٣	١٢٥٦
٦٢٦	١٢٢٩	٦٥٤	١٢٥٧
٦٢٧	١٢٣٠	٦٥٥	١٢٥٨
٦٢٨	١٢٣١	٦٥٦	١٢٥٩
٦٢٩	١٢٣٢	٦٥٧	٠٠٠٠
٦٣٠	١٢٣٣	٦٥٨	١٢٦٠
٦٣١	١٢٣٤	٦٥٩	١٢٦١
٦٣٢	١٢٣٥	٦٦٠	١٢٦٢
٦٣٣	١٢٣٦	٦٦١	١٢٦٣
٦٣٤	١٢٣٧	٦٦٢	١٢٦٤
٦٣٥	١٢٣٨	٦٦٣	١٢٦٥
٦٣٦	١٢٣٩	٦٦٤	١٢٦٦
٦٣٧	١٢٤٠	٦٦٥	١٢٦٧
٦٣٨	١٢٤١	٦٦٦	١٢٦٨
٦٣٩	١٢٤٢	٦٦٧	١٢٦٩
٦٤٠	١٢٤٣	٦٦٨	١٢٧٠
٦٤١	١٢٤٤	٦٦٩	١٢٧٢
٦٤٢	١٢٤٥	٦٧٠	١١٧٢

العام الهجري	الميلادي
٦٧١	١٢٧٣
٦٧٢	١٢٧٤
٦٧٣	١٢٧٥
٦٧٤	١٢٧٦
٦٧٥	١٢٧٧
٦٧٦	١٢٧٨
٦٧٧	١٢٧٩
٦٧٨	١٢٨٠
٦٧٩	١٢٨١
٦٨٠	١٢٨٢
٦٨١	١٢٨٣
٦٨٢	١٢٨٤
٦٨٣	١٢٨٥
٦٨٤	١٢٨٦
٦٨٥	١٢٨٧
٦٨٦	١٢٨٨
٦٨٧	١٢٨٩
٦٨٨	١٢٩٠
٦٨٩	١٢٩١
٦٩٠	٠٠٠٠
٦٩١	١٢٩٢
٦٩٢	١٢٩٣
٦٩٣	١٢٩٤
٦٩٤	١٢٩٥
٦٩٥	١٢٩٦
٦٩٦	١٢٩٧
٦٩٧	١٢٩٨
٦٩٨	١٢٩٩
٦٩٩	١٣٠٠
٧٠٠	١٣٠١

قائمة المراجع

من أهم مراجعي « سفينة الشامي » وهي مجموعة أشبه بالكشكول كنت أسجل فيها بخطى شوارد النصوص وأسماء أعلام العلماء والشعراء والكتاب والمؤلفين وتصنيفاتهم أثناء مطالعاتي للكتب اليمنية كالاكليل وصفة جزيرة العرب وسيرة الهادي وتاريخ ابن الديبع والسلوك والعقود اللؤلؤية وتاريخ عمارة ، وأنباء الزمن لابن الحسين ، وطبقات بن سمرة ونحوها ثم راجعت أثناء تأليف الكتاب ما قد طبع من تلك المخطوطات وما جّد من كتب عن اليمن ومنها :

١ ـ أئمة اليمن الجزء الأول : تأليف السيد محمد بن محمد زبارة طبعة تعز ١٣٧٢هـ /١٩٥٣ م .

٢ ـ الأكليل الجزء الأول : تحقيق القاضي محمد الأكوع .

٣ ـ الأكليل الجزء الثاني : تحقيق القاضي محمد الأكوع .

٤ ـ الأكليل الجزء العاشر : تحقيق الاستاذ محب الدين الخطيب .

٥ ـ تاريخ الأدب العربي : تأليف الاستاذ كارل بروكلمان ترجمة جامعة الدول العربية .

٦ ـ تاريخ صنعاء للرازي تحقيق الدكتورين حسين العمري ، وزكار ، الطبعة الأولى .

٧ ـ تاريخ الشعراء الحضرميين تأليف السيد عبد الله السقاف .

٨ ـ تاريخ ثغر عدن لأبي مخرمة الجزء الثاني طبعة ليدن عام ١٩٣٦ م .

٩ ـ دامغة الدوامغ للمؤلف .

١٠ ـ الزيدية تأليف الدكتور أحمد محمود صبحي الطبعة الأولى .

١١ ـ السمط الغالي الثمن تحقيق الدكتور : ركس سمث .

١٢ ـ الصليحيون تأليف الدكتور حسين الهمداني الطبعة الأولى .

١٣ ـ صفة جزيرة العرب للهمداني منشورات دار اليمامة .

١٤ ـ غاية الأماني تأليف يحيى بن الحسين دار الكاتب العربي سنة ١٣٨٨هـ /١٩٦٨ م .

١٥ ـ قصة الأدب في اليمن الطبعة الأولى سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٨٥ م .

١٦ ـ المحمدون من الشعراء للقفطي منشورات دار اليمامة .

١٧ ـ مطلع البدور لابن أبي الرجال أربعة مجلدات مخطوطة السيد محمد زبار .
١٨ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي دار الكتاب العربي .
١٩ ـ المفيد لعمارة اليمني تحقيق محمد الأكوع .
٢٠ ـ مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني تأليف الدكتور حسين العمري .
٢١ ـ مصادر الفكر العربي والاسلامي في اليمن تأليف الاستاذ عبد الله الحبشي .
٢٢ ـ اليمن الانسان والحضارة تأليف القاضي عبد الله الشماحي .
٢٣ ـ حكام اليمن المؤلفون تأليف الاستاذ عبد الله الحبشي .
٢٤ ـ معجم الشعراء للمرزباني تحقيق عبد الستار فراج .
٢٥ ـ طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار فراج .
٢٦ ـ العقود اللؤلؤية الجزء الأول تحقيق محمد الأكوع .
٢٧ ـ طبقات فقهاء اليمن لابن سمرة تحقيق فؤاد سيد .
٢٨ ـ ديوان ابن هتيمل تحقيق العقيلي .
٢٩ ـ ديوان ابن حمير تحقيق محمد الأكوع .
٣٠ ـ جناية الأكوع على ذخائر الهمداني للمؤلف .
٣١ ـ شعراء اليمن في الجاهلية والاسلام للمؤلف .
٣٢ ـ تاج العروس شرح القاموس للزبيدي الطبعة الأولى .
٣٣ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الطبعة الأولى .
٣٤ ـ مجموع بلدان اليمن وقبائلها تأليف القاضي محمد الحجري .
٣٥ ـ سيرة الامام الهادي تحقيق الدكتور سهيل زكار .
٣٦ ـ التحف شرح الزلف للسيد مجد الدين المؤيدي .
٣٧ ـ أدوار التاريخ الحضرمي تأليف محمد الشاطري .
٣٨ ـ الغيث المسجم للصفدي .
٣٩ ـ اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية تأليف السيد محمد الكبسي مخطوطتنا .
٤٠ ـ المستطاب أو طبقات الزيدية الصغرى للسيد يحيى بن الحسين مخطوطة السيد محمد محمد بن اسماعيل المنصور .

٤١ ـ الحدائق الوردية للمحلى مخطوط .
٤٢ ـ تاريخ السادة بني الوزير تأليف عبد الله الوزير مخطوطة .
٤٣ ـ بلوغ المرام للعرشي الطبعة الأولى .
٤٤ ـ الحور العين للقاضي نشوان الحميري الطبعة الأولى .
٤٥ ـ الملل والنحل للشهرستاني .
٤٦ ـ شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار .
٤٧ ـ تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي .
٤٨ ـ شعر الغناء الصنعاني للدكتور محمد عبد غانم .
٤٩ ـ محاسن الأزهار شرح قصيدة الامام عبد الله بن حمزة مخطوط .
٥٠ ـ سمط الجمان للقاضي أحمد الجنداري نسخة المؤلف بخط يده .
٥١ ـ شرح أرجوزة الخيل للامام عبد الله بن حمزة طبعة معهد الدراسات اليمنية .
٥٢ ـ نظام الغريب في اللغة للربعي مخطوطتنا .

والمئات من دواوين الشعر الحكمي والحميني وكتب أصول الأدب والتاريخ .

واعتمدت في تحقيق التواريخ ومقابلة العام الهجري للعام الميلادي على كتاب التقويم العام لخمسة آلاف عام تأليف ميخائيل دبانة طبعة دار الهلال سنة ١٨٩٨ م .

كان إكمال تأليف هذا الكتاب يومنا الأحد الموافق ٩ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ ١٩/ ١/ ١٩٨٦ م في مدينة « بروملي » أسأل الله أن يجعل عملي خالصاً لخدمة اللغة العربية لغة كتابه العزيز وان يتجاوز عن سيئاتي ، وان يتوفّني مسلماً ويلحقني بالصالحين .

أحمد محمد الشامي

فهرست السفر الرابع من كتاب
« تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي »

رقم الصفحة	العنـــــوان
٥	تقديم
٩	الشعر والشعراء :
	أسماء من سبق ذكرهم من شعراء الفترة الرابعة
١٠	وهم [٤٨] شاعراً ؛
١٤	٤٩ ـ ابن أبي عمر الصنعاني .
١٥	٥٠ ـ أحمد بن أسعد اليمني . ٥١ ـ أحمد بن سعد القدم .
١٦	٥٢ ـ أحمد بن سليمان العلوي . ٥٣ ـ أحمد بن سليمان العنسي .
١٦	٥٤ ـ أحمد حاتم . ٥٥ ـ اسماعيل بن أبي النجم .
١٧	٥٦ ـ جابر بن مقبل .
١٨	٥٧ ـ جعفر بن أحمد العياني . ٥٨ ـ الحسن بن البقا .
١٩	٥٩ ـ الحسن بن جعفر القاسمي . ٦٠ ـ الحسن العصيفري .
٢٠	٦١ ـ الحسن الحمزي .
٢١	٦٢ ـ الحسن الأشل . ٦٣ ـ الحسن بن يحيى القاسمي .
٢٢	٦٤ ـ القاضي راشد الصنعاني . ٦٥ ـ الشيخ راشد الريمي .
٢٣	٦٦ ـ زيد بن جعفر الباقري .
٢٤	٦٧ ـ سبأ بن المفرّح .
٢٥	٦٨ ـ القاضي عبد الله بن أبي النجم .
	٦٩ ـ علي بن أحمد الشاوري . ٧٠ ـ علي بن أحمد دريب .
٢٦	٧١ ـ القاضي علي الوادعي .
٢٧	٧٢ ـ علي الأسلمي .
٢٩	٧٣ ـ ابن الحيدرة .
٣١	٧٤ ـ علي بن نشوان الحميري .
٣٢	٧٥ ـ علي النويري .
٣٣	٧٦ ـ عمرو بن منصور العنسي .
٣٤	٧٧ ـ عمرو بن علي العنسي .
٣٦	٧٨ ـ الأمير عيسى القاسمي .
٣٦	٧٩ ـ أبو فراس بن دغثم .
٣٧	٨٠ ـ الأمير فلَيته بن جعفر القاسمي .

رقم الصفحة	العنـــــوان
٣٧	٨١ ـ ابن شبيب الحسني .
٣٩	وكان خطيباً مصقعاً .
٤١	٨٢ ـ القاسم بن عبد الله بن حمزة .
٤٣	٨٣ ـ قاسم اليوسفي . ٨٤ ـ علي بن محمد بن العفيف .
٤٤	٨٥ ـ القاسم الشاكري .
٤٥	٨٦ ـ القاسم بن علي بن هُتيمل .
٤٧	من فحول شعراء العرب .
٤٨	زيديته واعتذاراته للمظفر .
٥١	بين « ابن هتيمل » و « ابن حمير » .
٥٣	رسالة « ابن حمير » .
٥٥	جواب « ابن هتيمل » .
٥٨	وهم « ابن أبي الرجال » .
٥٩	ما مدح أحداً إلا رثاه . . . تخلّص حسن .
٦٠	مقارنته بأبي فراس .
٦٠	ولادته ووفاته .
٦٢	بكآء الشباب .
٦٤	كان وفيا لمبدئه وأصدقائه .
٧٣	مراثي ابن هتيمل ١ ـ بكاؤه على زوجته .
٧٩	٢ ـ بكاؤه على أخوته .
٨١	٣ ـ بكاؤه على أولاده .
٨٣	ديوانه واختلاف نسخه .
٨٤	نماذج من شعره .
٨٥	٨٧ ـ القاسم بن علي الذروي .
٨٨	٨٨ ـ القاسم بن علي القاسمي .
٨٩	٨٩ ـ محمد بن أحمد الحمزي .
٩٠	٩٠ ـ محمد بن اسماعيل بن أبي النجم .
٩١	٩١ ـ محمد بن حمير .
٩٣	وفاته .

رقم الصفحة	العنـــوان
٩٤	ديوان شعره .
٩٦	مهاترته مع مُسلّم بن العُليف .
٩٨	تشرّده واعتذاراته .
١٠٢	المكيدة الثلاثية !
١٠٧	سجن ابن حمير .
١١٠	نكبة الشيخ عمار .
١١١	جشعه وتهديداته للمشايخ .
١١٢	سخر حتى من عروبته .
١١٤	مع الامام الشهيد « أبو طير » .
١١٥	من غزلياته .
١١٧	٩٢ ـ محمد بن دعفان الصنعاني .
١١٨	٩٣ ـ محمد بن نشوان الحميري .
١١٩	خصومة الامام وابن نشوان .
١٢٣	تعقيب .
١٢٤	جناية ابن نشوان الحقيقية .
١٢٤	٩٤ ـ مسلّم بن العليف .
١٢٥	٩٥ ـ يحيى بن حجلان . ٩٦ ـ يحيى الزيدي .
١٢٦	٩٧ ـ يحيى بن محمد بن الحسين .
١٢٦	٩٨ ـ يحيى بن منصور بن المفضل .
١٢٧	٩٩ ـ شاعر « البالْ بالْ » . أبو حذيفة العدني .
١٣١	البال بال !
١٣٥	الشعر الحميني .
١٤٠	التسمية لغوية .
١٤٣	علاقة الشعر الحميني بالموشحات الأندلسية .
١٤٦	بعض البراهين والشواهد .
١٤٧	١ ـ برهان القدم .
١٤٧	٢ ـ برهان التشابه في الأوزان .
١٤٩	٣ ـ برهان يمنية الأسماء .

رقم الصفحة	العنـــــوان
١٥١	حجة التشابه بين أعاريض الشعرين .
١٥٢	١ ـ موشحة الأعمى التطليلي ومحسن بن عبد الكريم الصنعاني .
١٥٣	٢ ـ موشحة ابن سهل الاسرائيلي وحمينية ابن شرف الدين الكوكباني .
١٥٣	٣ ـ موشحة ابن الحسن الشستري وحمينية العيدروس العدني .
١٥٣	٤ ـ موشحة ابن حيان الغرناطي وحمينية السيد جحاف اليمني .
١٥٤	٥ ـ موشحة ابن خاتمة المديني وحمينية عبد الرحمن الآنسي .
١٥٤	٦ ـ لسان الدين بن الخطيب وحمينية موسى بهران .
١٥٤	٧ ـ لسان الدين بن الخطيب وحمينية موسى بهران .
١٥٤	٨ ـ لسان عبادة بن ماء السماء وحمينية شعبان سليم .
١٥٥	٩ ـ لسان ابن رافع وحمينية السيد جحاف .
١٥٦	١٠ ـ لسان ابن بقي وحمينية محمد السودي .
١٥٦	عودة الموشحات إلى الوطن الأم .
١٥٨	شعراء لا تراجم لهم .
١٦١	حظ اليمن من كتاب الدكتور شوقي ضيف .
١٦١	١ ـ مدخل .
١٦٢	٢ ـ نصيب ضئيل .
١٦٣	٣ ـ أخطاء وأوهام .
١٦٤	١ ـ أبو الجيش الزيادي .
١٦٤	٢ ـ براءة ابن مهدي .
١٦٤	٣ ـ مكان نشأة الصليحي .
١٦٥	٤ ـ ضبط « جبلة » .
١٦٥	٥ ـ ألقاب لا أسماء .
١٦٥	٦ ـ الوهم الكبير .
١٦٥	٧ ـ معن الحميري وليس الشيباني .
١٦٥	٨ ـ خطأ شائع .
١٦٨	٤ ـ الشعر الحميني والغناء اليمني .
١٧١	شعر الغناء الصنعاني قديم .
١٧١	١ ـ قيان في عهد عاد .

العنـــوان	رقم الصفحة
٢ ـ قوانين اسقف ظفار .	١٧٢
٣ ـ ذو جدن وامرؤ القيس .	١٧٢
٤ ـ الأعشى وقيان اليمن .	١٧٣
٥ ـ عامل أبي بكر والمغنيتين .	١٧٤
٦ ـ جرادتا عاد وأول من غنى .	١٧٤
٧ ـ أنواع الغناء اليمني في الجاهلية .	١٧٥
٨ ـ الغناء في عهد عمارة .	١٧٦
٩ ـ مهنة الغناء والأشراف .	١٧٦
١٠ ـ الغريض واليمن .	١٧٧
١١ ـ طويس وذو جدن .	١٧٨
١٢ ـ وضاح والهزج اليمني .	١٧٩
٥ ـ رأي الامام زيد علي في الامامة .	١٨١
٦ ـ الشعر والشعراء واللغة الحميرية .	١٨٣
٧ ـ طوائف من الشعراء والنثر وأنواعه .	٢٠٧
جدول الأعوام الهجرية والميلادية .	٢١١
قائمة المراجع .	٢٢٤
فهرست السفر الرابع .	٢٢٧